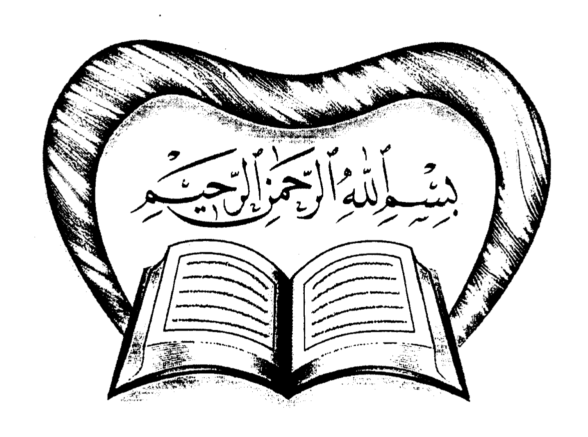
الإسلام
والتيارات المعاصرة

الأستاذ الدكتور
محمد مصطفى الشناوي
أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

الدكتور
نظير محمد محمد عياد
مدرس العقيدة والفلسفة
بكلية أصول الدين والدعوة
جامعة الأزهر

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م



﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمـــد لله نحمـــده ونســـتعين به ونستهديه ونشكره ولا نكفره ، ونعـــادي من يكفره ، .ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا إنه مـــن يهديـــه الله فلا مضل لـــه ، وأشهد أن لا أله إلا الله خصنا بخير كتاب أنزل ، وشرفنا بخير نبي أرسل ، وجعلنا بالإسلام خير أمة أخرجت للناس نأمر بالمعـــروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . اللهم أحينا على سنته وأمتنا على ملته واحشرنا في زمرته ، وألحقنا بصحبته اللهم أمين .

أما بعد ...

ففـــي الكـــتاب الذي بين أيدينا عرض لبعض الاتجاهات والمذاهب الماديـــة الـــتي دانت بالمادة واتخذتها إلهاً ، فجعلت منها وإليها مرد كل شيء وذلك رغبة منها في الخروج على الأديان ، والتحقير من شأنها ، والتقليل من تأثيرها على النفوس مع أن الواقع خلاف ذلك تماماً .

لهـــذا قمـــنا بعرض هذه المذاهب علي ضوء المنهج العلمي الصحيح التـــزمنا فيه بالموضوعية التامة ، وناقشناها من زوايا متعددة وبنفس اللغة التي تـــتحدث بهـــا . ثم بيَّنـــا موقف الإسلام منها ، وكل ذلك بأسلوب واضح لا غمـــوض فـــيه ولا تعقيد رغبة منا أن يحقق هذا الكتاب الغرض المنشود منه .

فإن كنا قد وفقنا فذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، وإن كانت الأخرى فذلك من أنفسنا والشيطان والله ورسوله منه براءة .

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [1]

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) سورة النساء من الآية (٧٩) .

الفصل الأول: الإلحاد

أ: تعريفه فى اللغة:

وردت مادة "ألحد" فى اللغة بمعان كثيرة، وكل منها يعود إلى معنى ، ومن ذلك ما يلى : اللَّحد – اللُّحدُ:– الشق الذى يكون فى جانب القبر موضع الميت ، ولحده: دفنه.

والتحد : مال، والملحد العادل عن الحق: المدخل فيه ما ليس فيه، وألحد: مارى وجادل .

وألحد الرجل : أى ظلم فى الحرم ، وأصله من قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [1] أى إلحاداً بظلم.

ولحد: فى شهادته يلحد لحداً : أثم ولحد إليه بلسانه : مال ، والملتحد الملجأ لأن اللاجئ يميل إليه [2] وبتأمل هذه المعانى يلاحظ أنها ترجع إلى معنى واحد أصلى هو الميل ، فالذى يحفز اللحد لا يحفره إلا بعد أن يميل عن وسط القبر، والدائن لا يعدل فى دينه، ولا يزيد عليه إلا إذا مال عن الدين الحقيقى ، والمدخل فى الحق ما ليس منه يميل عن سبيل الحق، والتعاليم الدينية السليمة المشروعة من قبل العظيم العادل، والإنسان لا يلجأ إلى ملجأ إلا إذا مال إليه بقلبه وحسه ووجدانه من هنا يتضح أن معانى مادة "ألحد" ترجع إلى أصل واحد وهو الميل.

---

(١) سورة الحج الآية ٢٥.

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور جـ ١٢ صـ ٢٤٦ -٢٤٧ ، المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى جـ١ صـ ٥٥٠، مختار الصحاح صـ ٥٩٣، المعجم الوسيط جـ١ صـ ٨١٧ مجمع اللغة العربية ، المعجم الوجيز صـ ٥٥٢ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.

ب- تعريفه في الاصطلاح

عرف الإلحاد فى الاصطلاح بأنه مذهب من ينكرون الألوهية ، والملحد غير مؤله، وهذا معنى شائع فى تاريخ الفكر الإنسانى، ويتضمن رفض أدلة المفكرين على وجود الله تعالى وقد أطلق هذا المذهب:

١- على أولئك الذين يحيون وكأن الله غير موجود.

٢- كما أطلق على أولئك الذين يفسرون العالم تفسيراً مادياً من غير حاجة لإله [١].

فالإلحاد يعنى إنكار وجود الله تعالى، وهو مفهوم قائم على أساس المذهب المادى الذى يحصر الموجود فى المحسوس فقط، ولهذا يرفض الألوهية ، كما ينكر النبوة ، وما يتعلق بها من معجزة ، وكتب منزلة ، كما يرفض عالم الغيب جملة وتفصيلاً فالإلحاد فى اصطلاح العلماء يعنى الكفر بالله والعدول عن طريق الإيمان ، وأهل الرشاد والتكذيب بالبعث والجنة والنار ، وحصر الحياة كلها فى الوجود المادى .

يقول الدكتور / يحيى هاشم الإلحاد هو : "إنكار أمر موجود فى الدين لا يحتاج فى إثبات وجوده فيه إلى دليل كبر هذا الأمر كالقول بوحدانية الله أو صغر كالقول بغسل الوجه فى الوضوء؛ وذلك لأن إنكار أمر من هذه الأمور يصعد إلى مرتبة الكفر؛ لأنه يعنى تكذيب الله، أو تكذيب رسوله وهذا أقصى درجات الكفر" [٢].

---

(١)انظر: المعجم الفلسفى مراد وهبة صـــ ٨٩.

(٢) الفكر الإسلامى فى مواجهة التيارات الفكرية .د. يحيى هاشم صـــ ١٠٩ مطبعة التقدم ط١ ١٤٠٦هــ . ١٩٨٦.

جـ - معنى الإلحاد فى القرآن الكريم [1]:

كلمة إلحاد من الكلمات التى وردت فى القرآن الكريم، وعندما نبحث عن معناها فيه نجد أنها تعنى الميل والعدول، وقد وردت فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [٢].

فالإلحاد هنا بمعنى يسير المشاركة والتكذيب والعدول عن الحق قال قتادة : "يلحدون يشركون فى أسمائه... وعن ابن عباس الإلحاد : التكذيب ، وأصل الإلحاد فى كلام العرب العدول عن القصد والميل والجور والانحراف" [٣].

والإلحاد فى أسماء الله تعالى يقع على ثلاثة أوجه:

١- إطلاق أسماء الله المقدسة على غير الله تعالى وذلك مثلما فعل الكفار عندما سموا أوثانهم بأسمائه تعالى فسموا اللات والعزى ومناة والأولى مشتقة من الإله، أما الثانية فمن العزيز، والثالثة مشتقة من المنان وكان مسيلمة الكذاب يلقب نفسه بالرحمن .

٢- أن يسموا الله تعالى بما لا يجوز تسميته به من أسماء كتسميته أبا للمسيح، وقول جمهور النصارى الأب،الابن،الروح القدس، كما أن الكرامية يطلقون لفظ الجسم عليه تعالى .

---

(١) وردت كلمة إلحاد فى القرآن الكريم فى أربع مواضع. انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. محمد فؤاد عبد الباقى صـ ٧٤٥ دار الحديث للطباعة والنشر . ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٠.

(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ صـ ٤٢٦ عند تفسيره للآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

٣- أن يذكر العبد ربه بلفظ لا يعرف معناه ولا يتصور مسماة فإنه ربما كان غير لائق به تعالى .

فهذه الأقسام الثلاثة هي الإلحاد في الأسماء (١).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢) .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا . . . ﴾(٣) .

والمقصود بالإلحاد هنا هو الكفر فقد نزلتا في حق الكفار فآية النحل نزلت لترد على المدعين أن القرآن من وضع البشر، ويشيرون إلى رجل أعجمي كان بين أظهرهم (٤).

أما أية "فصلت" فقد جاءت تهدد الذين يكذبون بآيات الله أو الذين يستهزءون بالقرآن، أو الذين يطعنون في دلائل البنوة، وكل هذه الأشياء كفر (٥).

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٦).

---

(١) انظر تفسير الرازي: المجلد الثامن جـ ١٥ صـ ٧٥-٧٦ عند تفسير الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٢) سورة النحل الآية ١٠٣.

(٣) سورة فصلت الآية ٤٠.

(٤) انظر . تفسير ابن كثير جـ٢ صـ ٩٠٩ عند تفسيره للآية ١٠٣ من سورة النحل .

(٥) انظر نفس المصدر جـ٤ صـ ١٥٤ عند تفسيره للآية رقم ٤٠ من سورة فصلت .

(٦) سورة الحج الآية ٢٥.

قال القرطبي : "وهذا الإلحاد والظلم يجمع المعاصي من الكفر إلى الصغائر ، فلعظم حرمة المكان توعد الله تعالى على نية السيئة، ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب عليها إلا في مكة" (١).

أسباب الإلحاد:

الإلحاد كظاهرة ظهرت وامتد أثرها إلى ميادين شتى، واتجاهات مختلفة نستطيع الوقوف على الأسباب التي دفعت لظهوره وانتشاره وهاك هذه الأسباب:-

١- الكنيسة الأوربية:

لقد حكى القرآن الكريم أن الله تعالى أرسل سيدنا عيسى عليه السلام بالحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

قال تعالى :﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (٣).

ومع هذا البيان الواضح إلا أن الكنيسة بحماقتها ساعدت على نشر الإلحاد من خلال المجامع التي أنشأتها الكنيسة الأوربية لتقرير أمور العقيدة ،

---

(١) تفسير القرطبي جـ٥ صـ ٤٤٢٨ عند تفسيره للآية ٢٥ من سورة الحج ط دار الشعب.

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٠.

(٣) سورة المائدة الآية ٧٢.

وأعطت لنفسها حقوقاً خاصة بها واعتبرت نفسها المسئولة عن كل أمور الدين مع أن الواقع خلاف ذلك "فالمتأمل فى تاريخ المسيحية يلاحظ أن الكنيسة لم تكن بمفهومها فى القرون الوسطى معروفة منذ زمن المسيح عليه السلام، وإن كانت هناك سلطة معينة فى زمنه، فإنها لم تتعد منحه عليه السلام لبعض تلاميذه سلطة التبشير بالتوبة" (١) ودعوة الناس إلى التحلى بمكارم الأخلاق، وقد قام تلاميذه بأداء ما أمروا به ولم يشر أحد من الباحثين من قريب أو بعيد إلى وجود ما يدل على إقامة كنيسة فى عهده أو فكر فيها.

يقول أ. شارل جنيبر : "وإذا ما قلنا إن المسيح صرح للحواريين الاثنى عشر بسلطة ما، وهذا محل جدل حتى اليوم فمما لا شك فيه أن الأمر لم يتعد منحهم بعض ما أوتى هو من سلطان فى التبشير بالتوبة وبحلول مملكة الله، ولم يضع لهم قساوسة حيث لم يكن فى حاجة إلى ذلك، وعلى أى حال فإننا عندما ندرس ما قام به هؤلاء الحواريون من أعمال لا نجد أنهم فكروا فى إنشاء الكنيسة" (٢).

أضف إلى هذا فإن الأناجيل خلت من الحديث عن دعوة المسيح لبناء كنيسة بمعناها المعروف أو فكر فيها، وكل ما جاء فى هذا الشأن. نص لأحد تلاميذه يقول له: "وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة ابنِ كنيستى ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها" (٣).

واعتماداً على هذا النص بدأ رجال المسيحية يعتمدون على أن

---

(١) موقف الإسلام والكنيسة من العلم. عبد الله المشوحى صـ ٩٦ مكتبة المنار. ط٢ : ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م.

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها. شارل جنيبر . ترجمة د. عبد الحليم محمود صـ ١٦٧. دار المعارف ط٤.

(٣) العهد الجديد . إنجيل متى إصحاح ١٨. دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط.

المسيح أشار ببناء الكنيسة لتقرير أمور العقيدة ، والحفاظ عليها ؛ فأنشئت الكنائس ثم أسقف المجامع ، وأدخلوا فى الدين ما ليس منه عن طريق القائمين على أمر العقيدة ، فجعلوا الله ثالث ثلاثة ، وألهوا عيسى وادعو بنوته لله ، كما ألهوا الروح القدس وصار معروفاً عنهم . الإيمان . بالأب والابن ، والروح القدس.

وبدأت المسيحية "النظر فى الإله ذى الأقانيم نظراً فلسفياً لاهوتياً تختلط فيه الفلسفة باللاهوت، ويمتزج فيه الواقع بالخيال ، ويعمل العقل المسيحى فى جد وبراعة فى نسج ملحمة من أبرع الملاحم التى تصل السماء بالأرض، وتخلط الله بالإنسان" [١].

ولم يكتفوا بذلك ؛ بل ألهوا مريم عليها السلام، ثم اخترعوا عقيدة الصلب والفداء ثم صكوك الغفران ، وعبادة الصليب فالأوثان والأصنام ، وقد فرضت على أتباعها الإيمان بهذه الأمور دون جدال أو مناقشة.

كل هذه عوامل ساعدت على فساد العقيدة الحقة الموحى بها من عند الله تعالى وطمس معالمها واستبدالها بأمور ما أنزل الله بها من سلطان، أمور تتصادم مع صحيح المنقول، وصريح المعقول.

بالإضافة إلى هذا فقد كشف الناس أسرار الكنيسة فهالهم ما رأوه من فساد أخلاقى بين الرهبان والراهبات فالقول يخالف الفعل[٢].

فضاق الناس بها وخرجوا عليها منكرين أفعالها، وظهرت العبادات الإلحادية مثل لا إله والحياة مادة فلا بعث، ولا حساب "وليس صحيحاً أن

---

(١) المسيح فى القرآن والتوراة والإنجيل. عبد الكريم الخطيب صـ ٢٥٣. دار الكتب الحديثة ط١. ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥م.

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة. محمد قطب صـ ٥٣ - ٥٤ .

الله هو الذى ينظم الأكوان؛ إنما الصحيح هو أن الله فكرة خرافية اختلقها الإنسان ليبرر بها عجزه ولهذا فإن كل شخص يدافع عن فكرة الله إنما هو شخص جاهل وعاجز " [١].

وبناء على ما سبق عرضه ننتهى إلى أن الكنيسة كانت سبباً مباشراً فى نشر الإلحاد، وصرف الناس عن الدين وتطاولهم عليه ، واستبداله بعقيدة باطلة أعنى الإلحاد.

فقد حجرت على أقلام وعقول المفكرين ووصل الأمر إلى هتك الأعراض واستحلال المحرمات ، وقد مكن للكنيسة فى ذلك الوقت ما كانت توصف به هذه الفترة، ويكفى أن نعلم أن الأوربيين أنفسهم كانوا يسمونها عصور الظلام.

٢- موقف الكنيسة من العلم :

لقد احتلت الكنيسة مكاناً كبيراً فى النفوس الأمر الذى أعطاها هيبة وقداسة، ساعد على ذلك أن كان فى القرن الثالث عشر بابوات أقوياء رفعوا مقام الكنيسة مدى قرن كامل إلى أعلى درجات النظام والقانون فى جميع البلاد الأوربية[٢].

ونظراً لهذه المكانة التى أتيحت لها إبان العصور الوسطى ، فقد رأت أن أى مصدر من مصادر المعرفة لا يصدر عن سواها وأى خروج عليها خروج عن الدين يجب مقاومته . يقول بعض الباحثين : " لقد كانت الكنيسة بحماقتها هى المسئول الأول عن ذلك حين حاربت العلم والعلماء مما أدى

---

(١) حركات ومذاهب. فتحى يكن صـ ١٥. مؤسسة الرسالة ط٣ . ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) انظر: قصة الحضارة ول ديورانت م ٩ جـ ١٧ صـ ٣٥٢ ترجمة محمد بدران . الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القراءة للجميع صيف ٢٠٠١م.

بغتة من العلماء إلى الإلحاد" [١].

نتيجة للتعنت الشديد والأذى المستمر من قبل رجال الكنيسة وساعدهم على هذا ما تهيأ لهم من نفوذ دنيوى.

فقد ساعدهم على المطالبة بفرض التربية التى يأخذ بها التلاميذ فى مدارسهم ، ومصادرة الكتب التى لا تساير نزعاتهم وإقصاء المعلمين المارقين عن وظائفهم[٢] وترتب على كل هذا أن حتم على كل مؤلف أن يعرض ما يريد طبعه على القس أو المجلس الذى عين للمراقبة على المطبوعات ، وصدرت أحكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئاً لم يعرض على المراقب ، أو ينشر بدون إذن وقد نبهت العقيدة إلى المراقب على ضرورة تدقيق النظر فيما ينشر خوفاً من أن يكون على خلاف ما تعتقده الكنيسة [٣].

هذا وقد وقفت الكنيسة بالمرصاد للعلم والعلماء ويرجع ذلك لأمرين :

أ- خوفها على مكانتها فى النفوس، فقد كانت هذه المكانة قائمة على مجموعة

من الخرافات التى تبثها الكنيسة فى العقول ؛ بزعم وجود أسرار خاصة

فى الدين لا يعرفها إلا رجال الدين، وعلى الناس الخضوع لهم .

---

(١) نظرية معرفة الله تعالى. بحث منشور بمجلة الأحمدية. د.أحمد معاذ علوان صـــ ٢١. مجلة علمية محكمة دورية العدد الرابع دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث. دبى. جماد الأول ١٤٢٠هـــ - أغسطس ١٩٩٩م.

(٢) انظر: الفكر المادى الحديث وموقف الإسلام منه د. محمود عتمان صـــ ٣٤.

(٣) انظر: موقف الإسلام والنصرانية من العلم. عبد الله المشوحى صـــ ١٠٠، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية للشيخ محمد عبده . تحقيق ودراسة د. عاطف العراقى صـــ ١٨٦ - ١٩٠ - طبعة خاصة تصدرها دار قباء ضمن مشروع مكتبة الأسرة ١٩٩٨م.

ب- إن هذا العلم فى الحقيقة هو علم المسلمين الذى نقله الأوربيون إبان وجود الإسلام فى أوربا (١).

لهذا حاربت الكنيسة العلم فقد خشيت من انتشاره بانتشار الإسلام الذى هو دين العلم فحاربت الحركة العلمية بكل ما أوتيت من قوة ، وجعلت هذا الهدف هو غايتها ، واستعملت للوصول إليها كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة ؛ لهذا لا غرابة فى أن نرى أن "أكثر الوظائف العلمية حتى فى أوج العصور الوسطى ينتمون إلى نوع من أنواع المنظمات الدينية وكانوا جزءاً من الكنيسة" (٢).

وظل الأمر هكذا حتى جاء عصر النهضة الأوربية، واكتشف بعض العلماء حقائق جديدة عن الأرض والكون والحياة "وأعلنوا اكتشافاقم العلمية ، واختباراقم فقاومت الكنيسة ، وقام رجالها المتصرفون بزمام الأمور فى أوربا وكفروهم واستحلوا دماءهم، وأموالهم فى سبيل الدين وأنشئوا محاكم التفتيش التى تعاقب أولئك الملحدين والزنادقة" (٣).

"وهكذا عوقب العالم الشهير "جاليليو" بالقتل لأنه كان يعتقد بدوران الأرض حول الشمس" (٤).

وهكذا لقى الكثير من العلماء هذا المصير جزاء لمخالفتهم آراء الكنيسة ، ولكن الحركة العلمية واصلت زحفها، واستطاع العلماء أن يقدموا دلائل على نظرياقم العلمية وشيئاً فشيئاً فقدت الكنيسة مكانتها،

---

(١) انظر: ركائز الإيمان. محمد قطب صـ ١٤٥. دار الشروق ط١ ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م.

(٢) انظر: دراسات فى المذاهب المعاصرة. د. محمد شلبى صـ ١١ (بدون).

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين. أبو الحسن الندوى صـ ١٥٧. مكتبة الإيمان بالمنصورة.

(٤) نفس المصدر، صـ ١٥٧ ، وانظر : قصة النزاع بين الدين والفلسفة د. توفيق الطويل صـ ١٩٣ - ١٩٩ ، الفكر المادى د. محمود عتمان صـ ٤٤ - ٤٦.

كما خسرت موقعها فى قلوب الناس ، واندفع الناس إلى الإيمان بالعالم المادى كإله جديد يحقق الخير كله ، وكان هذا الموقف من قبل الكنيسة للعلم والعلماء ، بداية انحراف خطير فى الحياة الأوربية ، وهو فصل الدين عن الدولة . وهكذا كان الانحراف العلمى من قبل الكنيسة هو الآخر سبباً فى ظهور الإلحاد.

٣- طغيان الكنيسة وفساد رجال الدين :

لم يكتف رجال الدين المسيحى بالدعوة إلى عقيدة باطلة ترفضها العقول كما رفضتها النصوص الدينية، وإنما ارتكب رجال الدين جرماً أخلاقياً كان له أثره البالغ فى نفوس الكثير فى الخروج عليها والركون إلى الإلحاد واعتناقه.

فلقد تأثر رجال الدين المسيحى فى البداية بالنصوص الداعية إلى التقشف والبعد عن الدنيا والعزوف عنها لأجل الآخرة.

فقد جاء فى إنجيل متى فى الإصحاح التاسع عشر ما نصه " فقال يسوع لتلاميذه الحق أقول : إنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السماوات ، وأقول لكم: إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله"[١] .

وإذا كان هذا النص قد دعا إلى الزهد فى الدنيا ؛ فهناك من النصوص ما دعت إلى الرهبانية التى ابتدعوها كما قال الله تعالى : ﴿ ... وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا

(١) الكتاب المقدس : إنجيل متى الإصحاح ١٩/فقرة ٢٤-٢٥ صـ ٣٥ دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط.

رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ... ﴾[١]

فقد جاء فى إنجيل متى "يوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات من استطاع أن يفعل فليفعل" [٢].

ولا شك أن مثل هذه الأمور تصادم الفطرة التى فطر الله الناس عليها، لهذا فما إن وردت الأموال إلى الكنيسة بجانب ما تتمتع به من سلطة مطلقة، حتى تفشى الفساد بين رجالها ، والطغيان بين أفرادها.

وشيئاً فشيئاً أخذ رجال الدين يبتعدون عن الالتزام بما جاء فى الكتاب المقدس "وطغى سلطان المادة ، وبدأت عوامل الضعف والانحراف تتسرب إلى الكنيسة شيئاً فشيئاً ، وبدأ رجال الكنيسة يستغلون سلطانهم الهائل فى ملذاتهم ، وشهواتهم حتى صاروا غارقين فى البذخ والترف والفجور الذى يتعفف منه الفرد العادى من غير المتدينين" [٣].

وقد عرض صاحب قصة الحضارة على لسان إحدى القديسات شهادة واضحة على مدى الطغيان والفساد الذى انتشر بين رجال الكنيسة ، تقول القديسة كترين السيانية :

" إنك أينما وليت وجهك سواء نحو القساوسة، أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين ، أو الطوائف الدينية المختلفة ، أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا سواء كانوا صغاراً فى السن أو كباراً ؛ لم تر إلا شروراً رذيلة تزكم أنفك رائحة الخطايا الأدمية البشعة ؛ إنهم ضيقوا

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٧..

(٢) إنجيل متى. الإصحاح. ١٩ فقرة ١٢ – صـ ٣٤.

(٣) موقف الإسلام والكنيسة من العلم عبد الله المشوحى صـ ١٠٣.

العقل شرهون بخلاء تخلوا عن رعاية الأرواح اتخذوا بطونهم إلهة لهم ، يأكلون ، ويشربون فى الولائم الصاخبة، حيث يتمرغون فى الأقذار ويقضون حياتهم فى الفسق والفجور ،... ويطعمون أبناءهم من مال الفقراء ، ويفرون من الخدمات الدينية فرارهم من السجون" [١] ويؤكد ذلك:

ما يذكره "ول ديورانت" "أن سجلات الأديرة احتوت على عشرين مجلداً من المحاكمات بسبب الاتصال بين الرهبان والراهبات ، لهذا وصفوا بأنهم خدام شيطان منغمسون فى الفسق واللواط، والشره وبيع الوظائف الدينية والخروج على الدين بل إن رجال الجيش أرقى خلقاً من رجال الدين" [٢].

ويشهد لهذا الانحراف خلوات الاعتراف وما كان يحدث فيها من أفعال غير أخلاقية وسلوكيات شاذة يبعد عنها الرجال العاديون فكيف برجل الدين؟! يقول د. أحمد شلبى : "ففى خلوات الاعتراف حدثت أشياء يقشعر لها الوجدان ، ولست أجدنى فى محل من ذكر هذه الفضائح فى هذا الكتاب ، وإنما أشير عليها إشارة سريعة لعل قراراً حاسماً يصدر بإيقاف هذا النزيغ الذى يرتكب باسم الدين ، وقد نشرت المجلة المسيحية "الرسالة الحياة" صوراً من ذلك يندى لها الجبين ، وذكرت أحداثاً محددة اعتدى فيها رجال الدين ، أو حاولوا العدوان على المقترفات" [٣] هذه المساوئ بجانب الطغيان الذى لازم رجال الكنيسة أمداً طويلاً وذلك من خلال فرض السخرة على الناس،

---

(١) قصة الحضارة ول ديورانت م١١ جـ ٢١ صـ ٨٥ ترجمة محمد بدران. د. عبد الحميد يونس . الهيئة المصرية العامة للكتاب . مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١.

(٢) نفس المصدر صـ ٨٤.

(٣) المسيحية د. أحمد شلبى صـ ٢٥٦ . مكتبة نهضة مصر ط٨ ١٩٨٤م.

وضرورة الخضوع لرجال الدين فيما يتعلق بالكون والحياة، وأهمية إخراج العشر مما عندهم هبة للكنيسة ؛ كان لذلك كله أثار بعيدة فى تنفير الناس فيها والخروج عليها والتحرر من الدين[1].

والتخلص من سلطان رجاله دون رجعة نتيجة لما لاقوه من إذلال ، وظلم واستبداد كنسى استمر أمداً طويلاً فكان نتيجة هذا كله "الرفض الكامل لكل المعتقدات الدينية ، والكراهية العامة لكل عقيدة تنادى بالإيمان بالغيب ، واتهام الرسل جميعاً بالكذب والتدليس ،وهكذا برزت الموجه الأولى من موجات الإلحاد العلمى"[2].

٤- مظالم العالم الرأسمالى :

يذكر بعض الباحثين أن الفساد الذى سيطر على أوربا وترتب عليه ظهور الإلحاد يرجع إلى المظالم التى نتجت عن النظام الرأسمالى فيقول:

"ما كادت أوربا تتخلص جزئياً من سلطان الكنيسة ويكتشف الناس قوة البخار والآلة حتى تحول الناس من الزراعة إلى الصناعة ، وهرع أهل الإقطاع إلى التصنيع فامتلكوا المصانع الكبيرة، وحازوا الثروات الضخمة ، واستغلوا العمال استغلالاً فاحشاً، وانتشرت المظالم الهائلة وظهرت الطبقات المتفاوتة من رأسماليين جشعين إلى عمال فقراء مظلومين، وكان رؤية هذا الظلم الجديد، ومساندة رجال الدين وسكوتهم عنه سبباً جديداً فى انتشار الإلحاد، والشك فى وجود الله واتهام الدين بمساندة الظلم أو عجزه عن تقديم حل ناجح لمشكلات الإنسان على الأرض" [3].

---

(١) انظر: ركائز الإيمان. محمد قطب صـ ١٤٦ – ١٤٧. دار الشروق ط١ ٢٠٠١م.

(٢) الإلحاد . أسباب هذه الظاهرة وطرق علاجها. عبد الرحمن عبد الخالق صـ ٩ . الناشر مكتبة الحرمين للعلوم النافعة ط٢.

(٣) نفس المصدر صـ ١٠.

وترتب على هذا اختفاء العقائد الدينية، وبدأ الناس يبحثون عن إله جديد، أملاً فى وجود حل لديه من هذا الظلم الذى أحاط بهم وعجزت الكنيسة عن السيطرة عليه بل على العكس كانت وراءه تدفعه إلى الأمام ، وهكذا فعل النظام الرأسمالى فى النفوس ما فعلته الكنيسة من المساعدة على ظهور الإلحاد وانتشاره.

وظهر لأول مرة فى تاريخ أوربا المسيحية دولة جمهورية لا دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب وليس باسم الله، وتعتمد على حرية الدين بدلاً من الكثلكة، وعلى الحرية الشخصية بدلاً من التقيد بالأخلاق الدينية وعلى دستور وضعى بدلاً من قرارات الكنيسة[١].

وواقع الأمر أن ظهور الإلحاد نتيجة لمساوئ النظام الرأسمالى نتيجة طبيعية لأن الشعور بالظلم والحاجة الملحة يترتب عليهما طباع غريبة وأخلاقيات شاذة "ويعطينا علماء الاجتماع، وعلماء النفس صوراً من الانحلال والشرور التى تصبغ نفوس الطبقات الفقيرة، والتى لا توجد بين الأغنياء، فبين الفقراء تنتشر أخلاق ، وطباع سيئة وأنواع من السلوك السيئ مثل الحقد والكراهية ومثل الكذب والنفاق، والدعارة والسرقة والاحتيال ، خاصة بين النفوس الضعيفة ، وهذا لا يمنع من انتشار أخلاق وطباع سيئة بين الأغنياء" [٢] وانتشار أخلاق وطباع فاضلة بين الفقراء.

٥- المخططات اليهودية:

لقد بذل اليهود وما زالوا يبذلون ما فى وسعهم لهدم الأديان وإشاعة الإلحاد ولقد أحسن اليهود استغلال الأحداث التى قدمتها لهم الكنيسة نتيجة

---

(١) دراسات فى المذاهب المعاصرة د. محمد شلبى صـ ٢٧ (بدون).

(٢) العلم والمنطق والإيمان أ. كمال بنيامين بطرس صـ ٢٨٤. مكتبة الأنجلو المصرية.

لحماقة القائمين على أمرها، وقد جاء فى ألبروتوكولات.

"ويجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان، وأن تكون النتيجة المؤقتة هى إثمار ملحدين، فلن يدخل هذا فى موضوعنا، ولكن سيضرب مثلاً للأجيال القادمة التى تصغى إلى تعاليمنا على دين موسى الذى وكل إلينا بعقيدته الصارمة وأوجب إخضاع كل الأمم تحت أقدامنا" (١) .

وقد قاموا بهذا الذى خططوا له على أكمل وجه وعملوا على نشر الإلحاد بكل الوسائل الممكنة، وغير الممكنة ولذا جاء فى البروتوكول الأول "إن الغاية تبرر الوسيلة ، وعلينا –ونحن نضع خططنا– ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقى، بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضرورى ومفيد" (٢).

فاليهود هدفهم الأول هو نشر الإلحاد لإثمار ملحدين؛ لهذا لم يكن من قبيل المصادفة أن تنشأ الفلسفة الحديثة والمعاصرة بطابعها الإلحادى الموجودة عليه فقد نشأت فى ظل ثلاثة من رواد الفكر اليهودى وهم " ماركس ، وفرويد، وسارتر" الذين روجوا بفلسفاقم للإلحاد ، والانحلال الأخلاقى السائد فى العالم"(٣).

فمن ناحية دعا ماركس إلى الشيوعية وهو صاحب المقولة الشهيرة : "لا إله والحياة مادة" ، أما فرويد فهو أيضاً يهودى عمل على نشر الإباحية من خلال نظريته المعروفة بنظرية التحليل النفسى، وأما سارتر فهو الآخر عمل على نشر الإلحاد من خلال تفسيره للوجود تفسيراً يصادم المعقول حيث لا غاية له ولا هدف.

---

(١) بروتوكولات حكماء صهيون. صــ ١٦٩ محمد خليفة ط٤ الناشر المكتب العربى بيروت. لبنان.

(٢) نفس المصدر صــ ١١٦.

(٣) الهيار الشيوعية أمام الإسلام د. سعد الدين صالح صــ ٢٠ دار الأرقم للطباعة ط ١٤١٠هـــ / ١٩٨٩م.

ومن ناحية أخرى نجد أنهم لتحقيق هذا الهدف قاموا بإغراء "المرأة بالخروج إلى العمل فى المصانع والكشف عن مفاتنها ، كما أطلقوا الشعارات البراقة التى ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب ، كما عملوا على تحطيم كيان الأسرة والمجتمع من خلال النظريات التى روجوا لها وأنشئوا أجيالاً فارغة العقول"[١].

٦- الثورة الصناعية:

من الأسباب التى شجعت على ظهور الإلحاد ما أحدثته الثورة الصناعية من نجاحات مبهرة ترتب عليها تغير معاكس فى كل المفاهيم ، وترتب على ذلك اقتران الإلحاد بالقوة المادية؛ لأن الواقع يشهد بذلك على حد زعمهم فللمدنية محاسن كثيرة، ولكن الإنسان لم يعرف كيف يستخدمها على وفق مثله وقيمه الدينية "إن دولة كروسيا لم تصبح دولة عظمى إلا بعد أن أعلنت أنها دولة إلحادية، ورأوا مع ذلك أن الدول التى ما زالت تتمسك بالدين دول متخلفة فى القوة والصناعات ، فظن الناس لذلك أن الإلحاد سبب للقوة والعلم ، وأن الدين يعنى التخلف والجهل" [٢] لهذا تحول الناس من الإيمان بالدين إلى الإيمان بالعلم التجريبى وحده ، والاكتفاء به فكل ما يقوله صحيح .

"ومن هنا قبلت النظريات الإلحادية التى أعلنت باسم العلم والمنهج العلمى، ولم يستطع الإنسان الأوربى أن يميز بين ما هو من اختصاص العلم، وبين ما هو خارج عن هذا الاختصاص" [٣].

---

(١) ركائز الإيمان. محمد قطب صـ ١٤٩ - ١٥٠.

(٢) الإلحاد أسباب هذه "الظاهرة. عبد الرحمن عبد الخالق صـ ١٣.

(٣) انهيار الشيوعية أمام الإسلام صـ ١٩. د. سعد صالح.

وغير خفى أن هذا يعود بالخطر على الإنسان ، والفساد على المجتمع، فالحياة لا تستقيم دون توازن بين متطلبات الروح والبدن ، وبالتالى فإن إعمال ناحية دون الأخرى شر عظيم.

لقد تقدم العلم فى الفترة الأخيرة تقدماً عظيماً ، ولكنه مع هذا سلاح ذو حدين ، يحتاج إلى أسس أخلاقية ثابتة حتى يوجه توجيها صحيحاً يجمع بين المنفعة للإنسان فى الدنيا ، والفوز بجنات الله فى الآخرة.

وبناءً على ما سبق نجد أن الثورة الصناعية ساهمت بشكل كبير فى شيوع الإلحاد ، فقد فتح العلم المادى للناس أبوابا عظيمة من أبواب الرفاهية والترف وانتهى الأمر إلى رفض الإيمان بوجود الله تعالى .

كانت هذه بعض الأسباب التى ساهمت بشكل كبير فى ظهور الإلحاد وانتشاره ومع هذا هناك مجموعة أخرى من الأسباب أشير إليها على وجه الإجمال؛ حيث إن الحديث عنها جاء فى ثنايا الحديث عن الأسباب التى عرض لها البحث ، ومن هذه الأسباب:

١ – الرهبانية.　　　　٢– مهزلة صكوك الغفران.

٣– الحياة الجديدة ومباهج الحضارة.　　٤– النظريات العلمية الحديثة.

آثار الإلحاد على الفرد والمجتمع:

معلوم أن الإلحاد اتجاه يعمل أتباعه على نشره وترويجه فى كل دول العالم ؛ ليتحقق لهم ما يريدون، من انحلال خلقى، ودمار معنوى فيسهل لهم استتراف ثروات الأمم والشعوب . لهذا نراه تغلغل فى ميادين كثيرة ومتعددة ونراه فى الفلسفات الحديثة والمعاصرة.[1]

---

(١) الفكر الإسلامي فى مواجهة التيارات المعاصرة د. يحيى هاشم صـ ١٠-١٢. مطبعة التقدم.

كل هذا لا شك له أثاره الواضحة على الأفراد والجماعات. ومن هذه الآثار ما يلى:-

أ- الإخلال بالتوازن فى شخصية الإنسان:

الإيمان بالغيب يقوى فى الإنسان الجانب الروحى، الذى يربطه بالله تعالى ، كما يجعله يحافظ على الجانب المادى الذى يساعده على أداء مهمته المنوطة به فى هذه الحياة وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا... ﴾ [1].

فإذا اقتصر إيمان المرء بجانب دون جانب لا سيما إذا كان الجانب المتروك الجانب الروحى نتج عن ذلك تصادم فى الفطرة، واختلال فى التفكير ، وبالتالى إيجاد شخصية غير سوية.

"فالإنسان المسلم هو هذان العنصران المختلفان مترابطين ممتزجين فى كيان واحد قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله، قبضة من طين الأرض تتمثل فيها عناصر المادية : الأوكسجين ، والأيدروجين ، والكربون ، والكالسيوم ، والفوسفور ، وتتمثل فيها رغائب الأرض وضرورات الأرض، ونفخة من روح الله تتمثل فيها إشراقة الروح الصافية ، وقوة الوعى المدركة وقدرة النفس المريرة" [2] وهذان معاً يكونان الإنسان قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[3].

فعن طريق الجانب المادى يستطيع الإنسان أن يحقق ضرورات الحياة

---

(١) سورة القصص الآية ٧٧.

(٢) الشخصية السوية بين الإسلام وعلم النفس د. أحمد رمضان صـ ٩١. مكتبة الإيمان بالمنصورة.

(٣) سورة ص الآيتان ٧١-٧٢.

من طعام وشراب ولذائذ، وعن طريق الجانب الروحى يحقق أشواقه الروحية فيرتبط بالله تعالى ارتباطاً وثيقاً، وعن طريق المحافظة على الجانبين معاً يحقق الغاية من خلقه وهى تحقيق خلافة الله تعالى فى الأرض.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [١] وهذه الخلافة تتحقق من خلال المحافظة على الجانبين والموازنة بينهما.

فالمؤمن بالله هو صاحب "الشخصية التى يتوازن فيها البدن والروح ويشبع فيها حاجات كل من البدن والروح ، إن الشخصية السوية هى التى تعنى بالبدن وصحته ، وقوته وتشبع حاجاته فى الحدود التى رسمها الشرع ، والتى تتمسك فى نفس الوقت بالإيمان بالله، وتؤدى العبادات وتقوم بكل ما يرضى الله تعالى، وتتجنب كل بغيضة فالشخص الذى ينساق وراء هوائه وشهواته شخص غير سوى، وكذلك فإن الشخص الذى يكبت حاجاته البدنية ، ويقهر جسمه ويضعفه بالرهبانية المفرطة والتقشف الشديد ، وينزع إلى إشباع حاجاته وأشواقه الروحية فقط هو أيضاً شخص غير سوى، وذلك لأن كلاً من هذين الاتجاهين المتطرفين يخالف الطبيعة الإنسانية ، ويعارض فطرهما ، ولذلك فلا يمكن أن يؤدى أى من هذين الاتجاهين إلى تحقيق ذاتية الإنسان الحقيقية كما لا يمكن أن يؤدى بها إلى بلوغ كمالها الحقيقى"[٢].

فالإيمان بالله هو الأمر الذى يعمل على خلق شخصية سوية تجمع بين متطلبات الروح والبدن ، وبين رغائب الجسد وأشواق النفس، ويوحد بينهما فى كل ما يصدر عنهما من مشاعر وأفكار وأعمال.

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.

(٢) القرآن وعلم النفس. د. محمد عثمان نجاتى صـــ ٢٣٦. دار الشروق.

ب- القضاء على القيم الروحية والمثل العليا:

من المعلوم أن الإيمان بالغيب هو طوق النجاة للإنسان، فهو بمثابة قانون يحفظه من الانحراف على خلاف المرء الملحد.

"فالإنسان الذى لا يؤمن بوجود الله لا بد أن تنحط معاييره وقيمه ، ونظرته إلى كل شيء فى هذه الحياة، ذلك أن الإيمان بالله هو الذى يقوى الجانب الروحى من الإنسان ، ويربطه بالمثل العليا إذ يربط القلب البشرى بالله" [١].

فالإيمان بالغيب طبيعة فى النفس البشرية ، كما أنه غذاء لها فإذا ما أنكر الإنسان هذا الجانب ترتب على ذلك القضاء على المثل العليا والقيم الروحية مما ينتج عنه أمراض نفسية وبدنية كثيرة.

"فالإيمان بالله وتوحيده والتقرب إليه بالعبادات والطاعات والتمسك بالتقوى، وفعل كل ما يرضى الله تعالى ورسوله (ﷺ) ،والابتعاد عن كل ما نهى عنه الله تعالى ورسوله (ﷺ) ، إنما يقوى الناحية الروحية فى الإنسان، ويطلق فيه طاقات روحية هائلة تؤثر فى جميع وظائف الإنسان البدنية والنفسية، ويمد الإنسان بقوة خارقة تؤثر فى بدنه ونفسه تأثيراً كبيراً يمكنه من التغلب على أمراضه البدنية والنفسية"[٢] هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يحفظ للإنسان قيمه ومثله العليا، مما يجعله يعيش آمناً مطمئناً.ويمكن الاستدلال على ما مدى ما تحدثه القوى الروحية فى البدن بحديث رسول الله (ﷺ) فى وصل الصيام عندما قال لأصحابه: (إنى لست كهيئتكم إنى أُطعم

---

(١) ركائز الإيمان. محمد قطب صـ ١٥٦.

(٢) الحديث وعلم النفس د. محمد عثمان نجاتى صـ ٣٠٧ . دار الشروق ط٤ ١٤٢١هـ - ٢٠٠١.

وأسقى ...) [١] ويفهم من هذا الحديث أنه (ﷺ) كان يتلقى غذاءً روحياً من قبل الله تعالى فيبقى أياماً وليالى صائماً دون أى تأثير فى الناحية البدنية، وننتهى من هذا كله إلى أن الإيمان بالغيب يقوى فى الإنسان الجانب الروحى ويحفظ له قيمه ومثله العليا ويعطيه قوة للعمل على وفق أوامر الله تعالى فتستقيم حياته فى الأرض ، وينعم فى الآخرة بجنة الله ورضوانه، أما إنكار الغيب فيترتب عليه القضاء على الجانب الروحى فى الإنسان مما ينتج عنه تخبطه وضلاله [٢] .

جـ- القلق والصراع النفسى :

من أخطر الآثار التى يحدثها الإلحاد بين الأفراد والجماعات انتشار ظاهرة القلق والحيرة والاضطراب مما ينتج عنه صراع نفسى وحرمان من السعادة فبداخل كل منا فطرة تلح عليه، وأسئلة تحتاج إلى جواب. من خلقنا؟ ولماذا خلقنا؟ وإلى أين يكون مصيرنا؟ .

هذه الأسئلة وغيرها لا تمثل قلقاً على المؤمن فهو يعلم أن الله خلقه لخلافته فى أرضه ليتحقق له النجاة فى الدنيا والفوز فى الآخرة بخلاف الملحد فإنه يصاب بالصراع فهو لا يجد جواباً شافياً عما يدور بخلده.

فالإلحاد "عقيدة جهلانية لأنه يقوم على افتراض عدم وجود إله فإنه لا يقدم شيئاً يخرج هذا الإنسان من الحيرة والقلق والالتباس ويبقى لغز الحياة محيراً للإنسان ويبقى رؤية الظلم والمصاعب التى يلاقيها البشر فى حياتهم

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مالك فى الموطا. باب الوصال فى الصيام حديث رقم ٣٦٧ صـ ١٢٢ مطابع الأهرام التجارية ط٥ ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م وأبو داود فى سننه جـ٢ باب فى الوصال حديث رقم ٢٣٦٠ صـ ٣١٧.

(٢) انظر: الحديث النبوى وعلم النفس د. محمد عثمان نجاتى صـ ٣٠٧.

كابوساً يخيم على النفس، ويظل الإلحاد عاجزاً عن فهم غاية الحياة والكون، ولا يقدم للإنسان إلا مجموعة من الظنون والافتراضات لا تقنع عقلاً ولا تشفى غليلاً"[١].

ومثل هذه الأمراض يقضى عليها من خلال الإيمان "إن أعظم علاج للقلق هو الإيمان" [٢].

فالسعادة التى يعمل الإنسان لجلبها لذاته ولأفراد جنسه تتحقق بالإيمان فهو "سكينة النفس بلا ريب، وهو الينبوع الأول للسعادة، ولكن كيف السبيل إليها؟... إننا نجيب مطمئنين أن للسكينة مصدراً واحداً لا شريك له، هو الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان الصادق العميق الذى لا يكدره شك، ولا يفسده نفاق هذا ما يشهد به الواقع وما أيده التاريخ الحافل، وما يلمسه كل إنسان بصير منصف فى نفسه، وفيمن حوله" [٣].

إن الواقع يشهد بأن أكثر الناس إصابة بالقلق والحرمان من الاطمئنان وراحة البال هم الملحدون فالمؤمن يعيش معافى النفس هادئ الخاطر فهو يجد جواباً عمَّا يشغله، وذلك من خلال إيمانه الذى يعطيه جواباً عمَّا يسأل عنه، وذلك من خلال الوحى. "فالوحى قد أراح الإنسان من عناء البحث فيما يبدد طاقته، دون الظفر بما يشبع ، ويغنى، وأعفاه من تجشم رحلات طويلة وشاقة ...وقدم له ما ينبغى أن يعمله وما يستطيعه" [٤].

"إن بعض الناس تنزل به النازلة من مصائب الدهر ، فيظل شهوراً،

---

(١) الإلحاد . عبد الرحمن عبد الخالق صـــ ١٨-١٩.

(٢) دع القلق وابدأ الحياة. ديل كار ينجى صـــ ٢١٩. تعريب عبد المنعم محمد الزيادى. نشر مكتبة الخانجى ط٥ ٣ ١٤٢٠ - ٢٠٠٠م.

(٣) الإيمان والحياة د. يوسف القرضاوى صـــ ٧٥ مؤسسة الرسالة ط١٩ ١٤١٧هـ - ١٩٩٧.

(٤) الإيمان والحياة. د. يوسف القرضاوى صـــ ٨٥.

وأعواماً ويستعيد ذكرياتها القائمة متحسراً تارة، متمنياً أخرى شعاره ليتنى فعلت، وليتنى تركت لو أنى فعلت كذا لكان كذا"[١].

ويظل هكذا فى صراع مع نفسه إلى أن يصاب بالحيرة والقلق النفسى مما ينتج عنه الإصابة بمختلف الأمراض النفسية والعصبية ، إن الدول الملحدة تعيش فى اضطراب دائم، وقلق مستمر ومثل هذه الأمور تحدث "نتيجة الصراع الدائم فى الأرض دون الاستناد إلى قوة ثابتة فى الأرض والسماء كل شيء من حولهم يتغير، النظم الاقتصادية تتغير والنظم السياسية تتغير وعلاقات الدول والأفراد تتغير وحقائق العلم تتغير فإذا لم تكن هناك قوة ثابتة يستند إليها الأفراد فى صراعهم الجبار مع الحياة والناس والأشياء ، فهناك نتيجة حتمية واحدة هى القلق والاضطراب"[٢].

فالإيمان بالغيب من القوى التى لا بد توافرها لمعاونة المرء على العيش "وفقدها نذير بالعجز عن معاناة الحياة" [٣].

فالإيمان قوة تعين المرء على تحمل مشاق الحياة، كما أنها تهون عليه مصائب الدهر لهذا دعت بعض الاتجاهات الحديثة لدى علماء النفس على ضرورة الإيمان حيث إنه يحفظ الإنسان من الصراع النفسى وممن نادوا بذلك وليم جيمس فقال: إن أعظم علاج للقلق ولا شك هو الإيمان ... فالإيمان من القوى التى لا بد من توافرها لمعاونة المرء على العيش... فالرجل المتدين حقاً عصى على القلق محتفظ أبداً باتزانه مستعد دائماً لمواجهة ما عسى أن تأتى به الأيام[٤].

---

(١) الإيمان بالقدر د. يوسف القرضاوى صـ ٩٦ نشر مكتبة وهبة ط١ ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠.
(٢) شبهات حول الإسلام . محمد قطب صـ ١٨.
(٣) دع القلق وابدأ الحياة. ديل كارينجى صـ ٢٢٦.
(٤) انظر: المصدر السابق صـ ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، القرآن وعلم النفس د. محمد عثمان نجاتى صـ ٢٦٩.

وقصارى القول: أن الإيمان بالغيب يحل هذه المشكلة ويمنع من هذه الأمراض، ولكن الإلحاد الذى ينكر العالم الغيبى هو السبب فى هذه الحيرة وذلك القلق الدائم فصاحبه يعيش بين "لو ، وليت".

وبالجملة فلو لم يكن للإيمان بالغيب مهمة يؤديها فى حياة الناس "إلا هذا الأمن الذى يجده الإنسان فى رحاب الله، وهو يتوجه إليه بأعماله، ويقاوم قوى الشر والطغيان ابتغاء مرضاته ، ويكدح لتعمير الأرض تنفيذاً لإرادته وانتظاراً لمثوبته ، لكفى ذلك مبرراً للتمسك بالعقيدة ، والتزود منها بخير زاد" [١].

د- الأنانية والفردية:

الإيمان بالغيب ظاهرة طبيعية فى هذه الحياة فإذا اختفت هذه الظاهرة اختفى معها فضائل كثيرة ، وفى المقابل ظهرت رذائل متعددة. لهذا كان الإنسان الملحد إنساناً غير طبيعى بما نلاحظه على فكره من شذوذ وانحراف ، وما نشاهده فى سلوكه من أنانية وفردية لا مثيل لها.

"فغريزة الأنانية أو حب الذات غريزة عاتية جبارة ، لا يكاد يخلو بشر من سلطانها عليه، وقوة دفعها له ، وتوجيهها لسلوكه، وإنك لترى الناس تدفعهم الأنانية إلى التنافس على الدنيا ومتاعها، ويدفعهم التنافس إلى التنازع والاختصام، ويدفعهم ذلك إلى ادعاء ما ليس لهم ، وجحود ما عليهم من حق ، وأكل أموال الناس بالباطل، وعندما يطل شيطان الخصومة برأسه لا يكون إلا حب الغلب بأى ثمن وأية وسيلة" [٢] ولكن عنصر الإيمان بالغيب

---

(١) شبهات حول الإسلام . محمد قطب صـ ١٨.

(٢) الإيمان والحياة د. يوسف القرضاوى صـ ٨٤.

يحل هذه المعركة ويقضى عليها ، فالإنسان يحب ذاته، ويرتبط هذا الحب ارتباطاً وثيقاً بدوافع حب الذات والإيمان هو الذى ينظم العلاقة بين هذا الحب ودوافعه ، فالإنسان يحب المال حباً شديداً لكونه يحقق له ما يريد.

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (١) كما أن من مظاهر حبه لذاته "أنه دائم الدعاء للخير لنفسه من مال وصحة، وغير ذلك من خيرات الدنيا ونعيمها .... وإذا أصابه بلاء أو أذى انتابه الجزع والهلع على ما حل به ويئس من الخير وكفر بنعم الله السابقة وجحد بها" (٢).

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ﴾ (٣) لكن الإيمان بالغيب ينظم هذا كله، وذلك من خلال الإشارة إلى أن للمرء أن يحب نفسه شريطة ألا يتجاوز حدوداً معينة ، ومن الأهمية أن يعادل حبه لنفسه حبه للناس ، وحب الخير لهم وهذا هو مقتضى الإيمان.

وفى حديث أم سلمة المروى عن رسول الله (ﷺ) دليل واضح على مبلغ الأثر الذى يحدثه فى النفوس.

فقد أتى إليه رجلان يختصمان فى مواريث كل منهما يقول حقى فقال لهما الرسول (ﷺ) "إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له من حق أخيه بشىء فلا يأخذ منه شيئاً فإنما أقطع له قطعة من النار" (٤) فلما سمع الرجلان المختصمان هذه الكلمات انطفأ لهب الخصومة المشتعل بينهما

---

(١) سورة العاديات الآية ٨.

(٢) القرآن وعلم النفس د. محمد عثمان نجاتى صـ ٨٣-٨٤.

(٣) سورة المعارج الآيتان ١٩-٢١.

(٤) سنن أبى داود كتاب الأقضية جـ ٣ صـ ٣٠٠ ح(٣٥٨٣) ط دار الريان للتراث.

وقضت على تيار الأنانية المتمكن من كل منهما ، وخلق هذا الكلام بينهما تسامحا وإيثاراً للغير ، فلما سمع الرجلان هذا الكلام بكى الرجلان وتنازل كل منهما للآخر عن حقه فأمر النبى (ﷺ) باقتسامه بينهما.

عن أم سلمة قالت (أتى رسول الله رجلان يختصمان فى مواريث لهما لم تكن بينه إلا دعواهما ، فقال: النبى (ﷺ). فذكر مثله، فبكى الرجلان وقال كل واحد منهما حقى لك، فقال لهما النبى.(ﷺ): أما إذا فعلتما ما فعلتما فاقتسما وتوخيا الحق ثم استهما ثم تحالا) [١] والمتأمل فى هذا يلحظ البون الشديد بين هذا السلوك، والسلوك الذى يحدثه الإلحاد فى النفوس من أنانية وفردية وحب للذات بين أفراد المجتمع "والمطلع على أحوال المجتمع الإلحادى... يرى إلى أى حد أصبح الناس ماديين أنانيين لا يهتم الفرد إلا بنفسه ولا يهتم بالآخرين إلا بقدر ما يعود على نفسه من منافع وقد ضاعف هذه الأنانية والمادية اتجاه الناس نحو الحب من الملذات والشهوات التى يسرها الحضارة الحديثة وأباحتها قوانين الإلحاد التى تكفر بالآخرة ، وتجعل حياة الإنسان الخاصة ملكاً له" [٢].

هـ- القضاء على وازع الضمير:

للإلحاد أثاره المدمرة فى حياة الإنسان ، ومن بينها القضاء على ضمير الإنسان ، هذا المرشد الأمين "والأداة التى تجعل الإنسان فى يقظة لمعرفة حقيقة ما يفعله ويتركه من الأعمال فيدفعه إلى العمل حين يستشعر خيرته ، وتؤنبه إن تركه ، وتحذره من عمل ما حين يستشعر شريته، وتؤنبه

---

(١) نفس المصدر جـ ٣ صـ ٣٠٠ ح رقم ٣٥٨٤ ط دار الريان للتراث.

(٢) الإلحاد. عبد لرحمن عبد الخالق صـ ٢١.

على فعله" [1] فالضمير هو الذى يكون له من السلطان ، ما يجعل منه مصدراً للمسئولية ، ورقيباً على الفعل، ثم مثيباً أو معاقباً عليه تبعاً لما يتصف به من خير أو شر، وفى الحديث عن وابصة بن معبد قال : " أتيت رسول الله (ﷺ) فقال (جئت تسأل عن البر؟ قلت نعم: قال البر ما اطمأن إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك) [2].

فالضمير قوة فى أعماق النفس لا تشاهد بالعين ، ولا ترى بالمجهر هذه القوة تأمر المرء بالخير وتلومه على الشر هذه القوة سماها علماء الأخلاق بالضمير.

ولأهميتها فى تربية الفرد واستقامة المجتمع أقسم الله تعالى بها فقال تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [3].

فالنفس اللوامة هنا هى الضمير يقول ابن كثير "تلوم على الخير ، والشر وتندم على ما فات" [4] وهذا كله لا يتأتى إلا من مؤمن يوقن بوجود إله يحاسبه على عمله بخلاف الملحد فلا ضمير ينهاه ولا رب يخشاه ولا حساب يعمل لأجله.

فالإلحاد "لا يربى الضمير، ولا يخوف الإنسان من إله قوى قادر يراقب تصرفاته، وأعماله فى هذه الأرض، فإن الملحد ينشأ غليظ القلب عديم

---

(١) أصول العقيدة الإسلامية والأخلاق . تأليف لجنة من أساتذة من قسم العقيدة والفلسفة صـ ١٦٨. الناشر مكتبة الأزهر ط١ ١٣٩٤هـ - ١٩٧٥م.

(٢) أخرجه الدارمى فى سننه ك البيوع باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك جـ٢ صـ ٢٤٥ - ٢٤٦. دار الكتب العلمية بيروت . بدون ، أبو يعلى فى مسنده، جـ ٣ صـ١٦١ ح (١٥٨٦). دار المأمون للتراث. دمشق ط ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م. ط. تحقيق حسين سليم أسد.

(٣) سورة القيامة الآيتان: ١ - ٢.

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٢ - ٧.

الإحساس قد فقد الوازع الذى يرد عنه عن الظلم ويأمر بالإحسان والرحمة" [١].

فالإلحاد يربى أتباعه على إنكار الخالق ، ورفض الألوهية ، والإيمان بالمصادفة أو الطبيعة كعقيدة راسخة لا شك فيها، كما أنه يدعوهم إلى العمل للنجاح فى الحياة العملية بطرق مشروعة أو غير مشروعة، ولذا إذا منعهم عائق فلا مانع من الخروج عليه والتغلب عليه بالحيلة أو الخديعة ليتحقق لهم الوصول إلى الهدف المراد دون سماع لنداء فطرة أو صوت ضمير فهذا لا مكان له لدى الملحدين، وإن ظل أثر له فسرعان ما يزول نور الهداية الذى يختفى من نفوس هؤلاء ودليل ذلك أوربا الملحدة "فقد يخيل إلينا لأول وهلة أن أوربا الملحدة ذات ضمير فالتاجر هناك لا يغش ولا يخدع، والعامل لا يكذب ولا يخلف مواعيده، وأمور التعامل الفردى تقوم على الصدق والأمانة وهذا صحيح فى مظهره، ولكنها فى الحقيقة ليست أخلاقاً بالمعنى الحقيقى للأخلاق؛ إنما هى أخلاق التاجر الذى يحرص على كسب ثقة الزبون إلى آخر المدى، فيتودد إليه بخصال الصدق والأمانة والإتقان، أما المحك الحقيقى للضمير فله مجال آخر" [٢] فأين الضمير فى معاملة الشعوب القوية للشعوب الضعيفة؟ فقد احتلت أرضها، واستنزفت ثرواتها ، ونهبت جميع خيراتها.

إننا لو قلبنا صفحات التاريخ لوجدنا جرائم متعددة يندى لها الجبين قام بها أصحابها لغياب الضمير "فما يقع اليوم على أرض الواقع فى فلسطين الحبيبة وغيرها من الوطن العربى والمذابح التى وضعها الماديون والشيوعيون فى

---

(١) الإلحاد . عبد الرحمن عبد الخالق صــ ٢٢.

(٢) ركائز الإيمان . محمد قطب صــ ١٥٩.

الموصل ، وكركوك والعراق من دفن الناس أحياء وجر الجثث فى الشوارع أوضح شاهد على جمود وغياب الضمير عند الماديين" [١] وفى المقابل نجد أن الضمير لدى المؤمنين كان سبباً قوياً لهجر الشرور، والرضا بعقاب الدنيا لنجاة من عذاب الآخرة وقد أفاضت كتب السير والتاريخ بأمثلة كثيرة تؤكد ذلك[٢] . وقصارى القول أن الضمير حاكم عادل ، وحارس أمين خلت منه نفوس الملحدين مع أن خلو النفس منه شر عظيم ، فهو أشبه بقاضٍ عادل يصدر الحكم على الأفعال إما بالصلاح فتفعل وإما بالطلاح فتترك، لهذا كان للإلحاد خطره للقضاء على الضمير.

كيفية القضاء على الإلحاد :

للإلحاد آثار خطيرة تعود على الأفراد والجماعات، وما مر من آثار يشهد بخطورته. لهذا فإن الإسلام كمنهج وشريعة دعا إلى ضرورة التصدى له والقضاء عليه وذلك من خلال عدة سبل :

١- الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى وحده . قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ... ﴾[٣].

٢- بيان مهمة الإنسان فى الدنيا. وهذه المهمة هى خلافة الله تعالى فى الأرض. قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً... ﴾ [٤].

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأثرها فى سلوك الفرد والأمة. د. إنشاد محمد على صـ ٣٨. نشر دار الفكر بالقاهرة.

(٢) ودليل ذلك ما أخرجه البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبد الله أن رجلاً من أسلم جاء للنبى ﷺ فاعترف بالزنا فاعرض عنه النبى ﷺ حتى شهد على نفسه أربع مرات فقال له النبى ﷺ أبك جنون قال: لا قال: أحصنت قال: نعم فأمر به فرجم بالمصلى فلما أزلقته الحجارة فر فأدرك فرجم حتى مات فقال له النبى خيراً وصلى عليه [انظر: صحيح البخارى. ك المحاربين من أهل الكفر . باب الرجم بالمصلى م٤. جـ٨ صـ ٥٨٢].

(٣) سورة البينة الآية ٥.

(٤) سورة البقرة الآية ٣٠.

٣- إن هذه الخلافة لا تحقق لها على النحو المراد إلا بفهم الغاية من الخلق قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ (١).

٤- إن الفهم الصحيح للعبادة يعنى العمل للدنيا والآخرة فمن يعمل لجانب دون الآخر. فهو مقصر فى مراد الله تعالى قال تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا...﴾(٢).

٥- ربط العلم بالدين ويكون ذلك من خلال لفت الأنظار إلى النظريات العلمية التى لا تتعارض مع الحقائق الدينية ، والدعوة إلى التأمل فى الكون، وما حواه من صنع عجيب. قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾(٣).

٦- التصدى لشبهات الملاحدة والرد عليها من خلال الأدلة النقلية والعقلية، والعلمية وبيان تهافتها فما هى إلا ظنون فى عقول أصحابها وقد قال تعالى : ﴿ ... إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾(٤).

٧- الاهتمام بالتربية الأخلاقية والدينية والدعوة إلى ذلك فالأخلاق أساس رقى الأمم وتقدم الأفراد . قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾(٥).

---

(١) سورة الذاريات الآيتان ٥٦-٥٧.

(٢) سورة القصص الآية ٧٧.

(٣) سورة فصلت الآية ٥٤.

(٤) سورة النجم الآية ٢٣.

(٥) سورة آل عمران الآية ١١٠.

المؤسسات التى تروج للإلحاد فى العالم الإسلامى :

الإلحاد كتيار له أهدافه ومريدوه يقف من خلفه مؤسسات متعددة أوقفت كل طاقتها لأجله، وسخرت جميع إمكاناتها للعمل على نشره وذيوعه فى ربوع الأرض على اختلاف أجناسها ، فهذا التيار تقف من ورائه "منظمات ومؤسسات وقوى تتسم بالضراوة والحنكة، والترابط والتنظيم الدقيق ، والعمل الدائب والكراهية العميقة للإسلام بخاصة" (١). وهذه القوى هى على النحو التالى:-

١- الاستعمار : والمقصود به استعمار دول الغرب لدول الشرق أو العالم الإسلامى بغرض الاستيلاء على خيراته واستتراف ثرواته، وتوجيه ذلك لخدمة أغراض المستعمرين ، والاستعمار ليس وليد العصر وإنما له "أبعاد وجذور امتدت من ماضى الأمة الإسلامية ما يقرب من تسعة قرون من الزمن أى منذ الحملة الصليبية على العالم الإسلامى" (٢).

فالاستعمار فى واقع الأمر امتداد للحروب ضد الإسلام والمسلمين، ولا نغالى إذا قلنا إن أهداف الحملات الصليبية وضعت بكل ثقة فى أيدى المستعمرين لتحقيق أغراضهم وقد اعترف بذلك الكتاب الغربيون فلقد جاء على لسان أحدهم معبراً عن هذا بقوله: "جهد الصليبيون طوال قرنين لاستعادة الأرض المقدسة من أيدى المسلمين المتعصبين ، فكان عهد الحروب الصليبية من أجل ذلك أروع العهود فى العصور الوسطى كلها ... ولكن ذلك الجهد قد خاب، وتراجعت الحملة الصليبية أمام سدود عنيدة من التعصب الإسلامى" (٣).

---

(١) الفكر الإسلامى فى مواجهة التيارات الفكرية المعاصرة د. يحى هاشم صـ ٢٨.

(٢) فى الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام د. شوقى إبراهيم عبد الله صـ ٢٥٢. دار الطباعة المحمدية ط١ ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٣) التبشير والاستعمار د. مصطفى خالدى د. عمر فروخ صـ ١١٥.

والواقع الأمر أن هذه الحملات لم يكن الغرض منها ما يدعيه هؤلاء ؛ فقد جاءت لتدمير المسلمين . والقضاء على الإسلام كدين وعقيدة، وإحلال الإلحاد بدلاً عنه حيث إن خطتها قد قامت على "هدف القضاء على الإسلام ، ولكن بواسطة احتلال أرضه احتلالاً مباشراً" [(١)].

وقد قام هذا الاتجاه بوضع عدة أهداف نصب أعين أصحابه من أهمها:

١-العمل على استتراف ثروات الأمم واستهلاك مواردها.

٢-العمل على نشر النظريات الإلحادية ليسهل لهم ما أرادوا.

٣-العمل على تحقيق أهداف المبشرين والمستشرقين. حيث إن"الاستعمار هو السند القوى للمبشرين والمستشرقين ، وبهذا التحالف كان خطر الاستعمار جسيماً ذلك أن التسلط المادى إذا انضم إلى التسلط الفكرى كان التأثير شديداً" [(٢)].

٤- العمل على تغيير الأيدلوجية الإسلامية وذلك من خلال زرع المادية الملحدة فى نفوس الناس بصفة عامة، وفى نفوس المسلمين بوجه خاص.

٢- الفلسفات الحديثة المعاصرة : التى حصرت الموجود فى المحسوس وأنكرت ما عدا ذلك ، ومن أمثلة ذلك الشيوعية ، والوضعية المنطقية وغيرهما من الفلسفات الأخرى .

فحجر الزاوية فى هذه الفلسفات الإيمان بالمادة وحدها؛ لأن الموجود محصور فى الطبيعة المشاهدة فقط فهى تحتوى فى ذاتها على كل القوى المطلوبة

---

(١) العلمانية . سفر بن عبد الرحمن صـ ٥٤٣.

(٢) فى الغزو الفكرى د. شوقى إبراهيم صـ ٢٥٣.

لإحداث جميع صور الوجود فيها، والأنواع ينشأ بعضها من بعض ، بالتحول طبقاً لقوانين. وتبعاً لترتيب يمكن من الآن تحديده وهكذا يضع العلم تاريخ العالم الطبيعي مكان أسطورة الخلق ... فما يوجد فى الطبيعة يفسر بالطبيعة ، ولا شيء يقدم على الطبيعة ، ولا شيء يسمو عليها فالطبيعة عند من يعرف قوانينها هي ذاتها خلقت نفسها والمحصر الموجود فيها" (١).

٣- التبشير : وهو اتجاه يروج للمسيحية ويدعو إليها، ومحاولة دفع الناس إلى الدخول فيها بطرق مشروعة وغير مشروعة. وقد عرفه العلماء بأنه تعبير أطلقه رجال الكنيسة النصرانية على الأعمال التى يقومون بها لتنصير الشعوب غير النصرانية لا سيما المسلمين (٢) ولتحقيق الغرض المنوط به نراه يعمل من خلال طرق متعددة ، ووسائل مختلفة فيقوم ببناء "مدارس وجامعات ومستو صفات ومستشفيات وملاجئ ، ودور إيواء وزيارات للبيوت وتوزيع الدواء والغذاء والكساء والمساعدة فى الإلحاق بالوظائف. وفى الترقيات والنشرات والكتب إلى غير ذلك من الوسائل السليمة الهادئة التى تبدو فى ظاهرها عملاً إنسانياً يسد حاجة ويحقق رغبة للفرد والمجتمع ، فهو يعتمد على الإغراء واستمالة القلوب بوجه عام، ومن خلال ذلك ينفذون إلى عقول الناس أو قلوبهم بما يريدون بثه فيهم" (٣).

من قضايا عقدية خاطئة، ونظريات إلحادية باطلة لا تقوم على أساس

---

(١) انظر: العلم والدين فى الفلسفة المعاصرة . أميل بوتروا صـ ١٠٥ - ١٠٦ ترجمة د. أحمد فؤاد الأهوانى الهيئة العامة للكتاب . مصر ١٩٧٣.

(٢) انظر: أجنحة المكر الثلاثة د. عبد الرحمن حبنكه صـ ٥٠ دار القلم دمشق ط٥ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، انظر: فى فكرنا الحديث والمعاصر د/ حسن الشافعي جـ ١ صـ ٢٨٢ - ٢٨٣. دار العدالة للطباعة والنشر ط٢ ١٤١٤ - ١٩٩٤.

(٣) الثقافة الإسلامية بين الغزو والاستغراء د. عبد المنعم النمر صـ ١٤٦-١٤٧ ط. دار المعارف.

من الصحة ، وإنما تقوم على جملة من الأهداف التى وضعت أمام أعين المبشرين أمداً طويلاً وليقوموا بتنفيذها على أكمل وجه، ومن بين هذه الأهداف :

١- القضاء على الإسلام فى نفوس أتباعه ومحاولة وقف انتشاره.

٢- القضاء على وحدة العالم الإسلامى.

٣- تشويه صورة الإسلام، وذلك من خلال إثارة الشبه حوله.

٤- خلق نوع من الهزيمة النفسية بين المسلمين.

٥- معاونة الاستعمار فى التجسس على العالم الإسلامى.

٦- خدمة الصهيونية العالمية.

٧- الربح المادى والكسب التجارى.[١]

٤- التغريب وأهدافه في العالم الإسلامي

ما زالت حملات التشكيك والتدمير ضد الإسلام والمسلمين مستمرة . لأن الصراع بين الحق والباطل قائم ما دامت السماوات والأرض ، ويأبى أعداء الإسلام إلا أن ينكثوا رايته ويغربوا أهله ويقودوا دعائم مجتمعه ولكن لا يتحقق ألا ما أراد الله

قال تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [٢] ومن بين الحملات والتحديات التي يواجهها الإسلام التغريب فما هو؟

---

(١) انظر: تفصيل هذه الأدلة التبشير والاستعمار فى البلاد العربية د. مصطفى خالدى د. عمرو فروخ صـ ٣٣- ٣٨ منشورات المكتبة العصرية ببروت، أحذروا الأساليب الحديثة فى مواجهة الإسلام د. سعد الدين صالح صـ ٦٥-٧٣ ط٢ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٠.

(٢) سورة التوبة الآية (٣٢) .

أولاً: تعريف التغريب:

التغـــريب مصطلح استعمله الاستشراق الغربي للتعبير عن الخطة التي تقـــوم بها القوي ذات النفوذ السياسي الخارجي في حمل العالم الإسلامي على الانصـــهار في مفاهـــيم الغرب وحضارته ، والعمل على إخراج المسلمين من هويتهم الإسلامية التي أقامها الإسلام من خلال مجتمعهم وكيالهم ووجودهم السياسي والاقتصادي والاجتماعي وصهرهم في بوتقة الغرب .[١]

أهداف التغريب : من المعلوم أن التغريب يرمى إلى فرض النموذج الأوربي والغربي في التفكير والممارسات العملية على شعوب العالم الإسلامي ، حتى تتم عملية إبعادهم عن دينهم . ويمكن حصر أهداف التغريب في النقاط التالية :ـ

أولا : القضـــاء علـــى وحدة الأمة الإسلامية ، بما يحول دون عودة الخلافة الإسلامية وتعميق مفهوم الإقليميات والقوميات .

ثانيا : فرض نظام الربا على الاقتصاد ، وتمزيق ثروات الأمة الإسلامية .

ثالثا : حجب القانون الرباني المتمثل في الشريعة الإسلامية ، وفرض القانون الوضعي الذي يهدم الخلق والأسرة .

رابعـــاً : القضـــاء علـــى مقومات الأسرة ، وهدم قيم المجتمع ، وإدخاله إلى مرحلة التحلل والتمزق ، وتدمير الشخصية الإنسانية .

خامسا : تمزيق القارة الإسلامية ، وغرس عنصر غريب عنها في قلبها .

سادساً : كتابة التاريخ الإسلامي من وجهة نظر غربية مادية .

---

(١) الإعلام الإسلامي والتحديات الدولية د.محي الدين عفيفي صـــ١٥٤.مطبعة الحسين الإسلامية ١٤١٧هـــ. ١٩٩٦م

ســـابعاً : إثـــارة النعرات الإقليمية والقومية والعصبية وإحياء التاريخ القديم السابق للإسلام.

ثامناً : إشاعة روح المفاهيم المادية ، وفي مقدمتها نظرية دارون كمدخل إلى الإلحاد والتشكيك في مفاهيم الإسلام ، وفي قضية الخلق القرآنية .

تاســـعاً : إشاعة مفهوم المادية في العلاقات الإنسانية والحياة الاجتماعية عن طـــريق نظـــرية فرويد (الدوافع الجنسية) والماركسية (تصور الإنسان حيوانا تحكمه غريزته) .

عاشراً : القضاء على اللغة العربية ، لأنها لغة القرآن

حـــادي عشر : إنكار فضل المسلمين على الحضارة الإنسانية وإنشاء منهج التجريد .

ثـــاني عشـــر : فرض الفلسفات المادية (جد لية ومادية وبرجماتية ووضعية ووجـــودية.) بمـــا تحوى من أحقاد وأهواء وأوهام الإلحاد وإنكار مالا يخضع للتجربة وإدعاء المنهجية في البحث

ثالث عشر: إنكار الدين واعتباره طوراً متخلفا من أطوار التقدم الاجتماعي وفصـــل الإســـلام عـــن السياسة وعن الأخلاق والجملة على العقائد والقيم .

رابع عشر : إذاعة الفرقة والخصومة بين الأديان والأجناس [١].

هذه بعض المؤسسات التي تروج للإلحاد في العالم الإسلامي بالإضافة إلى بعض المؤسسات الأخرى وذلك مثل الاستشراق والعلمانية وسنعرض لهما بشيء من التفصيل في الصفحات التالية إن شاء الله .

---

(١) انظر:أهداف التغريب في العالم الإسلامي .أنور الجندي صـ١٤:١٦الامانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف، الإعلام الإسلامي والتحديات الدولية د.محي الدين عفيفي صـ١٥٤.مطبعة الحسين الإسلامية ١٤١٧ه.١٩٩٦م .

الفصل الثاني : الاستشراق

الاستشراق كان ولا يزال جزءاً لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلام والعالم الغربي بل يمكننا القول : أن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع .

والاستشـــراق يشكل الجذور الحقيقة التي كانت ولا تزال تقدم المدد للتنصـــير والاســـتعمار . وتغذي عملية الصراع الفكري في البلاد المستعمرة وتشـــكل المـــناخ الملائـــم من أجل فرض السيطرة الاستعمارية على الشرق الإســـلامي وإخضـــاع شـــعوبه . وهو – أي الاستشراق – المنجم والمصنع الفكـــري الذي يمد المنصِّرين والمستعمرين بالمواد يسوقونها في العالم الإسلامي لتحطيم عقيدته وهدم أفكاره . وقد جاء هذا الغزو الثقافي ثمرة لإخفاق الغزو العســـكري وســـقوطه ولتربية جيل ما بعد الاستعمار . والاستشراق قضية تتـــناقض حـــولها الآراء في عالمنا الإسلامي فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصـــى حـــد . وهناك من يرفضه جملة وتفصيلاً . ويلعن كل من يشتغل به بوصفه عدواً لدوداً للإسلام والمسلمين . والواقع الذي لا يمكن إنكاره هو أن الاستشـــراق لـــه تأثيراته القوية في الفكر الإسلامي الحديث إيجاباً أو سلباً . أردنـــا أم لم ترد . ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفي بمجرد رفضه . وكأنـــنا بـــذلك قـــد قمنا بحل المشكلة .. فإنه ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج واقتراح الحلـــول . وهكذا نجد أن موضوع الاستشراق يفرض نفسه علينا بـــإلحاح ويتطلب منا وقفة تأمليه جادة لبحثه ودراسة أبعاده وتأثيراته بالنسبة للإسلام والمسلمين .

مفهوم الاستشراق :

أصـــبح الاستشــــراق اليوم علماً له كيانه ومنهجه ومدارسه وفلسفته ودراســـاته ومؤلفاته . وأغراضه وأتباعه . ومعاهده ومؤتمراته فصار حقاً على الباحث أن يعني بتحديد مفهومه والوقوف على معالمه البارزة وآفاقه ومظاهره وأطواره وخصائصه وأهدافه قبل البحث في آثاره وميادين نشاطه .

المفهوم اللغوي :

أمـــا المفهـــوم اللغوي . فالواضح أن كلمة " الاستشراق " مشتقة من مادة " شرق " يقال : " شرقت الشمس شرقاً وشروقاً إذا طلعت " والجدير بالذكــر أن الكلمة التي نبحث عن مفهومها اللغوي لم ترد في المعاجم العربية المختلفة . غير أن هذا لا يمنع الباحث من الوصول إلى معناها الحقيقي استناداً إلى قواعد الصرف وعلم الاشتقاق . حيث يبدو أن معنى (استشراق) هو من أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم جاء في معجم من اللغة " أستشرق : طلـــب علـــوم الشرق ولغاقم " " مولدة عصرية " يقال لمن يعني بذلك من علمـــاء الفـــرنجة . والمستشرق هو عالم متمكن من المعارف الخاصة بالشرق ولغاته وآدابه [1].

ويعـــرض د/ شكري النجار لمفهوم الاستشراق ويحدد ، بثلاثة مفاهيم تعـــبر عـــن أبعاده التاريخية والمنهجية . ويرد ظهورها جميعاً إلى القرن التاسع عشر .

---

(١) فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي د.أحمد سمايلو فتش ص٢١ ، ٢٢ – دار الفكر العربي ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م

المفهوم الأول : المعنى الأكاديمي :

حـيث نطلـق كلمـة " مستشرق " بشيء من التجاوز على كل من يتخصـص في أحد فروع المعرفة المتصلة بالشرق من قريب أو بعيد . وحتى عهـد قـريب جـداً كانت هذه الكلمة تطلق على دارسي الآداب الشرقية أو اللغـات الشرقية أو المتخصص في تاريخ إحدى الدول الشرقية . أو حتى المتخصـص في سوسـيولوجية أو انتروبولوجية الشعوب الشرقية . أو ما إلى ذلك .

المفهوم الثاني : المعنى العرقي :

وهـو اعتـبار الاستشراق أسلوباً للتفكير يرتكز على التمييز الثقافي والعقلي والتاريخي والعرقي بين الشرق والغرب . ولقد أدي هذا المفهوم بعدد كـبير من الكتاب والفلاسفة والسياسيين وحتى الاقتصاديين ورجال الحكم والإدارة أيـام الاستعمار . إلى أن يتقبلوا فكرة التمييز بين الشرق والغرب كـنقطة انطلاق لإقامة نظرياتهم وكتاباتهم الاجتماعية ودراستهم المختلفة عن النمو الاقتصادي للشرق وأفكارهم الخاصة عن الشعوب الشرقية ومصائرها وما إلى ذلك .

المفهوم الثالث : مطلب استعماري :

هـو الأسـلوب لفهم الشرق من أجل السيطرة عليه . ومحاولة إعادة تنظـيمه وتوجيهه والتحكم فيه . وهذا المفهوم هو الذي فضح الاستشراق . وهـو يمثل البعد الثالث لرسالة الاستشراق حيث أصبح أداة ووسيلة للتعبير عـن التـناقض والتـباين بـين الشـرق والغرب . فمن أجل ذلك الهدف الاستعماري درس الشرق سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وأيديولوجيًا وعلمياً . بـل وخيالياً كذلك . ومن أجل تلك الرسالة الاستعمارية أصبح الاستشراق

يحـــتل مكانـــه مهمة بين مختلف مجالات العلم والمعرفة لدي الاستعمار وميول الغـــرب الاستغلالية ومن هنا كان الاستشراق يمثل مجموعة اهتمامات الغرب بالشــــرق دينـــياً وثقافياً وبضائع وموارد وسوق عمالة " سوق قطع غيار . للغـــرب . وإرساء فكرة أن العالم الشرقي والإسلامي يمكن أن يكون معملا للفكر الغربي والبحث العلمي [1].

نشأة الاستشراق

اخـــتلف الباحثون في تحديد بداية الاستشراق ونشأته : فيذكر البعض انـــه بـــدأ في القـــرن العاشـــر الميلادي [2] ، بينما يرى البعض الآخر[3] أن الاستشـــراق بـــدأ في أعقـــاب الحروب الصليبية التي استمرت زهاء قرنين (١٠٩٧- ١٢٩٥م) ويذكر البعض [4] : أن الاستشراق بدأ في الأندلس في القـــرن الـــثالث عشـــر المـــيلاد حين اشتدت حملة الصليبيين الأسبان على المسلمين ، فدعا " الفونس " ملك قشتالة " ميشيل سكوت " ليقوم بالبحث مـــي علـــوم المسلمين وحضارتهم ، فجمع " سكوت " طائفة من الرهبان في إحـــدى الأديـــرة وشـــرعوا في ترجمة بعض الكتب من اللغة العربية إلى لغة الفـــرنجة . ثم قدمها " سكوت " للملك صقلية الذي أمر باستنساخ نسخ منها وبعث بها هدية إلى جامعة باريس .

ويربط أحد الباحثين [5] بين ظهور الاستشراق وبداية الأطماع الأوربية الاستعمارية في العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر الميلادي ، حين ضعفت

---

(١) انظر : دراسات في التبشير والاستشراق . د. عبد المنعم أبو دنيا صـــ ١٣ : ١٦ .

(٢) انظر : مفتريات على الإسلام . أحمد محمد جمال صـــ ١٠ مطبوعات الشعب طـــ ٣ .١٩٧٥م

(٣) انظر : صور استشراقية . عبد الجليل شلبي صـــ ٢٥ ، ٢٨ . نشر مجمع البحوث ١٩٧٨م .

(٤) انظر : أساليب الغزو الفكري . على محمد أبو جريشة صـــ ١٨ . دار الاعتصام بالقاهرة .

(٥) انظر : المستشرقون والتاريخ الإسلامي صـــ ٣١ .

ضــعفت قبضــة الدولــة العثمانية التي كانت تضرب سياجا من العزلة منع الأوربيين من الاتصال بالشرق فترة ، ثم ما لبثت أوروبا أن تدخلت في شئون الشرق ، فكان ذلك بداية الاستشراق .

وهناك من يعتبر الحملة الفرنسية على مصر وغيرها من بلاد الشرق في ســنة ١٧٩٨م هــي البداية الحقيقية للاستشراق ، لأن هذه الحملة جاءت ومعها عدد كبير من المسشرقين الذين قاموا بعمل دراسات مختلفة نشرت في الكتاب المعروف "بكتاب وصف مصر " .

علــى أنــه يجــب أن نفــرق بــين نوعين من الاستشراق : أولهما " سلمي " يتمثل في أقدام الغربيين على أن ينهلوا من منابع الحضارة الشرقية وأهمهــا الحضــارة الإسلامية ، فمن الثابت أن المسلمين أصبحوا — فيما بين القرن الثامن والثالث عشر الميلادي حملة مشاعل الثقافة في ربوع العالم أجمع ، في الــوقت الــذي كانــت فيه أوربا تسبح في دياجير الظلام . وقد أشعت الحضــارة الإســلامية بنورها على أوربا من منافذ عدة أهمها بلاد الأندلس الإســلامية التي كتبت صفحة من أروع صفحات الحضارة في القارة الأوربية في العصور الوسطى ، إذ انهالت عليها البعثات العلمية من شتى ربوع أوربا ، وقصدها المتعطشون للعلم والمعرفة . والذي أميل إلى ترجيحه في هذا الصدد هــو أن هــذا النوع من الاستشراق السلمي بدأ في القرن العاشر الميلادي ، وربمــا قــبله ، وحمل لواءه في العصور الحديثة قلة من المستشرقين رغبوا في البحث عن الحقيقة ، واستجابوا لنداء ضميرهم اليقظ ، فكانوا من المنصفين غير المغرضين .

أما النوع الثاني من الاستشراق فهو " عدواني " ، وأن تمسح القائمون علـــيه بالعلم وتظاهروا بخدمة الحضارة الإنسانية – هذا النوع بدأ – على ما أرجحـــه – في أعقـــاب مـــا اتفق على تسميته بالحروب الصليبية ، ذلك أن أحقـــادا عمـــيقة ترسبت لدي المسيحيين ضد الإسلام والمسلمين ، لأسباب أهمها :

١ – فشلهم ي الحروب الصليبية .

٢ – تحول ممالك نصرانية كثيرة إلى الإسلام نتيجة للفتوح الإسلامية بعضها كانت مهدا للمسيحية ويعتز بها النصارى ، مثل : بلاد الشام ومصر .

٣ – أن الإســـلام أنكـــر عقـــيدة التثليث والصلب والفداء التي يقول بها المسيحيون .

٤ – أضف إلى ذلك خشية زعماء الكنيسة وقتذاك من إعجاب الكثيرين من أتباعها بقوة المسلمين وبرقيهم الحضاري [1].

الأسباب والدوافع

لا نستطيع أن نقر هنا أن المستشرقين درسوا الإسلام بدافع واحد ، بل اشـــتركت عـــدة أســـباب دفعتهم إلى هذا اللون من المعرفة ، ولذا تعددت الدوافع الإستشراقية منها ما هو ديني ، ومنها ما هو سياسي أو استعماري أو اقتصادي أو علمي ، وسنشير فيما يلي إلى أهم هذه الدوافع .

---

(١) انظر المصدر السابق صـــ ٣٢ : ٣٥ .

أولاً: الدافع الديني:

نكــرر مع الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ، أننا لا نحتاج إلى اســتنتاج وجهد في البحث لنتعرف إلى الدافع الأول والأهم للاستشراق عند الغربيين وهو الدافع الديني .

(١) فهــم يعلمون ما تركته الفتوحات الإسلامية الأولى ، ثم الحروب الصليبية ، ثم الفتوحات العثمانية في أوربا في نفوس الغربيين من خــوف مــن قوة الإسلام ، وكره لأهله ، فاستغلوا هذا الجو النفسي وازدادوا نشاطاً في الدراسات الإسلامية ولذا كان جل همهم أن يطعنوا في الإسلام ، ويشوهوا محاسنه .

(٢) واشــتدت الحاجة إلى هذا الهجوم في العصر الحاضر بعد أن رأوا الحضــارة الحديــثة قــد زعزعت أسس العقيدة عند الغربيين وأخــذت تشككهم بكل التعاليم التي كانوا يتلقونها عن رجال الــدين ، فلــم يــجدوا خيراً من تشديد الهجوم على الإسلام لصرف أنظار الغربيين عن نقده لما هو موجود من عقائد عندهم من عقيدة وكتب مقدسة .

لــذا كــان هــذا الدافع هو الدافع الرئيسي والمسيطر على الدوافع الأخرى ، ونستدل على ذلك بعدة أمور :

أولها : إن معظم المشتغلين بالاستشراق قديماً وحديثاً من رجال الدين المسيحي واليهود ، وليس من المعقول أن نتصور هؤلاء مجردين من عواطفهم الدينية ومواريثهم الثقافية عند عرضهم للإسلام وتحليل قضاياه ، بل الظن الغالب أنهم اندفعوا إلى دراسة الإسلام بقصد الانتصار لمعتقداتهم ، يدل على

ذلك تصريحات هؤلاء وأقوالهم التي تقطر حقداً على الإسلام [١] ويكفي أن نقف على ما قصه الله تعالى علينا – عما تحمله قلوبهم تجاه الإسلام والمسلمين

قال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ... ﴾ [٢] . وقال أيضا : ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ ... ﴾ [٣] .

ثانيها : انصب اهتمام المستشرقين على الدراسات الإسلامية خاصة حيث تناولوا العقيدة ، وأصول الفقه ، واهتموا بمصدري هذا الدين الكتاب والسنة ، وركزوا على لسان الإسلام وهو اللغة العربية ، كما ركزوا على حياة نبي الإسلام وسيرته وغزواته عليه الصلاة والسلام .

والهدف الأساسي من تناول هذه الموضوعات : إضعاف المسلم في عقيدته وتشكيكه في جذوره حتى تنطمس هويته ويفقد الثقة بدينه .

ثالثها : صوَّب المستشرقون دراساتهم حول الإسلام لإبراز نقاط الضعف في تاريخ وتراث الإسلام ، وهم كمن وقع على ثوب أبيض به بعض النقاط السوداء فعمد إلى إخفاء حقيقة هذا الثوب ولم يبرز إلا تلك النقاط السوداء .ولذا نراهم قد ركزوا على الخلافات العقدية والمذهبية ، وعلى الخصومات بين الفرق والجماعات الدينية ، والتناحر بين المسلمين على الحكم والسياسة ، كما عملوا على إحياء التراث الباطني والصوفي المتسم بالغلو والانحراف [٤] .

---

(١) انظر : تيارات ومذاهب فكرية معاصرة د. يحيى ربيع صـ ١٢٨ ، ١٢٩ . ١٤٢٥هـ ، الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم د. مصطفى السباعي صـ ١٥ ، ١٦ – المكتب الإسلامي ط ٣ . ١٩٨٥م .

(٢) سورة البقرة من الآية (١٢٠) .

(٣) سورة المائدة من الآية (٨٢) .

(٤) تيارات ومذاهب فكرية معاصرة . د . يحيى ربيع صـ ١٢٩ ، ١٣٠ .

الدافع الاستعماري السياسي :

وهـــذا الدافـــع يجعلنا نتساءل في البداية عن العلاقة بين الاستشراق والاســـتعمار ، إن الاســـتعمار احتلال واستيطان ، أو تحكم وسيطرة ، فما علاقـــة ذلك بالاستشراق الذي هو درس وعلم ومعرفة ؟ والحق أن العلاقة وثيقة جداً ، فالاستشراق هو مقدمة الاستعمار ، فقبل السيطرة على قطر من الأقطـــار كـــان المســـتعمرون يرســـلون المستشرقين الذين يدرسون المنطقة ويتعـــرفون علـــيها ، وعلـــى هذا فإننا نعتقد أن الاستشراق كان هو الممهد للاســـتعمار والمهيـــئ له مناخ السيطرة ، وكي يحقق الاستشراق هذا الهدف كان عليه أن يثير الأفكار ويشيع الخلافات ، ويهيئ العقول بثقافته كي يصل إلى : **أولاً** : بـــث روح القابلية للمستعمر . **ثانـياً** : ضعف روح مقاومته في نفوس الناس [١] .

الدافع العلمي :

لا نســـتطيع أن نغفل أن فريقاً من المستشرقين قد اتجه لدراسة الإسلام بدافـــع معرفته أو بدافع حب الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها ، وهذا الفـــريق من المستشرقين قليل العدد ، إلا أن بحوثهم ودراساتهم التي اعتمدوا فـــيها علـــى المصادر الأساسية بوجه عام أقرب إلى المنهج العلمي السليم ، ومنهم من أدرك أن رسالة الإسلام قريبة من الرسالات السماوية ، ومؤيدة لما جاء في كتبها من أصول الإيمان ، والدعوة إلى الخير والحق ، بل إن من هؤلاء من اهتدى إلى الإسلام وآمن به [٢] .

---

(١) نفس المصدر صـ ١٣٠ ، ١٣١ .

(٢) نفس المصدر صـ ١٣٣ .

الدافع الاقتصادي :

ظهر هذا الدافع في القرنين التاسع عشر والعشرون . فقد اهتم الغربيون بعدة أمور ، منها : استغلال الموارد الأولية والمواد الخام من دولنا والحصول عليها بأبخس الإثمان . ثانيها : الاهتمام بتوسيع تجارتهم . ثالثها : جعل المنطقة سوقاً رائجة لبضائعهم . كل هذا استوجب التعرف على المنطقة ودراسة جغرافيتها الطبيعية والزراعية والبشرية ، ومعرفة مداخل ومفاتيح التعامل مع أبنائها حتى يحسنوا التعامل مع تلك البلاد ، ويحققوا من وراء ذلك الفوائد الكثيرة التي ستعود على صناعتهم وتجارتهم بالخير الكثير .

من هنا كانت الحاجة ماسة إلى إرسال المستشرقين ليقوموا بتلك الدراسة المطلوبة ، وكانت المؤسسات المالية والشركات الاقتصادية تزود هؤلاء الباحثين بالمال ، كما كانت الحكومات تمنحهم الرعاية .

وسائل المستشرقين وأدواتهم

لا يفوتنا أن نؤكد أن المستشرقين لم يتركوا وسيلة لتحقيق أهدافهم ، ونشر أفكارهم إلا سلكوها . ونركز فيما يلي على أهم تلك الوسائل :

أولاً : التدريس الجامعي :

لا تكاد تخلو جامعة أوربية أو أمريكية من معهد خاص للدراسات الشرقية أو الإسلامية والعربية ، بل يوجد في بعض الجامعات أكثر من معهد للاستشراق .

ثانياً : التأليف :

وهذه الوسيلة ليست في حاجة إلى بيان . إننا نستطيع أن نقول إن آثار الاستشراق وإنتاج المستشرقين لا يزال يحتل الكثير من مواقعنا الثقافية ، ويعول عليه كثير من أساتذة الجامعات في العالم الإسلامي .

ولقـــد تعددت مجالات التأليف في الدراسات الإسلامية عن الإسلام واتجاهاتـــه ، ورسوله ، وقرآنه ، وبلغ عدد ما ألفوه منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف العشرين ستين ألف كتاب ، ألفوا في التاريخ وعلم الكلام والشـــريعة ، والفلسفة ، والتصوف ، واللغة العربية ، وتاريخ آدابها والقرآن والسنة ... الخ وبعض هذه المؤلفات قيمة أما الكثير منها فيزخر بالطعن على الإسلام والمسلمين [١] .

ثالثاً : عقد المؤتمرات :

وذلك لإحكام خططهم في الحقيقة ، ومازالوا يعقدون هذه المؤتمرات منذ عام ١٧٨٣ م حتى الآن .

رابعاً : الترجمة :

لقـــد قام المستشرقون بترجمة الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوروبـــية كافـــة ، وهذا يعتبر من أهم أعمالهم ، وعادت ترجمة معظم هذه الكـــتب علـــيهم بـــالخير العميم ، خاصة ما يتعلق منها بالجوانب العلمية ، والمـــنهج التجريبي . علماً بأن هذه الترجمة لم تكن موقوفة عليهم ، أو مقرونة بنشأة الاستشراق .

خامساً : المقالات الصحفية :

ســـواء أكانت هذه الصحف تصدر عندهم ، أو يصدرونها هم أو صحفاً إسلامية وعربية ، استطاعوا شراءها .

---

(١) المصدر السابق صـــ ١٣٨ ، ١٣٩ . وانظر : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري د . محمود زقزوق صـــ ٦٠ كتاب الأمة رقم (٥) ط١ . ١٤٠٤هـــ .

سادساً : عمل الموسوعات :

ومـــن ذلك دائرة المعارف الإسلامية ، وقد أصدروها بعدة لغات ، ولا زالت تجدد طباعتها ويضاف إليها ما يسيء إلى الإسلام يوماً بعد يوم .

وقـــد حشد لهذه الموسوعة كبار المستشرقين وأشدهم عداء للإسلام ، ولـــذا فقـــد ملـــئت بالأباطيل ، ومن المؤسف أنها مرجع لكثير من مثقفينا ويأخذون ما بها على أنها حقائق مسلمة [1] .

الاستشراق والتبشير الفرق والعلاقة بينهما

الاستشـــراق والتبشير عدو واحد له هدف واحد يسعى ليدركه وهو تشـــويه الإســـلام ليصل من وراء ذلك إلى تمزيق المسلمين وإشاعة البلبلة في أفكـــارهم . وهما الداءان اللذان بات يقطعان من أوصال المسلمين ويباعدان بيـــنهما مستغلين غفلتهم وعدم إدراكهم لحقيقة الدور الذي يبطنه . مع أنهما دعامـــتان أساسيتان للاستعمار . وامتداد طبيعي للحروب الصليبية لتحطيم المسلمين وسحقهم حتى لا يجمعهم لقاء أو تضمهم وحدة .

الفرق بينهما :

(١) **في المجـال** : كان المستشرقون يعملون في مجال العلم والمبشرون يعملون في مجال الدين .

(٢) **في التخصـص** : تخصص الاستشراق في أديان الشرق ولغاته وعاداته وآدابـــه .. رامـــياً إلى هـــدمها جمـــيعاً وهدم الإسلام على الأخص . وتخصـــص التبشير في إنتاج الأفكار وتكييفها حسب متطلبات العصر

---

(١) المصدر السابق صـــ ١٤١ ، ١٤٢ . المستشرقون . د . مصطفى السباعي صـــ ٢٨ .

ومخططات الغرب السياسية للوصول إلى التي تهدف في جملتها إلى القضاء على العرب وعقيدتهم ومقومات حضارتهم .

(٣) في القوامة : الاستشراق تقوم عليه الجامعات والهيئات العملية أما التبشير فتقوم عليه الكنائس وما في حكمها من المجامع والمؤسسات .

(٤) في الازدهار : ومع أن التبشير كان يسير مع الاستشراق جنباً إلى جنب إلا أن التبشير يسبق الاستشراق في فترة الازدهار حيث ازدهر قبل الاستشراق . وبعد أن انكشفت أبعاد ، كان ازدهار حركة الاستشراق التي حملت نفس أهداف التبشير مع تغيير في الإسلوب وخطة العمل .

(٥) في الصورة : الاستشراق أخذ صورة البحث وادعى لبحثه الطابع العلمي الأكاديمي . بينما بقيت دعوة التنصير في حدود مظاهر العقلية العامة وهي : العقلية الشعبية .

(٦) في الوسائل : استخدام الاستشراق الكتاب والمقال في المجلات العلمية وكرسي التدريس في الجامعة والمناقشة في المؤتمرات العلمية العامة أما التنصير فقد سلك طريق التعليم المدرسي وفي دور الحضانة ورياض الأطفال .. كما سلك العمل الخيري الظاهري في المستشفيات ودور الضيافة والملاجئ للكبار ودور اليتامى واللقطاء ودور النشر والطباعة والصحافة .

(٧) في الجمهور : الاستشراق موجه إلى الخاصة المثقفين بينما التبشير موجه إلى العامة .

(٨) في النشاط : المبشر يوجه نشاطه - غالباً إلى إفساد عقائد المسلمين . وإثارة الشكوك حولها . أما المستشرق فمع اتفاقه في الهدف

المشار إليه مع المبشر فإن له مهمة أخرى لا يوليها المبشر كبير اهتمام لأنها ليست من اختصاصه حسب الخطة الموضوعة وإنما هي من صميم عمل المستشرق وهي تشويه حقائق الإسلام بين الشعوب المسيحية وبخاصة الشباب وتصويره في صوره منفرة .

(٩) **في الميدان** : أفضل الميادين وأخصب الحقول عند المبشرين الإرساليات التعليمية والمؤسسات الخيرية التي يقومون بها في بلاد الإسلام في شكل خدمات ومساعدات تنفق عليها الدول المسيحية والاتحاد العالمي للكنائس وتسهم هيئة اليونسكو أحياناً إذا كان المشروع الخدمي ذا صبغة ثقافية . أما أخصب الحقول عند المستشرقين فهي الجامعات ودور التعليم العالمي ووسائل الإعلام .

(١٠) **في المؤتمرات** : مؤتمرات المبشرين إنما هي بمثابة غرف عمليات مغلقة كل أعضائها من أهل المهنة (التبشير ضد الإسلام) وليس من المقبول أن يدعى لحضورها أعضاء مسلمون . أما مؤتمرات المستشرقين فهي مجال مفتوح أمام المسلمين وغيرهم لأنها تعمل تحت شعار دبلوماسي وموضوعاتها تسمح بدعوة المسلمين إليها والمشاركة فيها . لأنها موضوعات معدة بذكاء شديد . وكثيراً ما تكون هذه الموضوعات " إسلامية صرفه " تدرس بواسطة جميع الأطراف بعد أن يختار لها ظاهراً براقاً هو بمثابة " الطعم " الذي يقود الفريسة إلى "المصيدة" .

(١١) **في الغاية** : غاية الاستشراق علمية . أما التبشير فدينية بحتة[1] .

---

(١) دراسات في التبشير والاستشراق . د . عبد المنعم صبحي صـ ٣٩ : ٤٤ .

العلاقة بينهما:

إذا كـــان الاستشـــراق لا يقوم إلا على أساس معرفة اللغات الشرقية الـــتي هي الوسيلة للتعرف على عقائد وحضارات الشرق . فإن التنصير يتفق مـــع الاستشراق في هذا الصدد . ويحتم أيضا معرفة لغات من يراد تنصيرهم وقد كان هناك اقتناع تام لدي دعاة التنصير في القرن الثالث عشر بضرورة تعلم لغات المسلمين إذا أريد لمحاولات لتنصير المسلمين أن تؤتي ثمارها بنجاح . وقـــد كان هذا الاقتناع عاملاً هاماً بالنسبة لتطور الاستشراق ولم يكن من الســـهل في ذلك الزمان فصل الاستشراق عن التنصير أو عن الدافع الديني بصفة عامة . فالدافع الديني كان هو السبب الأول في نشأة الاستشراق .

وقد كان من بين الدعاة المتحمسين الذين طالبوا بضرورة تعليم لغات المســـلمين لغرض التنصير " روجر بيكون " ١٢١٤م – ١٢٩٤م الذي كان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحدة التي يمكن بها توسيع رقعة العالم المسيحي . ولبلوغ هذا الغرض لابد من توفر شروط ثلاثة هي :

(١) معرفة اللغات الضرورية

(٢) دراسة أنواع الكفر وتمييز بعضها من بعضها الآخر

(٣) دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها .

وقد شارك بيكون في أفكاره " رايموندلول " ١٢٣٥– ١٣١٦م الذي كانت له جهود كبيرة في إنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية في أماكن مختلفة وكـــان الهـــدف مـــن كل هذه الجهود في ذلك العصر وفي العصر التالية هو

التنصــير . وهو إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين النصراني [١] .

الاستشراق والاستعمار :

الاســـتعمار في حقيقة أمره هو امتداد للحروب الصليبية التي كانت في ظاهـــرها حروباً دينية . وفي باطنها حروباً استعمارية . وقد كانت العودة إلى احـــتلال بـــلاد العـــرب وبلاد الإسلام حلماً ظل يراود الغربيين منذ هزيمة الصـــليبيين فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد في كل شئوها من عقيدة وعادات وأخـــلاق وثـــروات ليتعرفوا على مواطن القوة فيها فيضعفوها وإلى مواطن الضعف فيغتنموها .ومن هنا كان هذا الوفاق تاماً بين الاستشراق والاستعمار حـــيث ساعد أحدهما الآخر مساعدة فعالة . لقد كان الأول يعد أبناء وطنه لســـحق الشـــرق و الإسلام ويصور عالم الشرق عامة والعالم العربي خاصة بصـــورة قبيحة في أخلاقه وعاداته وآرائه كما يصور الإسلام في صورة منفرة ويلصق به كثيراً من الرذائل والمخازي والجهالات .

لقـــد ظل هدف الاستشراق والاستعمار واحداً لفترة طويلة من الزمن وكان الأول يسبق الثاني ليكون طلائع جيشه وأعين له .

وبـــتعاون الاستشـــراق مع الاستعمار قروناً طويلة أصبحت الشعوب الإسلامية مغلوبة على أمرها من شدة الضربات وعنف الهجمات حتى تغيرت كفة اتصالها وكفة ميزالها مع الغرب تماماً .

---

(١) المصدر السابق صـ ٤٤ ، ٤٥ .

ومما يؤكد هذه الصلة أن بارنولد مؤسس مجلة عالم الإسلام الروسية قد تم تكليـــفه عن طريق الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الوسطى .

أما عالم الإسلاميات الهولندي الشهير (سنوك هوجرونية) فإنه في سبيل اســـتعداده للعمل في خدمة الاستعمار توجه إلى مكة في عام ١٨٨٥م بعد أن انـــتحل اسماً إسلامياً هو (عبد الغفار) وأقام هناك ما يقرب من نصف عام . وقد ساعد على ذلك أنه كان يجيد العربية كأحد أبنائها [١] .

آثار الاستشراق ونتائجه

كـــان لحـــركة الاستشراق بعض الآثار المفيدة والتي تمثلت في إحياء المخطوطات العربية وطبع الكثير من كتب التراث الإسلامي وتحقيقه ونشره أو تـــرجمته إلى اللغات الأجنبية إلا أن الآثار السيئة لهذه الحركة كانت أخطر ما يكون على المسلمين . ومنها :-

أولاً : الغزو الفكري :

فقـــد أصاب الغزو الفكري المسلمين في دينهم فحولهم إلى مسخ آدمية لا تحصـــل مـــن الإسلام إلا الاسم . فقد جعلهم يقلدون الغرب النصراني في عاداته وتقاليده وثقافته وفكره ونظمه وقوانينه . وبذلك قضي على العادات والتقالـــيد الإسلامية والتشريعات الإسلامية وكان هذا الأثر من أخطر الآثار علـــى الإطـــلاق فلم يكسب اليهود معاركهم معنا إلا حين أفلح هذا الغزو الفكري في زحزحة المسلمين عن دينهم وتضيع قيمه ومثله وأحكامه [٢] .

---

(١) المصدر السابق صـــ ٤٧ : ٥٠ .

(٢) انظر . إحذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام د . سعد صالح صـــ ١٢٢ مكتبة الصحابة ط ٧ ١٤٢٠ هـــ . ٢٠٠٠م .

ثانياً : كما فرخ المستشرقون (دعاة التغريب والدعارة الكفرية) :

أولـئك الذين خرق الفكر الغربي الاستشراقي عقولهم ووطأها بقدمه وشـكلها بالطـريقة التي يحبها حتى كانوا هم المستشرقين المسلمين ولدوا في بلادنا هذه ولكن عقولهم وقلوبهم تربت في الغرب أمثال طه حسين ، وذكي نجيب محمود ، قاسم أمين وغيرهم .

ثالثاً : بعث الخلافات القديمة وأحياء الشبه المدفونة :

كـذلك كـان مـن آثـار الاستشراق إثارة البلبلة الفكرية في العالم الإسـلامي عـن طـريق بعـث الخلافات القديمة بين أهل السنة والشيعة والخـوراج . ذلـك أن الوحدة الإسلامية كانت هي الخطر الأساسي الذي واجـه أعـداء الإسـلام . ووحـدة الأمة لا تتم إلا في ضوء وحدة فكرها وثقافـتها . ومادامت الأمة الإسلامية ممزقة إلى عشرات المذاهب والدعوات فإنـه يسـتحيل أن تـتوحد جهودها لذلك حاول المستشرقون أن يصوروا الإسـلام علـى أنه دين يختلف باختلاف الإسلوب وبعثا من حداد أفكار الخوارج وذلك في محاولة لتمزيق العالم الإسلامي فكرياً .

رابعاً : صرف همم المسلمين إلى الاتجاهات الأدبية والنظرية

وتحـويل أنظـارهم عـن الاتجاهات العلمية التجريبية حتى يظل العالم الإسلامي بعيداً عن أسباب التقدم العلمي ذلك أن المستشرقين وأتباعهم من العـرب والمسـلمين قـد ركزوا كل جهودهم في ترجمة الآداب والاجتماع والفلسفة والتاريخ وعلم النفس والروايات القصصية وكتب الإلحاد والتحلل والاضـطراب الفكري التي ظهرت في أوربا ... وقد برع الكتاب المصريون علـى الخصـوص في هذا اللون فترجموا لنا قصص الخلاعة والمجون والتحلل لسارتر وسيمون وقصص شكسبير وغيرهم .

خامساً : قتل اللغة العربية :

لقــد أدرك أعداء الإسلام أن القضاء على وحدة المسلمين لا يمكن أن تــتم مادامــت هــناك لغة واحدة يتكلمها المسلمون ويربطون بها حاضرهم بماضيهم ذلك أن اللغة هي تراث الأمة وقوميتها وحين تترك الأمة لغتها فإنها في الوقت ذاته تتنازل عن قوميتها وتراثها ويصبح من السهل عليها أن تندمج في أية حضارة وتتأثر بأية ثقافة ... لهذا حاول المستشرقون القضاء على اللغة العــربية وإحــلال العامية محلها [١] وقد تبنى هذه الحركة لويس ماسنيون [٢] وجند لها الدعاء في مصر من أمثال سلامة موسى وزكي نجيب محمود وغيرهم من الذين أشاعوا أن اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة لا تساير حاجــات العصــر لــذلك يجب على المسلمين أن يهجروها ويتحدثوا باللغة العامية بحيث تصبح هي اللغة الشائعة [٣] .

ولكــن ما السبيل لتحقيق هذا الهدف مباشرة ؟ وكيف يمكن الوصول إلــيه ؟ لقد تبنى الاستشراق وأذ ياله ثلاث دعوات حاولوا أن ينشروها في العالم الإسلامي من أجل قتل اللغة العربية .

الأولى : الدعوة إلى رسمية اللهجات المحلية (العامية) .

الثانية : الدعوة إلى كتابة اللهجات العامية بالحروف اللاتينية .

الثالثة : الإدعاء بأن الفصحى تقضي على قوة العرب الاختراعية [٤].

---

(١) انظر : إحذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام د . سعد صالح صـــ ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) انظر : التبشير والاستعمار في البلاد العربية د . مصطفى خالدي ، عمر فروخ صـــ ٢٢٤ . منشورات المكتبة العصرية . صيدا بيروت . ١٣٧٢هـــ . ١٩٥٣م .

(٣) انظر : إحذروا الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام د . سعد صالح صـــ ١٢٨ .

(٤) انظر : فلسفة الاستشراق صـــ ١٢٩ .

وقد قام كال أتاتورك التنفيذ الفعلي لأفكار المستشرقين . فقام استبدل بالحروف العربية بالحروف اللاتينية وترجم القرآن إلى اللغة التركية وألزم الناس بالتعبد بها وحرم تدريس اللغة العربية في غير معاهد دينية محدودة وضعت تحت الرقابة الشديدة وبذلك نشأ جيل جديد منقطع الصلة بالتراث الإسلامي ممسوخ الهوية لكونه نشأ بمعزل عن دينه من خلال الحيلولة بينه وبين لغته التي هي أداته لفهم دينه .

وفي مصر أصدر الاحتلال الإنجليزي قراراً سنة ١٨٨٩م بإرغام المصريين على أن يتلقوا علومهم باللغة الأجنبية بدلاً من اللغة العربية .

ولما تولى سعد زغلول نظارة المعارف سنة ١٩٠٦ أصدر قراراً قومياً بلغي القرار الاستعماري السابق ويقضي بتعريب التعليم في جميع المراحل التعليمية ولكن الإنجليز حاربوا تعريب التعليم العالي بكل قواهم حتى أنهم أخرجوا سعداً من الوزارة ... ثم ظهرت في مصر أيضاً دعوة مشابهة لما قام به أتاتورك من أحد أعضاء المجمع العلمي المصري وهو عبد العزيز فهمي [١] .

سادساً : العقود عن الجهاد في سبل الله :

أخشى ما يخشاه أعداء الإسلام كلمة " الجهاد في سبيل الله " لأنهم جربوا واقع هذه الكلمة في نفوس المسلمين حين يتحدث الخطيب . فقد كانت آيات الجهاد في سبيل الله تخرج من فم رجال الدين كأنها قاذفات اللهب تثيرها حربًا شعواء ضد أعداء الله .

ولذلك حرم المستعمرون الفرنسيون في الجزائر تدريس الجهاد في آيات القرآن الكريم أو في أبواب الفقه الإسلامي .

---

(١) انظر : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر أ . محمد حسين صـ ٣٣٨ . إحذروا الأساليب الحديثة صـ ١٣٠ . حصاد الغرور للشيخ الغزالي صـ ١١٠ مكتبة وهبة ط : ١٤٠٧هـ ١٩٩٧م

ومن هنا قام المستشرقون بحملة عنيفة على الجهاد في الإسلام فوصفوا المسلمين بالتعصب ووصفوا الإسلام بأنه دين لا يعرف حرية الفكر ولا حرية العقيدة وأنه لم ينتشر إلا بحد السيف وظلوا ينفرون من الجهاد في سبيل الله .

وتحت هذا الضغط الماكر من المستشرقين وأذ يالهم ... بدأ بعض المفكرين المسلمين يصورون الجهاد في الإسلام بغير حقيقته فقالوا إن الإسلام لا يرفع لواء الجهاد إلا حينما يعتدي عليه واستشهدوا على ذلك ببعض الآيات . الأولى التي نزلت في شأن الجهاد دون أن يجمعوا بين كل الآيات التي جعلت من الجهاد في الإسلام منهجاً أساسياً لحماية العقيدة ونشر كلمة الحق على ربوع الدنيا ... والواقع أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي قام على أساس من حرية الفكر والاعتقاد . ولم يجبر أحداً على الدخول فيه [1] واقرأ معي هذه الآيات من كتاب الله تعالى : قال تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ... ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ... ﴿٢٩﴾ ﴾ [4] وقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [5] .

---

(١) انظر : إحذروا الأساليب صـ ١٣١ .

(٢) سورة البقرة من الآية (٢٥٦) .

(٣) سورة يونس من الآية (٩٩) .

(٤) سورة الكهف من الآية (٢٩) .

(٥) سورة الحج من الآية (٣٩) .

ولكن المستشرقين ظلوا يرددون أن المسلمين متعصبون وأن دينهم قام علـى السيف حتى يفت ذلك في عضد المسلمين ويتركوا الجهاد في سبيل الله ويـتوقفوا عن نشر كلمة التوحيد وتحد هذا الضغط الماكر قعد المسلمون عن الجهـاد في سـبيل الله حتى لا يوصفوا بالتعصب وحتى لا يوسف دينهم بأنه انتشـر بحد السيف .. ولقد أثمرت هذه الشبهة وأثرت في المسلمين وتركوا أعداء الله يحتلون أراضيهم في مشارق الأرض ومغاربها (1) .

المنهج الذي يجب أن يتبع في دراسة الإسلام وكتابه ورسوله [ﷺ]

عند التعرض لدراسة ما يتعلق بهذه الأمور يجب على الدارس :

١- الإنصاف والتجرد عن الهوى والعصبية .

٢- الاعـتماد على الأخبار الصحيحة . التي رواها المسلمون أول عهدهم بالـتدوين مـثل : سرة ابن هشام . وطبقات ابن سعد . والبخاري ومسلم .وقبل هذا له . وبعده القرآن الكريم .

٣- دراسة البيئة العربية في مهدها الأصلي : مكة والمدينة والطائف . لأن دراسة هذه البيئة تكاد ترينا رأي العين أشخاص الأخبار التي رويت في سيرة ابن هشام وغيرها (2).

كيفية الرد على المبشرين والمستشرقين

إن الـرد العلمـي علـى المبشرين والمستشرقين فيما يثيرونه من تهم وشبهات حول الإسلام والقرآن والرسول (ﷺ) .

يجب أن يكون الرد قائماً علىّ أساس علمي . وخطوات منهجية .

---

(1) انظر : إحذروا الأساليب الحديثة صـ ١٣٢ : ١٣٤ .

(2) أوربا والإسلام : د/ عبد الحليم محمود ص١٢٥ .

ومـــن خلال حوار لا يستخدم فيه السباب والشتائم . وإنما يستخدم العقل والمنطق المقنع ويكون ذلك من خلال ما يلي :

أ / بيان حقائق الإسلام للناس :

ب / عدم الدخول في تفصيلات الحلول العملية للمشاكل القائمة .

جـ / التعرف على هوية الخصم .

د / رد الحجـــة بالحجـــة والفكر بالفكر وعدم إدخال بعض المفاهيم غير الإسلامية .

هـ / التدرج في الدعوة مع الأعداء .

الفصل الثالث : من شبهات المستشرقين حول قضايا المرأة المسلمة

لمـا يـئس المبشـرون والمستشرقون في التشكيك في أصول الإسلام ورسوله (ﷺ) حاولوا تشويه صورة المرأة المسلمة ظناً منهم أنهم قد ينجحوا في تشـويه صورة الإسلام عن طريق المرأة ، زاعمين أن الإسلام أهان المرأة وأذلهـا وانتقص كرامتها وهضم حقوقها وحطم شعورها بذاتيتها ، واستدلوا على مزاعمهم بالشبة التالية :

الأولى : أن الإسلام أعطى المرأة في الميراث نصف ما يعطى الرجل،لماذا ؟.

الثانية : أنه جعل شهادتها نصف شهادة الرجل .

الثالثة : أن الإسلام ميز بينها وبين الرجل فجعل له مكانة عليها.

الـرابعة : أن الإسـلام فرض عليها " الحجاب " الذي منعها من مواكبة التقدم.

الخامسة : أن الإسلام أباح التعدد للزوج في حين حرمه على الزوجة .

السـادس : أن الإسـلام أباح للمسلم الزوج بغير المسلمة في حين حرم زواج المسلمة من غير المسلم . لماذا ؟

الرد :

قـبل أن أجيب على هذه الشبه يجب أن يعرف القارئ أولاً ؟ (حال المرأة قبل الإسلام) كانت المرأة في الجاهلية تعامل بطريقين :

الطريق الأول :

معاملـة الأشـراف أي : أن المرأة في العائلات الكبيرة كانت محترمة مصـونة تسل دونها ، السيوف وتراق دونها الدماء وكان العربي إذا أراد أن

يمتدح بماله من المقام المحمود في نظر العرب من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في غالب أوقاته إلا المرأة يقول عنترة بن شداد :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك　　　إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام وإن شاءت أشعلت بينهم الحرب .

وكان الرجل يعتبر بلا منازع رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها ، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها هذا هو حالها في طبقة الكبراء الأشراف .

الطريق الثاني :

كانت تعامل كسقط المتاع لا قيمة لها ولا يحسب لها حساب وكانت المرأة تقتل تخلصاً من العار ، وفراراً من الإنفاق عليها ، وكان الرجل في الجاهلية إذا بشر بالأنثى يظل وجهه مسوداً من الغيظ ، لأنه يعتبر المرأة عار ويظل مغموماً حتى يتخلص منها قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ ﴾ [1]

وقد كان العربي يعد قتل البنات من أعظم النعم ، لأنهن عورة لا يسترهن إلا القبر .

---

[1] سورة النحل الآيتان ٥٨ ، ٥٩ .

يقول الشاعر :

ومن غاية المجد والمكرمات　　　بقاء البنين وموت البنات

ثم إن المـــرأة في الجاهلية كانت تستخدم لنشر الفساد والبغاء والزنا ، وكان الزنا سائداً في الجاهلية في جميع الأوساط الجاهلية وكان النساء ينصبن علـــى أبـــوابهن رايات تكن علماً لمن أرادهن دخل عليهن [١] هذا هو وضع المرأة في الجاهلية .

فلمـــا جاء الإسلام أكرم المرأة ورفع من قدرها وبين أنها كائن حي له روح كريم كروح الرجل ومن نفس نوعه ولاتفاضل بينهما إلا بمقدار ما يتقربون به إلي الله.

فلـــم يهضم الإسلام حقاً من حقوقها كما يزعمون ولم يهدر كرامتها كما يدعون ، بل جعلها مساوية للرجل في جميع الحقوق الدينية والمدنية ، ومما يؤكد ذلك (مساواة المرأة للرجل في الخَلقْ والإنسانية وفي تحمل المسؤولية)

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ [٢] ،

فالآية تقرر أن المرأة كالرجل باعتبارها " كائن إنساني " له روح إنسانية من نفس " النوع " الذي منه روح الرجل ، فهي إذن وحدة كاملة في الأصل والمنشأ والمصير ، ومساواة كاملة في الإنسانية تترتب عليها كل الحقوق

---

(١) انظر : شبهات إستشراقية د.احمد الحناوى صـــ٢٠٦ : ٢٠٩ .

(٢) سورة النساء الآية (١) .

المتصلة مباشرة بهذا الكائن البشري محرمة الدم والمال والعرض ، كلها حقوق مشتركة والأوامر والتشريعات فيها عام للنساء والرجال .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۞ ﴾ [1].

وقال (ﷺ) : " كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله " [2].

هــل بعــد هذا يقال أن الإسلام ظلم المرأة وأهانها ؟ إن الواقع يؤكد خلاف ذلك ، بل إنه ليشهد بأن ما يتهم به الإسلام هو متحقق لديهم فالمرأة لم تــنعم بحقوقها ولم تشعر بكيانها إلا في الإسلام .ولننظر إلي موقف الغرب من المرأة فنجد أنه موقف متباين فمنه من :ــ

١- ينظر الغرب للمرأة على أنها كالمتاع والجماد لا حياة لها .

٢- ومنهم من اعتبرها شيطان يوسوس بالشر والخطيئة .

---

(١) سورة الحجرات الايتان ١١،١٢

(٢) الحديث متفق عليه .

٣- ومنهم من اعتبرها عاملة تكافح لتعيش .

٤- ومنهم من اعتبرها سيدة المجتمع .

٥- ففي بعض البلاد الغربية تعامل المرأة كالرقيق لا يحسب لها حساب وللرجل الحق في أن يتزوج ما شاء من النساء .

٦-بـــل وتنظر الكنيسة للمرأة على أنها ينبوع المعاصي والفساد لأنها الســـبب في الخطيـــئة الأولى وهاتان النظرتان للمرأة قد أحطا من مكانـــة المـــرأة ، وما أشيع عن تبجيل للمرأة في أوربا فهذا خاص بطبقة خاصة وكان تدليلها تدليل الترف والشهوة فقط.

شبهة تعدد الزوجات

لم يكـــن الإســـلام أول ديـــن يبيح تعدد الزوجات ، ولم يبتكر هذا الـــنظام ، بل كان أول دين ينظم شئون الزواج ويحدد تعدد الزوجات بقيود شـــديدة وشـــروط قاسية ، وعندما جاء الإسلام كان تعدد الزوجات مباحا بـــلا حـــدود ليس فقط لدى العرب ، بل لدى شتى الأمم بشكل أو بآخر ، والإســـلام في تشـــريعاته الجديدة كان يتبع أسلوب التدرج في القضاء على العـــادات الســـيئة السائدة في المجتمع ، فمن الصعب القضاء على عائدات وتقالـــيد متأصـــلة مـــنذ عصور سحيقة دفعة واحدة ، ومن هنا وجدنا هذا التدرج أيضا في قضية تعدد الزوجات .

١. حـــدد الإســـلام عـــدد الـــزوجات الذي كان مطلقا بلا حدود بأربع زوجـــات ، كما جاء في القرآن الكريم : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ ﴾ (١) ، ولكن هذا التحديد بأربع فقط لم يكن

---

(١) سورة النساء : ٣ .

مطلقـــا ، بـــل كـــان مشروطا بشرط أساسي وهو ضرورة العدل بين الزوجات ، وهذا يعني عدم التفريق في المعاملة بينهن ، وقد حذر النبي ﷺ مـــن عـــدم الالتـــزام بهذا الشرط فقال : " من كان له امرأتان يميل مع إحداهما على الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط " (١) .

٢. نـــبه القـــرآن الكريم إلى أن العدل بين الزوجات من الأمور التي يصعب تحقـــيقها ، وأن الإنسان مهما حاول فلن يستطيع أن يقيم موازين العدل كاملـــة بين الزوجات ، ويصرح القرآن بذلك في قوله :﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُـــوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (٢) . وإذا كان الأمر كذلك وهو أن العـــدل متعذر بين الزوجات فإن على الرجل في هذه الحالة أن يكتفي بزوجة واحدة ، وقد ورد ذلك في صراحة ووضوح في القرآن الكريم : ﴿ فإنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ (٣) ، وقد جاء هذا التشريع الإسلامي منذ أربعة عشر قرنا من الزمان

٣. مـــن ذلك يتبين أن الإسلام لم يفرض الزواج بأربع ، ولم يخترع التعدد ، فقـــد كان هذا واقعا قائما أراد الإسلام أن يعالجه بحكمه ودون إحداث هزة عنيفة في المجتمع ، وهذا يوضح لنا أن الأصل في الإسلام هو الزواج بواحدة ، وأن التعدد هو الاستثناء ، وإن كان الإسلام قد أبقى على هذا الاستثناء لمبررات معقولة ولمعالجة حالات خاصة ، ومن ذلك على سبيل المـــثال في أوقـــات الحروب حيث يموت الكثيرون من الرجال في ميادين

---

(١) رواية ابن ماجة في كتاب النكاح ج ١ ص ٦٣٣ .

(٢) سورة النساء : ١٢٩ .

(٣) سورة النساء : ٣ .

القـــتال ، وتظـــل الكثيرات من النساء بلا عائل ، فتلك حالة استثنائية لجواز التعدد حماية للنساء من الانحراف .

كمـــا أنه قد تمرض المرأة مرضا مزمنا تعجز فيه عن القيام بواجباتها الزوجية أو تكون غير قادرة على الإنجاب ، فحماية الزوج من الانحراف يباح لـــه الزواج بامرأة أخرى تتساوى الزوجة الأولى في جميع الحقوق ، وإذا كان الإسلام قد أبقى على هذا الاستثناء فإنه بذلك يقضي أيضا على خطر التعدد من غير المشروع وما يترتب عليه من آثار وهو التعدد الذي لا يعترض عليه العـــالم الغـــربي (١) . ومعنى هذا أن الإسلام أباح التعدد لغاية سامية وحكم عظيمة لكلا الطرفين .

فضلا عن هذا فالدين الإسلامي لم ينفرد بهذا الأمر من بين الشرائع الأخـــرى فقـــد كان التعدد موجودا في الشرائع الأخري ،كما أن أنبياء بني إسرائيل قد فعلوه، وذلك على النحو التلي:

أ- أن ســـيدنا إبـــراهيم – علـــيه الســـلام – تزوج من امرأتين " سارة " أم الإسرائيليين ، " وهاجر " المصرية أم العرب .

ب- أن أولاد سيدنا إبراهيم – عليه السلام – " إسحاق ويعقوب وإسماعيل عليهم السلام " عددوا أيضاً ، فيعقوب تزوج من اثنتين (ليه وراحيل) بنتا خاله

جـــــ- أن شريعة موسى – عليه السلام – لم تحرم التعدد " والعهد القديم " أو الـــتوراة الموجـــودة الآن ليس فيها نص يحرم التعدد بدليل أن جميع أنبـــياء بني إسرائيل بلا استثناء عددوا بدءاً من يعقوب وانتهاء بعيسى

---

(١) انظر:الإسلام في مواجهة حملات التشكيك .د.محمود حمدي زقزوق.صـــ١١١:١١٣.سلسلة قضايا إسلامية العدد ٣٦ سنة ١٤١٩ هـــ ١٩٩٨م

- علـــيه الســـلام - بـــل إن كـــتاب العهد القديم يبالغون في أنبيائهم فيزعمون أن نبي الله داود - عليه السلام - كان له تسع وتسعون زوجة أكملـــهن مائة بالزواج من زوجة قائدة أوربا ، ونبي الله سليمان تزوج بســـبعمائة من الحرائر وثلاثمائة من الجواري يعني تزوج بألف امرأة فإن كـــان أنبياؤكم تزوجوا بمائة وأكثر فلم تعيبون على الإسلام الذي يبيح الزواج بأربعة ؟ .

د- أن عيسى - عليه السلام - لم تحرم التعدد (والعهد الجديد أو الإنجيل) الـــذي ألفه النصارى لم يحرم التعدد ، يقول بولس : " لا يلزم أن يكون الأســـقف زوجاً لزوجة واحدة " ، وآباء الكنيسة الأقدمين كان لديهم كثير من الزوجات

هـــــ - والـــنظام الكنســـي الحديث حرم التعدد ثم اضطر لإباحته لأنهم وجـــدوا أن نظام التعدد لم يظهر بصورة واضحة إلا في الشعوب المتقدمة وأن نظـــام " وحدة الزوجة " قد اضر الشعوب الأوربية المتقدمة علمياً حيث ظهر للغرب أن نظام التعدد يتفق مع العقل والدين والواقع:

١- اتفـــاق التعدد مع العقل . إذ العقل يؤكد الحاجة إلي التعدد خصوصا مع الحالات التي سبقت الإشارة إليها.

٢- اتفـــاق الـــتعدد مع الدين فليس هناك دين من الأديان السابقة سواء أكـــان ديناً إلهياً أم كان ديناً وضعياً يحرم التعدد فقد كان معروفا في الشـــرائع السابقة كما وجد لدي أنبيائهم كما عرف في الأديان الوضـــعية القديمة المندثرة منها والباقية فقد كان التعدد موجودا" في الأمم القديمة كلها تقريباً مثل:

أ- المصـــريون، ففـــي الديانـــة المصـــرية القديمة كان الفراعنة يعددون ويتزوجون أكثر من واحدة .

ب- البابليون ، في حضارتهم كان الزعماء والكهنة يعددون .

جـ- الآشوريون ، في ديانتهم كانوا أيضاً يعددون .

د- والصينيون ، كانوا يعددون لدرجة أن الواحد منهم كان يعدد " أكثر من مائة امرأة " .

و- والهنود ، في ديانتهم " البرهمية " تبيح التعدد .

إذن الحضارات والأمم القديمة كان التعدد مباحاً فيها ، فَلِمَ تحرمونه علـــى الإســـلام ؟ ومعـــني هذا أن الإسلام لم يأت بشيء بدعي فقد كان موجودا"في الرسالات الأخرى ثم شرعه الإسلام مرعاة لمصلحة العباد.

وطالما أن التعدد فيه مصلحة للرجال والنساء فهو جائز شرعاً لكنه بشروط من أهمها تحقيق العدل بين الزوجات.

والخلاصة إن : الإسلام قد أباح التعدد ، لأنه يتفق مع العقل والفطرة والدين والواقع فالرجل حينما يتزوج بأكثر من واحد فإنما يحقق للإسلام جانبين :

١- جانـــب أخلاقـــي : حيث يحد من انتشار الفاحشة وأولاد الزنا في المجتمع .

٢- جانـــب اجتماعـــي : حيث يحصن أكبر عدد من النساء في المجتمع وبالـــتالي يمنعهن من الزنا وفوق هذا كله " ينفق عليهن " ويكفيهن ذلـــك الســـؤال ويمـــنعهن مـــن التشريد هن وأولادهن ، وبالتالي تتضـــاعف مســـؤوليات الـــرجل ، فـــتخف بذلك أعباء المجتمع الاقتصادية .

تحريم زواج المسلمة بغير مسلم

١- صحيح أن الإسلام يجيز زواج المسلم من غير المسلمة (مسيحية أو يهودية) ولا يجيز زواج المسلمة من غير المسلم ، وللوهلة الأولى يعد ذلك من قبيل عدم المساواة ، ولكن إذا عرف السبب الحقيقي لذلك انتفى العجب ، وزال وَهْم انعدام المساواة ، فهناك وجهة نظر إسلامية في هذا الصدد توضح الحكمة في ذلك ، وكل تشريعات الإسلام مبنية على حكمة معينة ومصلحة حقيقية لكل الأطراف .

٢- الزواج في الإسلام يقوم على " المودى والرحمة " والسكن النفسي ، ويحرص الإسلام على أن تبنى الأسرة على أسس سليمة تضمن الاستمرار للعلاقة الزوجية ، والإسلام دين يحترم كل الأديان السماوية السابقة ويجعل الإيمان بالأنبياء السابقين جميعا جزءا لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية ، وإذا تزوج مسلم من مسيحية أو يهودية فإن المسلم مأمور باحترام عقيدتها ، ولا يجوز له — من وجهة النظر الإسلامية — أن يمنعها من ممارسة شعائر دينها والذهاب من أجل ذلك إلى الكنيسة أو المعبد ، وهكذا يحرص الإسلام على توفير عنصر الاحترام من جانب الزوج لعقيدة زوجته وعبادتها ، وفي ذلك ضمان وحماية للأسرة من الانهيار .

٣- أما إذا تزوج غير مسلم من مسلمة فإن عنصر الاحترام لعقيدة الزوجة يكون مفقودا ، فالمسلم يؤمن بالأديان السابقة ، وبأنبياء الله السابقين ، ويحترمهم ويوقرهم ، ولكن غير المسلم لا يؤمن بنبي الإسلام ولا يعترف به ، بل يعتبره نبيا زائفا ، ويُصَدِّق — في العادة — كل ما يشاع ضد الإسلام وضد نبي الإسلام من افتراءات وأكاذيب ، وما أكثر ما يشاع

، وحـــتى إذا لم يصـــرح الزوج غير المسلم بذلك أما زوجته فإنها ستظل تعـــيش تحت وطأة شعور عدم الاحترام من جانب زوجها لعقيدتها وهذا أمـــر لا تجـــدي فـــيه كلمات الترضية والمجاملة ، فالقضية قضية مبدأ ، وعنصـــر الاحترام المتبادل بين الزوج والزوجة أساس لاستمرار العلاقة الزوجة .

٤- وقـــد كـــان الإســـلام منطقيا مع نفسه حين حرم زواج المسلم من غير المســـلمة التي تدين بدين غير المسيحية ، وذلك لنفس السبب الذي من أجله حرم زواج المسلمة بغير المسلم .

فالمســـلم لا يؤمن إلا بالأديان السماوية وما عداها تعد أديانا بشرية ، فعنصر التوقير والاحترام لعقيدة الزوجة في هذه الحالة — بعيدا عن المجاملات — يكـــون مفقودا ، وهذا يؤثر سلبيا على العلاقات الزوجية ، ولا يحقق " المودة والرحمة " المطلوبة في العلاقة الزوجية (١) . ثم إن الإسلام حينما أبـــاح زواج المســـلم بغـــير المسلمة لم يبحه على إطلاقه وإنما وضع له الشروط وهي :

١- أن تكون العصمة بيد المسلم .

٢- أن يكتب الأولاد باسمه ويدعوهم إلى الإسلام .

٣- أن يكـــون الـــزوج لديـــه عقيدة قوية يستطيع بها مواجهة الفتن والإغراءات .

---

(١) انظر:الإسلام في مواجهة حملات التشكيك .د.محمود حمدي زقزوق.صـــ١١٥:١١٧.سلسلة قضايا إسلامية العدد ٣٦ سنة ١٤١٩هـــ ١٩٩٨م .

٤- أن يكون في غربة ولم يجد المسلمة التي تعفه لقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ ﴾

ورغم إباحة الإسلام الزواج بالكتابية إلا أن سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كره ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات وإني أري : أنه يكره الزواج بالكتابية خاصة أن القرآن قد حكم بكفرهن .

قال تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

وقـد كـان الهدف من زواج الرسول - ﷺ - بنساء اليهود هو : (دخـولهن في الإسـلام) وهناك هدف آخر يريده الإسلام من إباحة الزواج بالكتابيات : ألا وهو : تخفيف العداوة من أهل الكتاب للمسلمين لأنه معلوم أنهـم لا يحـبون الإسلام ولا المسلمين ، قال تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾

فـــإذا كان الإسلام حرم على المسلم الزواج بالكتابية إذا خاف على نفســـه " الفتنة في الدين " ، أيبيحه على المسلمة " الضعيفة " التي من طبعها تغلب الجانب " العاطفي " وسرعة التأثر بزينة الحياة الدنيا ؟

ثم إن اليهود يحرمون الزواج بغير اليهودية ، فلِمَ يعيبون على الإسلام الذي حرم زواج المسلمة بغير المسلم ؟ ولِمَ تحرمون على اليهودية الزواج من غير اليهودي ؟

كـــذلك النصـــارى يحرمون على نسائهم الزواج باليهودي أو المسلم بل بلغ الأمر إلى أن حرم بغض فرق النصارى كالكاثوليك الزواج من نساء البروتستانت !!

الحجاب لا يتناسب مع الحياة العصرية

١- كل أمة من الأمم لها طابعها الخاص ، ولها تقاليدها المرعية في الأكل والشـــرب والملـــبس والمســـكن ... الخ ، وكـــل ذلك يعبر عن ثقافة الأمة وحضـــارتها وعقائـــدها ، وقد خلق الله الناس مختلفين في كثير من الأمور ، وســـيظل هذا الاختلاف إلى نهاية الدنيا ، وما يصلح لأمة قد لا يصلح لأمة أخرى فالمرأة الهندية مثلا لها زي خاص بها (الساري) ولا يعيب عليها أحد ذلـــك حتى في البلاد الغربية رغم أنه زي قد يكون غير عملي ، ولكن تلبسه المـــرأة العاديـــة في الهـــند كمـــا كانت ترتديه رئيسة الوزراء الهندية أنديرا غاندي ، ولم يقل أحد إن هذا الزي يعوق المرأة الهندية عن العمل والإنتاج .

٢- المرأة الأوربية كانت حتى بدايات هذا القرن العشرين - في الأعم الغالب - تغطي شعرها وتلبس الملابس الطويلة ، ولم يعب عليها أحد ذلك ، ولكـــنها بدأت تطور من زيها إلى أو وصل الأمر الآن إلى الوضع الحالي هناك

الـــذي لم يعد يلتزم بأية قواعد أو معايير ، وربما يتغير ذلك بعد فترة بناء على تقرره بيوت الأزياء هناك .

٣- أمـــا المرأة المسلمة فإن الإسلام لا يطلب منها في ملبسها مواصفات معيـــنة أكثـــر من الاحتشام في مظهرها حتى لا تكون مثارا للإغراء وعرضه للمضايقات من جانب الرجل ، وليس صحيحا أن هذا الزي الإسلامي يعوق المرأة عن العمل والإنتاج ، ففي كل مؤسسات الدولة نجد كثيرات من النساء في أعمـــار مختلفة يلتزمن بالزي الإسلامي ويمارسن أعمالهن بطريقة عادية مثل زميلاتهن من غير المحجبات ، فهذه التهمة قائمة على غير أساس معقول ، ولم يقـــم أحد بإجراء دراسة علمية تثبت هذا الزعم كل ما في الأمر أن الغربيين يـــودون أن يـــروا قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم تحظى بالسيادة في كل مكان ، وهـــذا ضـــد طبيعة الأشياء فكل أمة لها شخصيتها المتميزة ، ومن حق المرأة المسلمة أن تكون لها شخصيتها وسمتها المميزة في الملبس والسلوك كما للمرأة الهندية والأوروبية هذا الحق أيضا .

٤- هـــناك نســـاء مسلمات في عصرنا الحاضر يتقلدن أعلى المناصب ويقمن بعملهن خير قيام رغم ارتدائهن للزي الإسلامي - فالسيدة بنظير بوتو - تـــرتدي زيا قريبا جدا من الزي الإسلامي وتؤدي دورها على خير وجه ، ولا يعـــوقها ذلك عن أداء واجباتها ، وكذلك الشأن بالنسبة لرئيسة حكومة بنجلاديش التي ترتدي زيا مشابها (١) .

(١) انظر:الإسلام في مواجهة حملات التشكيك .د.محمود حمدي زقزوق.صـــ١١٩:١٢١.سلسلة قضايا إسلامية العدد٣٦,١٤١٩هـــ ١٩٩٨م

المرأة بين النقص والكمال [1]

العجـــيب أنه حين يجري الحديث عن الاختلافات الفطرية بين المرأة والــرجل يــتلقاه البعض على أنه نقص في المرأة وكمال في الرجل ، ويؤدي بالــتالي إلى سلســـلة من الحقوق بالنسبة للرجل وسلسلة من الحقوق المهدرة بالنســبة للمرأة ، ويزداد عجب الإنسان عندما يفهم البعض أن الفوارق بين الرجل والمرأة من حيث الجسم والعقل نقص في المرأة وكمال للرجل ويدعون أن قانــون الخلقة قد خلق المرأة ناقصة لحكمة ما ، واعتبار المرأة ناقصة كان مشـــتهرا في الغرب قبل ظهوره بين شعوب الشرق فالغربيون كثيرا ما ظلموا المرأة بالطعن فيها واعتبارها ناقصة إذ قالوا على لسان الكنيسة والدين " إن المــرأة يجب أن تخجل من كونها امرأة وقالوا : " المرأة هي الموجود ذو الشعر الطويل والعقل القصير " ، " والمرأة آخر موجود وحشي دجنه الرجل "

" وقد غفل هؤلاء عن أن المسألة ليست مسألة نقص وكمال ، فإن الخالق لم يرد بهذا الاختلافات أن يجعل أحدهما ناقصا والآخر كاملا ، وبالتالي يكون أحدهما ذا حقوق وامتيازات والثاني محروما " [2] .

وتلك هي إحدى الشبه التي يطير بها دعاة حقوق المرأة ويعزف على أوتارهـــا الموترون وسماسرة التقدمية الذين لا يحلو لهم الحديث إلا أن يكون تـــرجيعا لما يطرحه غلاة المستشرقين في الغرب ، وكأنهم ذنب في دابة أحالتها الحياة إلى التقاعد فلم يعد لها من دور إلا تحريك ذنبها ورفع صوتها في محاولة

---

(١) نقلنا هذه الشبهة والتى تليها من كتاب المرأة بين حضارتين الاسلامية والغربية .د.إبراهيم أبو محمد صـــ ٧٦-٨٩ . سلسلة قضايا إسلامية العدد ١٢٩-١٤٢٦هـــ ٢٠٠٥م

(٢) نظام حقوق المرأة في الإسلام ، صـــ ١١للعلامة مرتضى المطهرى ط منظمة الاعلام الاسلامى ط١ ايران ١٩٨٧ .

لإحـــداث شغب ولفت نظر حتى تستشعر أنها لا زالت حية تسعى مع أنها لا تبرح مكانها .

ومـــع التأكد على كل ما تقدم ذكره من تقرير لحقوق المرأة وكفالة لأمـــنها وكـــرامتها وإنســـانيتها فإن البعض قد يجد ضالته في حديث رواه الـــبخاري جـــاء فيه : " أن رسول الله ﷺ قال : لجمع من النساء في حديث طـــويل " مـــا رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكم " [١] .

ومع أن الحديث روي في مقام المباسطة مع النساء في يوم عيد إلا أنه عـــند سوء الفهم قد يوهم النقص في الدين والعقل ، وعند سوء النية يتخذه الـــبعض وسيلة ليشغب به من جديد على دين الله ، مع أن الحديث يحمل في عباراته إشادة بقدرة تأثير المرأة واستطاعتها على فعل الأعاجيب مما يعجز عنه الـــرجال أنفســـهم ومـــن أوضح ما يدل عليه سياق الحديث ، أنه ﷺ وجه للنســـاء كلامـــه هـــذا على وجه المباسطة التي يعرفها ويمارسها كل منا في المناســـبات ، ولا أدل علـــى ذلك من أنه جعل الحديث عن نقصان عقولهن توطـــئة وتمهـــيدا لمـــا يناقض ذلك من القدرة التي أوتينها وهي خلب ألباب الرجال والذهاب بعقول الأشداء من أولي العزيمة والكلمة النافذة منهم .

إذاً فالحـــديث لا يركز على قصد الانتقاص من المرأة بقدر ما يركز على التعجب من قوة سلطانها ونفوذها في التأثير على الرجال " [٢] .

ثم ما هو المقصود بنقص الدين هنا ؟

---

(١) رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري ،حديث رقم ١٣٩٣ .

(٢) المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الاسلامي د. محمد سعيد رمضان البوطي صـــ ١٧٤ دار الفكر دمشق ط ١٩٩٦م.

مـــن المعروف أن المرأة متساوية مع الرجل في أصل التكاليف لكنها تخـــتلف عـــنه في نســـبة الأداء لأســـباب خاصة – والنقص في نسبة الأداء لا يـــنعكس بالطبع على نسبة الأجر والثواب ، ولا شك أن نقص التكاليف الســـلوكية ليســـت مسئولية المكلف وإنما هو من المكلف فكأن المراد بنقص الدين هنا قلة التكاليف السلوكية لسبب ما ، فنقصان الدين له معنيان :

١. المعـــنى الأول : نقصان في نسبة التكاليف لا في أصلها ، والمرأة في ذلك غـــير مكلفة بالصيام أثناء الدورة الشهرية وكذلك أثناء النفاس ، وغير مكلفة بالصلاة أيضًا ولا تطالب بإعادة شيء منها ، كما أسقط الله عنها تـــلاوة القـــرآن في تلك الفترة ، ولكن دون أن ينقص ذلك من أجرها شـــيء فنقصان الدين هنا نقصان في نسبة التكاليف السلوكية وليس في أصـــل التكاليف . ومع أن نسبة التكاليف المطلوبة في تلك الفترة أقل مما يؤديه الرجل إلا أنها تتساوي معه في الأجر والثواب ، فهل في ذلك غبن على المرأة أو فيه ما ينقص من قدرها وقيمتها ؟ أم أنها تتميز على الرجل في هذا الأمر وكأنها تعمل " **Part Time** " ثم تأخذ الأجر كاملاً ؟.

٢. المعـــنى الثاني : أن المرأة خفف الله عنها بعض الوظائف الدينية وأسقطها عنها ولكن دون أن ينقص شيء من أجرها بسبب ذلك إذ أن الأمر ليس عائدا إلى تقصير منها ولكنه عائد إلى تخفيف من الله عنها فالوصف بنقص الـــدين هنا ليس معناه أنها مقصرة في دينها إذ ليس لها أي اختيار في أمر فرضه الله عليها ومن هنا فإن النقص في نسبة التكاليف بناء على رحمة " المكلف " بكسر اللام ، وانصياع المكلف بفتح اللام له يتحول في الحقيقة لا إلى نقص وإنما يصبح هو ذاته عين الكمال ، لأنه مراعاة لأصل الخلقة

والتكوين في الأنثى ورعاية لحالها وما يطرأ عليها من تأثيرات سيكولوجية وبيولوجية خلال تلك الفترة .

٣. وهـــناك أمر ثالث يتصل بالتكاليف الشرعية ذاتها ، إذ أن المطلوب فيها إنمـــا هو الامتثال ، والامتثال كما يكون بالتنفيذ يكون كذلك بالامتناع عندما يطلب الشارع ذلك ، أي أنه يكون بالإيجاب أداء ، ويكون أيضا بالسلب امتناعا " وعندما تكلف المرأة سلبا بالامتناع عن بعض التكاليف في فتـــرة معيـــنة لا شـــك أنهـــا تثاب على هذا الامتناع ما دام قصدها الاســـتجابة لأمـــر الله ومن ثم فإحجامها عن الصلاة في هذه المدة كقيام الآخرين إلى الصلاة في المدة ذاتها ، كلاهما مصدر مثوبة وأجر ما دام كل مـــنهما مندفعا إلى القيام بما كلف به تحقيقا لأمر الله وسعيا إلى مرضاته في الإيجـــاب أو السلب ، ولهذا فوصف رسول الله ﷺ المرأة إنما هو وصف بواقـــع لا تـــبعة علـــيها فـــيه ، ولـــيس فيه أي منقصة لها أو مسئولية عليها "[١] .

ودفعـــاً لـــوهم النقص في الأجر ، ورفعا لحرج وضيق قد تشعر به الأنثـــى حين يأتها عذرها الشرعي فتتخيل أن أجرها ينقص أو أن الرجل يزيد علـــيها في المـــثوبة لأنـــه يصلي وهي ممنوعة من ذلك في فترة معينة ، بينت النصـــوص قـــرآنا و سنة أن مدار الأجر والمثوبة في النية بالامتثال إيجابا كان أو ســـلبا ، ومـــن هنا جاءت نصوص القرآن وتوجيهات النبي ﷺ تلفت بها الأمـــر وتنـــبه إلـــيه تصـــريحا بالمســـاواة بين الجنسين في الثواب والأجر : قـــال ﷺ : " إنمـــا الأعمـــال بالنـــيات وإنمـــا لكـــل امرئ ما نوى "[٢] ،

---

(١) المرجع السابق صـــ ١٧٩ .

(٢) رواه البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب .

وقـــال ﷺ : " إن الله لا ينظـــر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم " [١] .

وقـــال الله تعـــالى : ﴿ فَاسْـــتَجَابَ لَهُـــمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِـــلٍ مِـــنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِـــنْ دِيَـــارِهِمْ وَأُوذُوا فِـــي سَـــبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَـــنَّهُمْ جَـــنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ [٢] .

وقـــال الله تعالى :﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ [٣] .

فهل يكون الحديث تعبيرا بنقص أم هو إشادة بقدرة غير متوقعة من مصـــدر قد يظنه البعض ضعيفا وهو المرأة ، بينما هي تتمتع بقدرة تخلب بها عقول أولي العزم من أشداء الرجال ؟.

أكذوبة شهادة المرأة

يقولون أن شهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين ومن ثم فعنصر المساواة مفقود.

والجواب هو : أن الشروط التي تراعى في الشهادة ليست عائدة إلى وصف الذكورة أو الأنوثة في الشاهد ولكنها عائدة في مجموعها إلى أمرين :

---

(١) رواه مسلم وابن ماجة وأحمد من حديث أبي هريرة .

(٢) آل عمران : ١٩٥ .

(٣) النساء : ١٢٤ .

أولهما " عدالة الشاهد وضبطه لحكاية الوقائع ، وألا تكون بينه وبين المشـــهود له قرابة تبعث على احتمال تحيزه له في الشهادة ، وألا تكون بينه وبين المشهود عليه خصومة تبعث على اتهامه فيما يشهد عليه به .

ثانـــيهما : أن تكـــون بين الشاهد والواقعة التي يشهد بها صلة تجعله مؤهلا للدراية بها والشهادة فيها .

وبـــناء علـــيه فشـــهادة من خدشت عدالته أو لم يثبت كامل وعيه وضبطه لا تقبل ، رجلا كان الشاهد أو امرأة ، وكذلك شهادة الخصم على خصـــمه ، والقريب لقريبه ، رجلا كان أو امرأة ، فإذا تحققت صفة العدالة وانتفت احتمالات التحيز لقرابة أو احتمالات الإيذاء لخصومة كان لابد بعد ذلـــك مـــن تحقـــق القدر الذي لابد منه من الانسجام بين شخص الشاهد والمسألة التي يشهد بشأنها ، فإن لم يتحقق القدر الذي لابد منه ردت شهادة الشاهد رجلا كان أو امرأة

ورحـــم الله الإمام مالك بن أنس نجم السنة ، فقد ورد عنه أنه قال : كم من أخ لي في المدينة أرجو دعوته لكني لا أقبل شهادته .

العلاقـــة إذا بين الشاهد وموضوع الشهادة ، وليست بين الذكورة والأنوثة .

أولا : هل تحققت في الشاهد شروط العدالة ؟

ثانـــيا : هل للشاهد بموضوع الشهادة صلة بصرف النظر عن الذكورة أو الأنوثة ؟

ثالـــثا : إذا تفـــاوت عموم الناس في موضوع الشهادة فمن يقدم على الآخر يا ترى الذكر أم الأنثى ؟

الذكورة ليست ميزة والأنوثة ليست عيبا :

والإجابـة طـبعا أنه لا دخل للذكورة أو الأنوثة بالموضوع ، وإنما المعول عليه هو " من له بموضوع الشهادة صلة ، فإذا كان موضوع الشهادة مـن الموضوعات التي هي ألصق بالنساء من الرجال ، قدمت شهادة المرأة ، والأنـوثة هـنا لا تقـدح في شهادة صاحبتها ، وكذلك العكس ، إن كان موضـوع الشـهادة ألصـق بالرجال قبلت شهادة الرجل ، والذكورة هنا لا تعطـي صاحبتها ميزة خاصة ، وإنما موضوع الشهادة هو الفيصل ، وبناء علـى ذلـك فهناك قضايا لا تقبل فيها شهادة الرجال مطلقا وإنما الشهادة المعتمدة فيها للمرأة وليس للرجل .

والنظـر هـنا لما تقتضيه العدالة وليس للذكورة أو الأنوثة دخل في ذلـك ، لهـذا فقد كان الإسلام رائعا وواقعيا وعظيما حيث كانت الغاية في الضـوابط التي يضعها في شريعته الغراء هي تحقيق أعلى مستوى من العدالة حسـما للـنزاع ، وقطعـا للخصـومة ، ورعاية للعدل الذي قامت عليه السـماوات والأرض ، ولـذلك فـرّق الإسلام – رعاية لتحقيق العدالة في موضوع الشهادة وليس في الذكورة والأنوثة – بين المواقع التي لا تقبل فيها شهادة المرأة بينما تقبل شهادة الرجل .

مواضع القبول والمنع، ولماذا ؟

وهناك مواضع مشتركة تتساوى فيها شهادة الرجل مع شهادة الأنثى بـلا فرق ، ومواضع أخرى تضم فيها شهادة امرأتين ، وذلك لضعف صلة المـرأة بموضوع الشهادة ، ولا دخل في ذلك لا للذكورة ولا للأنوثة ، فأين الظلم إذا ؟

" وانطلاقـــا من هذه القاعدة ، فإن الشارع يرفض شهادة المرأة على وصف الجناية وكيفية ارتكاب الجاني لها ، ذلك لأن التعامل المرأة مع الجرائم وجـــنايات القـــتل يكـــاد يكون معدوما من شدة ندرته ، والأرجح أنها إذا صـــادفت عملية سطو على حياة بقتل أو نحوه فستفر من هذا المشهد بكل ما تملـــك ، فإن لم تستطع فالأرجح أنها تقع في غيبوبة قد تفقدها الوعي ، وعلى العكـــس مـــن ذلك شهادة المرأة في أمور الرضاع والحضانة والنسب ، فإن الأولوية الشرعية فيها لشهادة المرأة إذ هي أكثر التصاقا واتصالا بهذه المسائل من الرجل كما هو معروف ، بل روي عن الشعبي أنه قال :" من الشهادات ما لا يجوز فيه إلا شهادات النساء " [١] .

والغريب أن شهادة المرأة فيما لا يطلع عليه إلا النساء تقبل منفردة ، وقد قبل النبي ﷺ شهادة المرأة الواحدة في الرضاع وقد شهدت على نفسها ففي البخاري عن عقبة بن الحارث : أنه تزوج أم يحي بنت أبي إهاب فجاءت أمـــة ســـوداء ، فقالت : قد أرضعتكما ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ ، فأعرض عني ، قال : فتنحيت ، فذكرت ذلك له ، قال : فكيف ؟ وقد زعمت أن قد أرضعتكما فنهاه عنها " [٢] .

رأي ابن القيم وشواهده

وعقد ابن القيم الجوزية في كتاب القيم الطرق الحكمية فصلا عنوانه شهادة النساء منفردات قال فيه " ويجوز القضاء بشهادة النساء منفردات في غير الحدود والقصاص عند جماعة من الخلف والسلف " [٣] ، وذكر فيه أيضا

(١) انظر كتاب المرأة د. البوطي صـــ ١٤٨ .

(٢) صحيح البخاري ج ٣ صـــ ١٥٣ الباب ١٣ ط المكتبة الإسلامية استانبول تركيا .

(٣) انظر الطرق الحكمية للإمام ابن قيم الجوزية صـــ ١١٥ ، تحقيق د. محمد جميل غازي ، مطبعة المدني ، القاهرة .

أنــه : قد نص أحمد على ذلك في رواية بكر بن محمد عن أبيه ، قال في المرأة تشــهد علــى مــا لا يحضر الرجال من إثبات استهلال الصبي ، وفي الحمام يدخلــه النســاء فتكون بينهن جراحات . وقال اسحاق بن منصور : قلت لأحمــد في شــهادة الاستدلال : تجوز شهادة امرأة واحدة في الحيض والعدة والســقط والحمــام ؟ وكل مالا يطلع عليه إلا النساء ؟ فقال : تجوز شهادة امرأة إذا كانت ثقة .

قــال أبو عبيد : أبو حنيفة وأصحابه يقبلون شهادة النساء منفردات فــيما لا يطلــع علــيه الــرّجال كالولادة والبكارة وعيوب النساء وثبوت النســب ، ويقــبلون فــيه شــهادة امرأة واحدة . قالوا وتقبل فيه شهادة امــرأة واحدة لأن ما قبل فيه قول النساء على الانفراد لم يشترط فيه العدد كالرواية [١] .

وهــناك أمور مشتركة ، الصلة فيها مشتركة بين النساء والرجال ، كالأمــور الماليــة والمعــاملات الــتجارية وما قد ينشأ عنها من خصومات ودعــاوى ، فلكــل مــن المرأة والرجل علاقة به ، غير أن صلة الرجل بها واندماجــه فــيها أشــد من صلة المرأة ، ودليل ذلك أن الذين ينغمسون في الأعمــال الــتجارية وينشــطون فيها وإجراء صفقاتها والقيام بمغامراتها هم الــرجال في كل الأزمنة وفي كل المجتمعات ، فإن رأيت نساء فهن في الغالب مــوظفات في أعمال إدارية ومكتبية كالسكرتارية ونحوها ، وإذا كانت تلك هــي القاعدة ، فإن تخصص بعض النساء في النظم المالية والمحاسبية وارد وربما موجود ، ولكنه يشكل في المجموع العام نسبة ضئيلة تمثل الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها .

---

(١) نفس المصدر ، صــ ١٢١ .

" نظرا إلى هذا الواقع الذي يفرض نفسه في كل مجتمع فقد جعل الله حكم الشهادة فيه مرآة تعكس هذا الوضع القائم والمستمر ، والموقف الدقيق في ذلــك أن تكون الأولوية في ذلك لشهادة الرجال مع قبول شهادة المرأة ، والــوجه التطبيقـــي لهذا الوضع أن تقوم شهادة امرأتين في هذه الأمور مقام شـــهادة الرجل الواحد ، فهل هذا النظام التنسيقي آت من التسامي برجولة الرجل والهبوط بأنوثة المرأة ...؟

لـــو كـــان الأمـــر كذلك لما كانت الأولوية لشهادة النساء في كل خصومة جرت بين النساء بعضهن مع بعض أيا كان سببها [1] .

إذا فالمـــدار على شرط لابد منه هو المحور والأساس ، وهو أن تكون بـــين الشـــاهد والموضوع الذي يشهد فيه صلة قوية قائمة ، أيا كان الشاهد رجلا أو امرأة وليس المدار على الذكورة من حيث هي ، ولا على الأنوثة من حيث هي .هذا فيما يتصل بالشهادة التي توفرت شرائطها وهي تعد في حكم الشـــريعة بينه كاملة . أما ما يسمى بقرائن الأحوال ، وهي القرائن التي تعين القضـــاء أو النيابة أو وسائل البحث والتقصي الجنائي في مجال التحقيق فإن شهادة المرأة داخلة فيها دون تفريق بين الذكورة والأنوثة .

ولـــو كانت الأنوثة والذكورة تلعبان دورا في قيمة الشهادة ومدى شرعيتها لسمت شهادة الرجل على شهادة المرأة في باب اللعان ، أي لكانت شـــهادتها الأربـــع بقيمة شهادتين فقط من شهادة الرجل ، ولكن الواقع أنها متساويات قال تعالى :

---

(١) انظر كتاب المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الإسلامي ، د. البوطي صـــ ١٤٩ ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ١٩٩٦ .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) .

فهل كشف الغطاء عن الحقيقة ، أم ظلت شُبه الذين في قلوبهم مرض تتردد بين جوانحهم وعلى ألسنتهم كلما رأوا الفرصة سانحة ؟

(١) سورة النور الآيات ٦ : ٩ .

الفصل الرابع : " العلمانية "

مفهوم العلمانية :

العلمانية كلمة إنجليزية وترجمتها الصحيحة اللادينية أو الدنيوية وهي دعوة الى إقامة الحياة على غير الدين وتعني في جانبها السياسي بالذات اللادينية في الحكم واصطلاح لا صلة له بكلمة العلم والمذهب العامي [1] .

أهم أفكار ومعتقدات العلمانيين :

- بعض العلمانيين ينكرون وجد الله أصلاً .
- وبعضهم يؤمنون بوجود الله لكنهم يعتقدون بعدم وجود آيه علاقة بين الله وبين حياة الإنسان .
- الحياة تقوم على أساس العلم المطلق وتحت سلطان العقل والتجريب .
- إقامة حاجز سميك بين عالمي الروح والمادة ، والقيم الروحية لديهم سلبية.
- فصل الدين عن السياسة وإقامة الحياة على أساس مادي .
- تطبيق مبدأ النفعية (البراجماتيزم) على كل شيء في الحياة .
- نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية وتهديم كيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى في البنية الاجتماعية .
- أما معتقدات العلمانية في العالم الإسلامي والعربي التي انتشرت بفضل الاستعمار والتبشير فهي :
  - ✓ الطعن في حقيقة الإسلام والقرآن والنبوة .
  - ✓ الزعم بأن الإسلام استنفذ أغراضه وهو عبارة عن طقوس وشعائر روحية .

---

(١) الموسوعة الميسرة الندوة العالمية للشباب الإسلامي.صـ٦٨٩ ١٩٨٩م ، الإسلام والعلمانية وجهًا لوجه صـ٤٢ القاهرة مكتبة وهبةط ١٩٩٧,٧م .

- ✓ الزعم بأن الفقه الإسلامي مأخوذ عن القانون الروماني .
- ✓ الزعم بأن الإسلام لا يتلاءم مع الحضارة ويدعو الى التخلف .
- ✓ الدعوة الى تحرير المرأة وفق الأسلوب الغربي .
- ✓ تشويه الحضارة الإسلامية وتضخيم حجم الحركات الهدامة في التاريخ الإسلامي والزعم بأنها حركات إصلاح .
- ✓ إحياء الحضارات القديمة .
- ✓ اقتباس الأنظمة والمناهج اللادينية عن الغرب ومحاكاته فيها .
- ✓ تربية الأجيال تربية لا دينية .
- ✓ إذا كان هناك عذر ما لوجود العلمانية في الغرب فليس هناك أي عذر لوجودها في الشرق .

نشأة العلمانية

ظهرت الدعوة الى العلمانية في الغرب نتيجة للاتجاه الذي حملت لواءه حركة التنوير الأوربية في الفصل بين سلطة الكنيسة وسلطة الحكومة ، أو إقامة أنظمة سياسية جديدة غير خاضعة لسلطة الكنيسة .

فالعلمانية في جوهرها : إنما تمثل القضاء على نظام قائم في الغرب إبان دعوتها حيث كانت الكنيسة تباشر السلطة السياسية وتفرض نفوذها على الحكومات والدول ، والمعروف أن الدعوة تمت في أوربا قبيل الثورة الفرنسية في مجال التحرر من سلطان الدين والكنيسة ، وإقامة منهج جديد ، أساسه الدولة الحديثة ، من شأنه أن ينقل الولاء من الكنيسة إلى الدولة ، وقد أرجعوا الفكرة في المسيحية الغربية إلى نظرة أساسية مستمدة من أقوال السيد المسيح " دع ما لقيصر وما لله . ليست مملكتي في هذا العالم " والتمسوا

مفهومًا يقوم على أساس أن المسيحية إنما جاءت بوصايا في مجال الأخلاق وأن المسيحية حين عبرت إلى أوربا وجدت نظامًا سياسيًا قائمًا هو الإمبراطورية الرومانية بقوانينها ودولتها المشكلة فعلاً ، والتي تطبع مجتمعها بطابع له صورته المكتملة [١] .

العلمانية بين الغرب المسيحي والشرق المسلم :

وهي كلمة حديثة الاستعمال في لغتنا العربية ، شأنها شأن كثير من الكلمات ، التي أصبحت مصطلحات أولها قوة المصطلحات في عصرنا ، " والياء " المشددة فيها للنسب والألف والنون زائدتان .

وهناك من ينطقونها بكسر العين " العلمانية " نسبة إلى " العلم " بكسر ، فسكون وهذا هو الأشهر ، ومن ينطقونها بالفتح " العلمانية " نسبة إلى " العلم " بفتح ، فسكون بمعنى " العالم " أي الدنيا ، وعليه جرى " المعجم الوسيط " الذي أصدره مجمع اللغة العربية .

وكما أن لفظ الكلمة دخيل على معاجمنا العربية فإن معناها ومدلولها سواء أكانت بكسر العين أم بفتحها ، ما يقابل " الدين " فالعلماني ما ليس بديني ومقابلة الديني أو الكهنوتي [٢] وكأن مدلول " العلمانية " المتفق عليه يعني : عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع ، وإبقاؤه حبيسًا في ضمير الفرد ، لا يتجاوز العلاقة الخاصة بينه وبين ربه فإن سمح له بالتعبير عن نفسه ، ففي الشعائر التعبدية والمراسم المتعلقة بالزواج والوفاة ونحوها [٣] .

---

(١) الإسلام والدعوات الهدامة أنور الجندي صـ ١٤٧، بيروت دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الأولى١٩٧٤م.

(٢) يوسف القرضاوي ، مرجع سبق ذكره صـ ٤٥ .

(٣) يوسف القرضاوي ، مرجع سبق ذكره صـ ٤٥ .

العلمانية في الغرب :

يكشف تاريخ أوربا في العصر الحديث عن حقيقة تاريخية ، ترد إليها أمور كثيرة من وقائع هذا التاريخ : تلك محاولة اليهود الملحة لإسقاط الحواجز التي فرضتها الكنيسة والدول المسيحية الحاكمة في أوربا ، وإلغاء القيود التي كانت تتعلق بالزواج والملبس والعبادات ، والتي حالت وقتًا طويلاً بين اليهود وبين حق المواطنة في المجتمعات الأوربية .

ومن أجل هذا عمدت المنظمات الماسونية إلى التحضير لعملية كبرى تستهدف إسقاط الحكومات المسيحية العربية التي تسيطر عليها الكنيسة وإنشاء حكومات أخرى متحررة من هذه القيود .

فالعلمانية هي السيف المسلط الذي حطم به اليهود القيد الذي يفصلهم في كل مجتمع ويحول بينهم وبين السيطرة التلمودية ، وإن الفصل بين الدين والدولة في الفكر الغربي المسيحي مفهوم لا غرابة فيه ، ومنه أمكن إقامة " العلمانية " التي كانت أكبر ركيزة في تأكيد النفوذ التلمودي في المجتمع الغربي .

يقول الدكتور الفاروقي ، علينا أن نتذكر أن تحرر اليهود لم يأت إلا نتيجة لنمو العلمانية في التنظيم السياسي والاجتماعي ، أي أن إقصاء الدين عن السياسة والاقتصاد والاجتماع أدى إلى اعتبار المنفعة العامة والإنتاج والخبرة الأهلية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات .

ويقول أن العلمانية نظرية تنبعث من الخبرة المسيحية لا من الخبرة اليهودية ، أن المسيح الأوربي قد قسم حياته إلى دوائر ، وجعل بينها سدودًا تمنع أي اتصال ، وتجرى الحياة في كل هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة ، لا علاقة البتة للدائرة الواحدة بما يجري في الدوائر الأخرى .

فالعائلة والأخلاق الشخصية ، والدين ، والاقتصاد ، والسياسة ، والاجتماع ، كل منها يؤلف ملكوتًا مستقلاً ، فالويل كل الويل إذا سمح الغربي لمبادئ أن تتعدى حدودها للتأثير في الاقتصاد[1] .

والواقع أن العلمانية ليست سوى الاعتراف بأنه ليس هناك مبدأ عام يشمل حياة الناس بأكملها ، كما هو الحال في النظرة الدينية ، فأصبح لكل من دوائر الحياة مبدأه الخاص ، ولا ريب أن هذا الفهم الأوربي يختلف اختلافًا واضحًا عن الفهم الإسلامي الجامع المتكامل الذي يضع الحياة كلها في إطار موحد ، ولا يقر الفصل بين القيم أو المفاهيم بل يراها متلاقية متكاملة يؤثر كل منها في الآخر .

العلمانية والإلحاد :

إذا كان مفهوم (الإلحاد) هو إنكار وجود الله سبحانه وتعالى كما هو مذهب الماديين قديمًا وحديثًا ومنهم الشيوعيون دعاة المادية التاريخية ، فإن العلمانية – حسب مفهومها – لا تعني بالضرورة الإلحاد .

قد يوجد من (العلمانيين) من يجحد وجود الله تعالى ، أو يجحد رسالاته ووحيه أو يجحد لقاءه وحسابه في الآخرة ولكن هذا ليس من اللوازم الذاتية لفكرة العلمانية كما نشأت في الغرب ، فإن الذين نادوا بها ، لم يكونوا ملاحدة ينكرون وجود الله بل هم ينكرون تسلط الكنيسة على شئون العلم والحياة فحسب ، فكل ما يعنيهم هو عزل الدين – ممثلاً في رجاله وكنيسته – عن سياسة الدولة ، وتوجيه أموره ، سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو تربوية [2] .

---

(١) أنور الجندي ، مرجع سابق صـ ١٤٩ – ١٥١ .

(٢) يوسف القرضاوي ، مرجع سبق ذكره صـ ٦٦.

العلمانية ضد الدين :

إن (العلمانية) بالمعنى الذي بيناه ، مرفوضة في أوطاننا عامة ، بأي معيار احتكمنا إليه وأول هذه المعايير هو الدين ، فإذا احتكمنا إلى الدين ، أعني الدين الذي تؤمن به الأغلبية ، وتنزل على حكمه – وهو الإسلام – تجده يرفض العلمانية رفضًا حاسمًا ، وذلك لأنها لا تقبل التعايش معه كما أنزله الله ، كما بينا ذلك من قبل ، فهي قد تقبله عقيدة في ضمير الفرد ولكنها لا تقبل هذه العقيدة أساسًا للولاء والانتماء ولا ترى أن من موجبات العقيدة بحكم الله ورسوله ، وهي قد تقبله عبادة ونسكًا ، لكن على أن تكون شأنًا موكولاً إلى الأفراد ، لا على أن ترعاه الدولة ، وتحاسب عليه ، وتقدم الناس أو تؤخرهم على أساس الالتزام بذلك أو عدمه [١] .

وهي قد تقبله أخلاقًا وآدابًا ، ولكن فيما لا يمس التيار العام ، المقلد للغرب ، فالأصل لدى العلمانيين أن يبقى الطابع النوعي سائدًا غالبًا ، على عاداتنا وتقاليدنا في المأكل والملبس والزينة والمسكن والعلاقة بين الرجال والنساء ، ونحوها ، ضاربين عرض الحائط بما قيد الله به الفرد المسلم والمجتمع المسلم ، من أحكام الحلال والحرام .

أما الشك الذي تقف العلمانية ضده بكل صراحة وقوة ، فهو " الشريعة " التي تنظم بأحكامها الحياة الإسلامية ،وتضع لها الضوابط الهادية العاصمة من التخبط والانحراف سواء في ذلك ما يتعلق بشئون الأسرة (الأحوال الشخصية) أو المجتمع ، أو الدولة في علاقاتها الداخلية أو الخارجية ، السلمية ، أو الحربية ، وهو ما عنى به الفقه الإسلامية بشتى

---

(١) يوسف القرضاوي ، مرجع سبق ذكره صـ ٧٤ .

مدارسه ، ومختلف مذاهبه وخلف لنا فيه ثروة تشريعية طائلة تغنينا عن استيراد قوانين من غيرنا ، وهي قوانين لم تنبت في أرضنا ولم تنبع من عقائدنا وقيمنا وأعرافنا ، وهي بالتالي تظل غريبة عنا مرتبطة في أذهاننا وقلوبنا بالاستعمار الدخيل ، الذي فرضها علينا دون إرادة ولا اختيار منا .

هذا هو حال القوانين الوضعية بالنسبة لنا ، ولكن العلمانية تقبلها ، وترفض شريعة الله ، تتبنى الزنيم وتنفى نسب الابن الأصيل .

وبهذا تناصب العلمانية العداء للدين أعني الإسلام ،الذي أنزله الله نظامًا شاملاً للحياة كما أن الإسلام يناصبها العداء أيضًا ، لأنها تنازعه سلطانه الشرعي في قيادة سفينة المجتمع وتوجيه دفتها وفقا لأمر الله ونهيه ، والحكم بما أنزله ، على رسوله ﷺ ، وإذا لم يحكم المجتمع بما أنزل الله ، سقط لا محالة في حكم الجاهلية وهو ما حذر الله منه رسوله والمؤمنين من بعده حين قال : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُون ﴾ (١) .

إن العلمانية بمعيار الدين دعوة مرفوضة لأنها دعوة إلى حكم الجاهلية ، أي إلى الحكم بما وضع الناس لا بما أنزل الله (٢) .

العلمانية ضد الدستور:

وأما العلمانية ضد الدستور فبيان ذلك من أوجه ثلاث :

---

(١) سورة المائدة الآيات (٤٩ ، ٥٠) .

(٢) يوسف القرضاوي ،مرجع سبق ذكره صـ ٧٤ – ٧٥ .

الأول : إن الدستور ينص في مادته الثانية بصريح العبارة : أن الإسلام دين الدولة الرسمي ، كما أن اللغة العربية ، لغتها الرسمية .

الثاني : إن الدستور ينص في مادته تلك (الثانية) على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيسي للتشريع .

الثالث : إن الدستور في مادته يكفل الحرية الدينية لكل مواطن ، والمسلم إذا فرضت عليه العلمانية ، فقد فرض عليه أن يتحلل من دينه وما يوجبه عليه ربه ، وما تلزمه به شريعته فأنت بالعلمانية تلزم المسلم — رغم أنفه — أن يعطل ما فرضه الله عليه وأن يرتكب محرمًا حرمه الله عليه فلا يستطيع إذا كان حاكمًا (رئيسًا أو وزيرًا أو عضو مجلس تشريعي أو قاضيًا) أن يحكم بما أنزل الله ، كما أمره الله [١] .

العلمانية ضد إرادة الشعب :

وكما أن العلمانية ضد الدستور نصًا وروحًا فهي كذلك ضد إرادة الشعب ، ضد الدعوة إلى الديموقراطية والعلمانيون يباهون بأنهم ديموقراطيون وأنهم أنصار الديموقراطية ودعاتها ، والديموقراطية هي النزول على إرادة الشعب وقد قال بعضهم : إن إرادة — الشعب من إرادة الله فما بالهم هنا — في قضية تحكيم الشريعة ، يخونون مبدأهم الذي اتخذوه شعارًا لهم ، أو يحاولون أن يثنوا عنان الشعب عما يؤمن به ويعتقد أنه وحده حبل النجاة ، وسفينة الإنقاذ وهو العودة إلى شرع الله [٢] .

---

(١) يوسف القرضاوي ، مرجع سبق ذكره صـ ٧٦ .

(٢) مرجع سبق ذكره صـ ٧٨

العلمانية ضد مصلحة الأمة :

وإذا كانت العلمانية دعوة مضادة ومناقضة للدين ، ودعوة مضادة ومناقضة للدستور وهي مضادة ومناقضة لإرادة الشعب ،فهي كذلك دعوة مضادة ومناقضة لمصلحة الوطن ومصلحة الأمة [1] .

العلمانية مبدأ مستورد :

والعلمانية من ناحية أخرى ضد أصالتنا وسيادتنا ، لأنها مبدأ مستورد من خارج أرضنا ومن قوم غير قومنا ، لهم تاريخ غير تاريخنا ، ومفاهيم غير مفاهيمنا ، وقيم غير قيمنا وعقائد غير عقيدتنا ، وقوانين غير شريعتنا ، وأوضاع غير أوضاعنا

أنهم احتاجوا إلى العلمانية لظروف خاصة بهم ، ونحن لا حاجة لنا إلى العلمانية لأنها كانت حلاً لمشكلتهم مع كنيستهم ، وهي عندنا تكون مشكلاً في ذاتها

نشأة العلمانية في العالم الإسلامي

ظهــرت العلمانـــية في بـــلاد المسلمين خاصة في وسائل الإعلام : المقـــروءة والمسموعة والمرئية في العصر الحديث وأفرزت مساحات للكتاب والمفكرين العلمانيين لنشر أفكارهما فيها بحرية تامة .

أولاً : ظهور العلمانية في المجتمعات الإسلامية :

صدر أعداء الإسلام دعوة العلمانية إلى البلاد الإسلامية على يد تلاميذ المستشرقين في بلاد المسلمين مروجين لفصل العلم عن الدين ، متناسين أن هذه الدعوة تتنافى مع ما يدعو إليه الإسلام ، الذي لا دخل له

---

(١) مرجع سبق ذكره صـــ ٨٦ .

فيما حدث للنصرانية من صراع بين رجال العلم ورجال الكنيسة [١] إن العلم في الإسلام نوع من العبادة التي يثاب المسلم على أدائها تقربًا إلى الله عز وجل . فيع يعرف الإنسان ربه وخالقه وما يجب عليه من ولاء لله سبحانه وتعالى ، واستقامة على أوامره واجتناب نواهيه ، حيث لا يكون عمل إلا من علم ، ومن ثم كانت دعوة الإسلام إلى العلم ، والاجتهاد الدائب في طلبه ، وإلى تفضيل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون كما يتضح من قول العليم الخبير : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [٢] وقد رفع الله عز وجل قدر الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات فقال تبارك وتعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [٣] . كما قال سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ [٤] .

إن العلمانية في حقيقة الأمر والواقع ليس لها مكان في وجود الإنسان مع الإسلام فإما أن يوجد الإسلام ولا علمانية أو توجد العلمانية ولا يوجد الإسلام أي لا يمكن التوفيق بينهما إما العلمانية فهي في تصور بعض من المسلمين المعاصرين يحاولون جاهدين التوفيق بينها وبين الإسلام في المجتمع الإسلامي ، ونجد ذلك عائد إلى قصور في تصور الإسلام وفهمه ثم إلى رغبة في محاكاة حلول في تفكير الغرب لمشاكل كانت وليدة في البيئة الغربية ونتيجة الصراع فيها حول السلطة والتفرد بالقوة في كل جوانبها في المجتمع الأوربي [٥] .

---

(١) انظر : الدعوة إلى الله على بصيرة صـــ ٢٥٨ .

(٢) سورة الزمر الآية (٩) .

(٣) سورة المجادلة الآية (١١) .

(٤) سورة طه الآية (١١٤) .

(٥) انظر العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق د.محمد البهي صـــ ١٥ هدية مجلة الأزهر لشهر ربيع الآخر ١٤١٥.

والتحول إلى العلمانية هو التحول من الملكية الدينية إلى الملكية المدنية أو من الاستعمال الديني إلى الاستعمال المدني هو التخلص من سلطة الرهبنة والعهد الرهبنة هو الحول إلى الانتماء المدني [١].

ثانيًا : الآثار الخبيثة للعلمانية في العالم العربي والإسلامي :

أولاً : رفض الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى وإقصاء الشريعة عن كافة مجالات الحياة والاستعاضة عن الوحي المنزل على سيد البشر محمد ابن عبد الله ﷺ بالقوانين الوضعية التي اقتبسوها عن الغربيين المحاربين لله ورسوله واعتبار الدعوة إلى العودة إلى الحكم بما أنزل الله وهجر القوانين الوضعية تخلفًا ورجعية وردة عن التقدم والحضارة .

ثانيًا : تحريف التاريخ الإسلامي وتزييفه وتصوير العصور الذهبية لحركة الفتوح الإسلامية على أنها عصور همجية تسودها الفوضى والمطامع الشخصية .

ثالثًا : إفساد التعليم وجعله خادمًا لنشر الفكر العلماني وذلك عن طريق :

- بث الأفكار العلمانية في ثنايا المواد الدراسية بالنسبة للطلاب .
- تقليص الفترة الزمنية للمادة الدينية إلى أقصى حد .
- منع تدريس بعض النصوص الدينية .
- تحريف النصوص الشرعية .

---

(١) انظر المصدر نفسه .

- إبعاد المدرسين المتمسكين بدينهم عن التدريس ، ومنعهم من الاختلاط بالطلاب وذلك عن طريق تحويلهم إلى وظائف إدارية أو إحالتهم إلى المعاش . (١) .

إن القوانين الوضعية التي اقتبسها المسلمون من أعدائهم العلمانيين وطبقوها في أمور حياتهم المختلفة : أباحت الانحراف والفساد في عالم السياسة والربا والاحتكار في عالم الاقتصاد والتحلل من الأخلاق الفاضلة في عالم الاجتماع وسمحت للمرأة المسلمة بالاختلاط بالرجل في مظاهر النشاط البشر المختلفة مما أدى إلى الانحراف وإشاعة الفاحشة والفساد في المجتمعات الإسلامية ، نتيجة لعدم الالتزام بمبادئ الإسلام . والأدهى من ذلك وأمر أن الانحراف صور أحيانًا على أنه علامة على التحرر والتقدم وكسر قيد التخلف ، ولا سبيل إلى إزالة هذه العقبة من طريق الدعوة إلى الله إلا بالرجوع إلى كتاب الله الحكيم وسنة رسوله الكريم وتحكيمهما في أمور المسلمين وتطبيق حكم الله في جميع ميادين الحياة في بلاد المسلمين ونبذ القوانين الوضعية وكل ما يتعارض مع شرع الله سبحانه وتعالى (٢) .

إن العلمانيين يرفضون تحكيم الشريعة الإسلامية لعدم صلاحيتها حيث قالوا : التشريعات الإسلامية ذاتها قد تجاوزتها ظروف الزمان والمكان ، فلم تعد في منظورهم صالحة لحكم العصر ، وذلك لأن النصوص الدينية ثابتة والحياة الدنيا متغيرة ولا سبيل لتحكيم الثابت على المتغير ، يقول الدكتور/ فؤاد زكريا : " يرتكز الداعون إلى الجمع بين الدين والدنيا ومن ثم بين العقيدة والسياسة على مبدأ صلاحية النص الديني لكل زمان ومكان ، وهذا

---

(١) العلمانية وثمارها الخبيثة : صـ ٦٦ : ٧١ " بتصرف " .

(٢) انظر : الدعوة إلى الله على بصيرة . د/ عبد المنعم محمد حسين صـ ٤٨ .

المبدأ في ذاته يولد تناقضًا أساسيًا عند تطبيقه على القضايا التي تقوم الآن بتحليلها ، ذلك لأن الدنيا بطبيعتها متغيرة وأحوال المجتمع والإنسان والسياسة لا تكف عن التطور وهذه في نظر أي إنسان لديه الحد الأدنى من الثقافة العصرية .. إلى أن قال ومبدأ الإسلام دين ودنيا إذا كانت الدنيا لا تكف عن التغير . والتغير معناه : أن ما يصلح لها في زمان ومكان معين قد لا يصلح في زمان ومكان آخرين [١] .

وقال أيضًا : " إن التجارب المعاصرة في تطبيق الشريعة كانت كلها فاشلة بل إنها اضطرت آخر الأمر التخلي عن نظم في الحكومة مضادة لما تدعو إليه جميع الشرائع السماوية "[٢] .

من هنا يجب أن نؤكد على : " أن كثيرًا من البلاد الإسلامية في العصر الحديث يسود فيها الحكم بغير ما أنزل الله وقد أدى ضعف المسلمين وتمزقهم إلى فقدهم الثقة بأنفسهم فأثر فيهم الغزو الفكري الذي وجهه إليهم أعدائهم وجعلهم يقلدون هؤلاء الأعداء بدون وعي ويقتبسون قوانينهم الوضعية ويطبقونها في بلادهم " [٣] .

وتبدأ هذه الخطوة بالحديث عن ضرورة الاجتهاد المستنير لتحقيق روح الإسلام وجوهر الإسلام وتحدي المصلحة التي هي المقصود الأول لكافي الأحكام الشرعية ولا تتحقق الاستنارة على وجهها إلا بترك هذه المصلحة في النصوص بحيث تكون المصلحة فوق النص وإن كان في القرآن .. إلى أن قال : فليبقى النص مقدسًا يتعبد الناس بتلاوته وتنتقل الحاكمية إلى المصلحة

---

(١) كتاب الصحوة الإسلامية . د/ فؤاد زكريا صـــ ٣٠ .

(٢) كتاب الوهم والحقيقة . د/ فؤاد زكريا صـــ ١٧٣ــ ١٧٤ .

(٣) كتاب الدعوة إلى الله على بصيرة صـــ ٤٨ .

كما تريدها الأهواء البشرية المتقلبة [(١)] . مما سبق يتبين لنا أن العلمانية لبست رداءين :

أحدهما : يتظاهر بالحياد تجاه الدين : في عقائده وعباداته المحضة وحصر الدين في دائرة تخصصه وتظاهروا بعدم إلغاء الدين إلغاء كلي ، ويزعم لابسوا هذا الرداء : إن تعاليم الدين في شئون الحياة غير صالحة لأنها غير علمية ولا عقلية : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ [(٢)] .

ثانيهما : يعلن الحرب على الدين كله ويسعى بكل حيلة لإلغائه إلغاء كليًا وجعل المادية ومفاهيم التطور الذي للكون والإلحاد بالله عز وجل والكفر بكل القيم الدينية هي المذهب السائد ويتخذ لابسوا هذا الرداء كل وسائل المكر والكيد والقهر والإكراه والتزييف الفكري للحقائق وفرض القوانين ومناهج السلوك وبرامج التعليم الموجه بغية تحقيق هذا الهدف .. فالعلمانية شعار يتستر بالعلم وبالتزام ما تثبته الحقائق العلمية ويوحي ضمنًا أو يعلن صراحة أن الدين يتناقض مع العلم ، وبهذا الزعم الباطل يضيقون دائرة اختصاص الدين تضيقًا شديدًا [(٣)] .

ثالثًا: نتائج الاتجاه العلماني

أن الذين تمذهبوا بالمذهب العلماني انطلقوا يبحثون في كل مجال من مجالات الحياة عما توصلوا إليه علمانيتهم من أفكار ومناهج ونظم لاتخاذها مذاهب لهم ..

---

(١) نقلاً عن كتاب العلمانية د/ صلاح الصاوي صـ ٣٣ .

(٢) سورة الكهف الآية (٥) .

(٣) كواشف وزيوف.دعبدالرحمن حبنكة صـ ١٦٤ : ١٦٥ " بتصرف باختصار " .

فكان من إفرازات العلمانية : المذاهب الاقتصادية المختلفة المعاصرة من رأسمالية إلى اشتراكية مختلفة إلى شيوعية على اختلافها أو تناقضها كلها من منتجات العلمانية مع العقلانية وأن المذاهب السياسية المعاصرة من ديموقراطية إلى دكتاتورية على اختلافها أو تناقضها هي من نتاج العلمانية مع العقلانية وكذلك المذاهب الأخلاقية المتخالفة والمتناقضة أحيانًا من نتاج الاتجاه العلماني أو العقلاني وهكذا سائر المذاهب الاجتماعية المختلفة والمتناقضة أحيانًا والآراء والأفكار والمذاهب المختلفة وعلم النفس وفي سائر العلوم . وطبقت العلمانية في التعليم ومناهجه فأبعد الدين عنه . وطبقت في السياسة والحكم فعزل الدين عنها . وطبقت في الاقتصاد ونظم الأموال فعزل الدين عن هذا المجال . وطبقت في القوانين المدنية فوضع العلمانيون قوانينهم . وطبقت في الفنون فانطلق هواة الفن ينتجون إنتاجهم المختلف مستهينين بالدين وبفضائل الأخلاق وبفضائل السلوك [1] .

وسقط العلمانيون العقلانيون في مذاهب متخالفة ومتناقضة أحيانًا ولم يقدموا للإنسانية مناهج سليمة تحل مشكلات الحياة البشرية على مستوى الفرد والجماعة وكل ذلك بإهمالهم لدين الله وهو الإسلام الذي ختم الله به جميع الرسالات للناس جميعًا [2] . وركزوا كل في صرف الناس عن الدين إلى الإلحاد .

رابعًا: موقف الإسلام من العلمانية :

أما موقف الإسلام من العلمانية فهو موقف الضد لأنه :

أولاً : يوم أن شدد في دعوته على التوحيد ومقاومة (الشرك) في العبادة قصد إلى رفع الازدواجية والثنائية في تحديد مصير الإنسان وفي

---

(١) الغزو الفكري صـ ٣٧٦ .

(٢) المصدر نفسه صـ ١٦٦ : ١٦٨ " بتصرف واختصار " .

توجيهه وعلى المساواة فيما بينهم وبين الناس فليس بينهم معصوم سوى رسول الله (ﷺ) في تبليغ ما أمر بتبليغه إلى الناس والجميع بعد ذلك سواء في جواز الخطأ والصواب في تفكيرهم وسلوكهم وتصرفاتهم [١].

ثانيًا: يوم أن وجه الإسلام دعوته إلى أهل الكتاب بقوله :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [٢]. فطلب إليهم الاتفاق على احتفاظ الإنسان بسيادته وكرامته وذلك بألا يعبد الإنسان سوى الله وحده فلا يعبد شيئًا من أجزاء الطبيعة فلا يعبد إنسانًا فرداً أو ممثلاً لجماعة كمجتمع أو دولة أو حزب ، فيوم أن ناداهم على الاتفاق على هذا المبدأ لم يكن مستأثرًا وحده بالسلطة كما لم يكن مهينًا للبشرية ولا مستذلاً للإنسان .

هي دعوة عدم الشرك بالله وعدم تأليه الطبيعة أو أحد أجزائها وأن عدم خضوع الإنسان للإنسان الشخصي أو المعنوي – في تواضع العابد ومذلته هي دعوة لإبعاد الإنسان عن مصدر المذلة وللاحتفاظ بالمساواة في الاعتبار البشري وإذا عبد الإنسان الله عز وجل وحده فإنما يتقرب بعبادته إياه إلى محاكاة قيم عليا تصور صفاته جل شأنه وهي صفات الكمال في العلم والخلق والقدرة والحياة والتدبير والإرادة والغنى بالذات .. إلى أخر صفاته التي يتحدث بها القرآن الكريم ومن شأن محاكاة مثل هذه القيم العليا بذات الإنسان العابد لله سبحانه وحده تأكيد سموه الإنساني واعتباره البشري [٣].

---

(١) انظر العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق د/ محمد البهي صــ ٤٧ .

(٢) سورة آل عمران الآية (٥٤) .

(٣) انظر : العلمانية والإسلامية بين الفكر والتطبيق صــ ٥٣ .

وتفيد الدعوة إلى أهل الكتاب في دلالتها ليكونوا على قدم المساواة مع المسلمين في المحافظة على البشرية من الإهانة والمذلة وفي ممارسة حق الاعتبار الإنساني في غير خشية ولا خوف ، لم يكن الإسلام إذا ذا نزعة انفرادية في تولي سلطة ولا ذا نيل متطرف للقضاء على معارضة المعارضين وبذلك يقضي القرآن في دعوته على نزعة الاستئثار بالسلطة بفريق من الناس دون الفريق الأخر وهي تلك النزعة التي كانت الدافع للعلمانية في مرحلتها الثانية وهي مرحلة اليسار المتطرف [١] .

إن ختم الرسالات السماوية برسالة الإسلام فيه فائدة عظمى للإنسان فحين يعتقد انتهاءها بدين الإسلام فإنه يشعر بمدى استقلاله ويحول بينه وبين أن يترقب إملاء أخر أو نبي أخر لاحق وهو إذ يمارس الآن هذا الاستقلال في التفكير فإنه لا يكون مرتبطًا إلا بتلك المبادئ الموضعية والعامة وهي التي تحدد نظام الحياة للإنسان في جوانبها المتعددة السياسة والاقتصادية والاجتماعية والمالية والأسرية والتوجيهية .

هذه هى الاتجاهات التى تروح للإلحاد فى العالم الإسلامى، وهى على تعددها نجد أنها متحدة الهدف والغاية ويمكن وضعها على النحو التالى :-

أ- نوع يغلب عليه الطابع الفكرى وهو الشيوعية والتبشير والاستشراق والاستغراب.

ب- نوع يغلب عليه الطابع المادى وهو الاستعمار [٢].

---

(١) المصدر السابق صـ٥٤

(٢) انظر: الفكر الإسلامى فى مواجهة التيارات د. يحيى هاشم صـ ٢٨ ، ط ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

الفصل الخامس : الوضعية أو الواقعية

تعريفهـــا :

كلمة وضعية تستعمل استعمالات كثيرة ومختلفة، فهي تطلق ويراد بها المعاني التي هي من وضع الإنسان، أو من وضع الآلة ، كما تطلق ويراد بها الحسي أو التجريبي [١].

وقد جاءت كلمة وضع في اللغة : بمعنى جعل اللفظ بإزاء المعنى.

أما في اصطلاح الحكماء : فهي هيئة عارضة للشيء بسبب نسبتين. نسبة أجزاء بعضها إلى بعض ، ونسبة أجزائه إلى الأمور الخارجية عنه كالقيام والقعود بأن كلاً منهما هيئة عارضة للشخص بسبب نسبة أعضائه بعضها إلى بعض، وإلى الأمور الخارجية عنه[٢].

والوضع قد يكون طبيعياً، وذلك كتركيب أجزاء الجسم على النحو الذي يوجد عليه في الطبيعة ، وقد يكون غير طبيعي، وذلك كتركيب أجزاء الشيء مصادفة واتفاقاً [٣] والوضعية المقصودة هنا تلك الحركة التي حملها " أوجست كونت" وقرر من خلالها أن الفكر الإنساني لا يدرك سوى الظواهر الواقعة المحسوسة، وما بينها من علاقات أو قوانين، وأن المثل الأعلى لليقين يتحقق في العلوم التجريبية ؛ ولهذا يجب العدول عن كل بحث في العلل والغايات [٤].

---

(١) انظر: المعجم الفلسفي د. عبد المنعم الحفني صـ ٢٨١ ط الدار الشرقية ط١.

(٢) انظر: التعريفات. للجرجاني صـ ٣٢٦ - ٣٢٧.

(٣) انظر: المعجم الفلسفي د. جميل صليبا جـ٢ صـ ٥٧٦ . دار الكتاب اللبناني ط١ بيروت سنة ١٩٧٣م.

(٤) انظر: المعجم الفلسفي. مراد وهبة صـ ٤٧٢ - ٤٧٣. دار الثقافة الجديدة ط٣ ١٩٧٣م المعجم الفلسفي يوسف كرم، مراد وهبة، يوسف سلامة صـ ١٨٧ - ١٨٨. مطابع كوستا توماس ، انظر : الفلسفة الوضعية المنطقية. د. أحلام الصياد . بحث ضمن حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية بالمنصور العدد ١٠ جـ٢ صـ ٩٣١ دار الحكمة للطباعة بالمنصورة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

فهي وضعية لقصرها المعرفة على الواقع المحسوس فالفكر الإنساني لا يدرك سواه.

الظروف المحيطة بنشأة الوضعية :

الوضعية أو الواقعية هي الفلسفة التي وضع قواعدها الأولى "كونت" وقد أقامها نتيجة شعوره بنجاح العلم الطبيعي، وقدرته على تحقيق السعادة والتقدم للإنسان من هنا كانت نظريته التي دعا إليها.

"فقد شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر اضطرابات اجتماعية وتقلبات فكرية متنوعة، فقد سقطت أنظمة وأوضاع دامت قروناً متطاولة، وانهارت قواعد ومبادئ كانت تسد حاجات المجتمع ، وتلبي رغباته في مجالات كثيرة، ولم يعقب هدم الماضي الذي أوغل فيه عصر التنوير بناء جديد للحاضر والمستقبل ، وظهر للكثير من المفكرين حقيقة أن الهدم قد يتم بوسائل وأفكار خاطئة تماماً إلى درجة أنها لا تستطيع أن تبنى شيئاً جديداً ، وكان الانحياز الوحيد الذي استقطب الأذهان وبهر الأنظار هو التقدم العلمي في مجالات البحوث الطبيعية" [١].

وهنا تساءل كثير من رواد الفكر أليس في إمكان العقل الوصول إلى أعلى درجات النجاح ؟ خصوصاً بعد أن فك قيوده، وتخلص من سلطان الكنيسة، وطغيان القساوسة الذي لازمه أمداً طويلاً. وهنا ظهرت الفلسفة الوضعية في ظل الظروف الآتية :-

---

(١) العلمانية. سفر بن عبد الرحمن. صـ ٣٧٧.

١- الاضطراب الذي كان يعيش فيه المجتمع الفرنسي :

فلقد أحدثت الثورة الفرنسية خراباً مادياً، واضطراباً معنوياً ، وقلقاً اجتماعياً لديهم، ولما فتشوا عن سر هذا كله فوجدوا أن " أهم أسباب ما هم فيه انما يرجع إلى الاضطراب المعنوي أو فساد العقيدة في القيم العليا، فعمل كل منهم بطريقته الخاصة على إعادة الإيمان بهذه القيم " (١).

وقد أخذ المفكرون على عاتقهم إصلاح المجتمع وإعادته إلى الإيمان بقيمة مرة أخرى لما لهذه المسألة من أهمية سواء أكان في الناحية العملية أم في الناحية النظرية ، ومع اتفاق المفكرين على ضرورة إصلاح المجتمع ؛ إلا أنهم اختلفوا في نقطة البداية ، وقد تفرقت بهم السبل إلى اتجاهات ثلاثة :-

أ- الاتجاه الروحي : وهو اتجاه يرفض المادية ويعارضها.

ب- الاتجاه الفلسفي : وهو اتجاه يعارض الفردية ، وينكر أن يكون للإنسان كيان قائم بنفسه ، ويدعو إلى الاعتماد على عصمة البابا حتى يتخلص من المجتمع وشروره وآثامه.

جـ- الاتجاه الواقعي : وهو اتجاه يرى أن صلاح المجتمع لا يتأتى إلا عن طريق العلم الوضعي ، فهو الذي يكفل السعادة للمجتمع، كما يوفر له وسائل التقدم والتنظيم والتعمير (٢).

والاتجاه الأخير هو الاتجاه الذي أخذ به "كونت" بل وحمل لواءه وعمل على نشره وتطبيقه، نتيجة لتشعبه بفكرتين هما:

---

(١) الفلسفة الحديثة عرض ونقد. د. أحمد رمضان صـ ٤٤٨.

(٢) انظر:تاريخ الفلسفة الحديثة:يوسف كرم صـ ٣٠٩ - ٣١٤،الفكر المادي الحديث د. محمود عثمان صـ ٧٩-٨٠.

" الأولى : أن الآراء والعقائد التي تمس العالم والمجتمع الإنساني في حالة فوضى ، الثانية : أن الحالة الطبيعية والعادية هي تنظيم هذه الآراء تنظيماً عقلياً " (١) .

وللقضاء على هذه الفوضى وإيجاد أسلوب للتفكير المنظم نراه يقدم لنا حلولاً ثلاثة وهما:-

أ- التوفيق بين التفكير الميتافيزيقي والتفكير الوضعي.

ب- جعل المنهج الميتافيزيقي منهجاً عاماً تخضع له جميع العلوم والعقول.

جـ- تعميم المنهج الوضعي على كل الظواهر في الكون ، وبذلك تحقق مبدأ وحدة المعرفة الوضعية، وبالتالي نصل بالمجتمع إلى ما ينبغي أن يكون عليه (٢).

٢- الصراع بين الكنيسة والعلم :

من بين الظروف التي أحاطت بنشأة الفلسفة الوضعية ما كان موجوداً بين الكنيسة والعلم من صراع شديد، وعداء مستحكم . فعلى الرغم من أن لكل من العلم والدين منهجه وموضوعه الخاص إلا أن هذا يمنع حدوث تصادم بين الكنيسة والعلماء فقد "تميز القرن التاسع عشر بأنه عصر " الوضعية " ، والوضعية نظرية فلسفية نشأت في دائرة المعرفة، وقامت في جو معين، وعلى أساس خاص ؛ أما جوها المعين فهو أولاً وبالذات سيطرة الرغبة على بعض العلماء ، والفلاسفة في معارضة الكنيسة، والكنيسة تملك نوعاً خاصاً من المعرفة ، وكانت تستغله في خصومة المعارضين فترة من

---

(١) انظر: الفلسفة الحديثة عرض ونقد د. أحمد رمضان صـ ٤٨٩.

(٢) انظر: نفس المصدر صـ ٤٨٩ - ٤٩٠.

الزمن، وهذا النوع الخاص من المعرفة الكنيسة هو المعرفة المسيحية " الكاثوليكية " بوجه خاص (١).

هذه هي الظروف التي أحاطت بنشأة الواقعية، وتتمثل في محاولة إعادة المجتمع إلى الإيمان بقيمه العليا؛ إلى جانب العداوة التي وجدت بين الكنيسة والعلم .

المذهب الوضعي :

أوجست كونت صاحب الفلسفة الواقعية، ولكن فكرة تكون بجانب الكونت " دى سان سيمون " (٢) وتأثر من غير شك " بشارل فوربى " (٣) وهما مصلحان اجتماعيان ... والأول أول من قال "فلسفة واقعية" وسياسية واقعية بل إن كثيراً من الآراء التي قال بها "كونت" نلمحها عند سان سيمون الذي أخذها هو الآخر عن طبيب مغمور معاصر له يسمى " يوردان " (٤) وسوف أعرض للمذهب من خلال فكر "أوجست كونت" وذلك لعدة أسباب :-

١-ارتباط المذهب باسمه حتى صار يعرف باسم وضعية كونت.

٢-كونه الأب الروحي له فقد عمل على تقعيد قواعده ووضع المنهج العام له.

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي د. محمد البهي صـ ٢٦. نشر مكتبة وهبة ط١٢ ١٤١١ هـ - ١٩٩١م.

(٢) سان سيمون ولد عام ١٧٦٠، وتوفى عام ١٨٢٥ كان مغامراً فى الحياة وفى الفكر وقام بمشروعات صناعية كبيرة : (انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم صـ ٣١٤ – ٣١٥).

(٣) شارل فوربي: أحد آباء الشيوعية الحديثة ولد عام ١٧٧٢ وتوفى عام ١٨٣٧ (انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة .يوسف كرم صـ ٣١٥).

(٤) انظر:الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر صـ ٩٤، تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم صـ ٣١٤ – ٣١٥.

٣-وضوح الفكرة عنده.

٤-قيامه بمحاولات عديدة في نواحٍ مختلفة لخدمة هذا المذهب فقام بتصنيف العلوم ، وحاول أن يضع تصوراً جديداً للأخلاق، كما قدم مذهباً جديداً عرف بالمذهب الإنساني الذي تطور فيما بعد إلى ديانة الإنسانية.

٥-أن هذا المذهب كان له تأثيره على بعض الشعوب التي أخذته ووجهته وجهة دينية فلقد أخذ به الأمريكان، وضعوه في نسق ديانة الإنسانية.

وفيما يلي عرض لهذا المذهب بشيء من التفصيل :-

أ- المعرفة :

الفلسفة الوضعية أقام دعائمها الأولى "كونت" على أساس من التجربة ، فالمعرفة المعتبرة عنده هي التي تتسم بالطابع اليقيني، فالوضعية تقوم على التجربة ، وتنكر أي معارف أولية، وقد رأي " كونت " أن العقل الإنساني يمر بمراحل ثلاث :-

١- المرحلة اللاهوتية   ٢- المرحلة الميتافيزيقية   ٣- المرحلة الواقعية .

[١] المرحلة الأولى :

وهى مرحلة الطفولة فهي أولى مراحل تطور الفكر البشرى ، وفيها أرجع الإنسان وجوده إلى موجودات غير منظورة في عالم علوي سواء تمثلت في إله واحد أو آلهة متعددة [1] .

وهذه المرحلة مرت هي الأخرى بمراحل ثلاث:-

(أ) المرحلة الفيتشية ، وتعنى إضافة حياة روحية للكائنات الطبيعية.

---

(١) انظر : مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي. د. عبد الرحمن بن زيد الزبيدي صـ ٤٥٩ مكتبة المؤيد المملكة العربية السعودية ط١ ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(ب) تعدد الآلهة ، وفيها تتصور الآلهة على أنها قوى غير منظورة.

(جـ)التوحيد وفيها يحدث الجمع بين القوى في صورة إله واحد مفارق للأشياء [(١)].

[٢] المرحلة الثانية:

أعنى بها المرحلة الميتافيزيقية وهى تلك المرحلة التي يحاول العقل فيها "استكناه صميم الأشياء وأصلها، ومصيرها ولكنه يستبدل بالعلل المفارقة عللاً ذاتية يتوهمها في باطن الأشياء، وما هي إلا معان مجردة جسمها له الخيال" [(٢)] وقد مرت هذه المرحلة هي الأخرى بمراحل ثلاث:-

أ - فيقابل الفيتشية اعتقاد الميتافيزيقا بوجود علل في باطن الأشياء.

ب - وفى حالة تعدد الآلهة يقابله هنا تقسيم الظواهر إلى طوائف وتخصص.

جـ- وفى حالة التوحيد يقابلها هنا القول بقوة واحدة، وإرجاع الكل إليها [(٣)].

[٣] المرحلة الثالثة:

وهى المرحلة الأخيرة وأعنى بها الواقعية، والتي يقصد من خلالها دراسة الواقع المحسوس ففيها "يدرك العقل امتناع الحصول على معارف مطلقة فيقصر همه على تعرف الظواهر، واستكشاف قوانينها وترتيب القوانين من الخاص إلى العام ، فتحل هنا الملاحظة محل الخيال، والاستدلال ،

---

(١) انظر : الفكر المادي الحديث د. محمود عثمان صـ ٨٤، الفلسفة الحديثة د. أحمد رمضان صـ ٤٩٤.

(٢) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة د. راجح عبد الحميد الكردي صـ ٣٠. مكتبة المؤيد ط١ ١٢ : ١ - ١٩٩٢م.

(٣) انظر:جهود المفكرين في العالم الإسلامي د.محمود عثمان صـ ٨٢-٨٣،الفلسفة الحديثة د. أحمد رمضان صـ ٤٩٥

ويستعاض عن العلل بالقوانين أي العلاقات المطردة بين الظواهر فتكون موضوع العلم الإجابة عن سؤال "كيف" لا عن سؤال "لم" [١].

هذه هي المراحل الثلاث التي مر بها العقل البشرى في نظر "كونت" وهى "سبب الاضطراب العقلي الذي تعانيه الإنسانية" [٢].

ولهذا عمل "كونت" من أجل القضاء على هذه الاضطرابات العمل على إحلال العلم الوضعي محل الميتافيزيقا "ففي حالة الوضعية قد تنازل العقل عن البحث بلا جدوى عن الأفكار المعلقة عن أصل الكون ومصيره، وعلل الظواهر، وأصبح يختص بدراسة قوانينها ، يعنى علاقاتها الثابتة للتعاقب والتشابه" [٣].

وعلى هذا تكون الوضعية التي دعا إليها "كونت" هي البحث عن قوانين وعلاقات تشاهد في الظواهر الطبيعية.

أوجه الاتفاق والاختلاف بين هذا المراحل :

١- من حيث الموضوع :

تتفق كل من المرحلة اللاهوتية، والمرحلة الميتافيزيقية من حيث الموضوع . فكلاهما يبحث عن أصل الأشياء وحقائقها ومصيرها. على خلاف الوضعية التي حصرت موضوعها في البحث عن العلاقة بين الظواهر والأشياء.

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم صـ ٣١٨ – ٣١٩ ، انظر : المعرفة د. محمد فتحي الشنيطي صـ ٦٩. دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٨١م.

(٢) لإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة د. يحيى هاشم صـ ٩.

(٣) الفكر الأوربي الحديث. الاتصال والتغير في الأفكار من ١٦٠٠ – ١٩٥٠ جـ٣ القرن ١٩ فرانكلين .ل. باومر صـ ٥٧ ترجمة د. أحمد حمدي محمود الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩ سلسلة الألف كتاب رقم ٦١

٢- من حيث المنهج :

للاهوتية منهج تعتمد عليه وهو المنهج الخيالي ، بينما تعتمد الميتافيزيقيا على المنهج الاستدلالي ، وتلعب الملاحظة فيهما دوراً ثانوياً ؛ بينما الوضعية تعد الملاحظة هي المنهج الوحيد للوصول إلى المعرفة اليقينية[١].

٣- من حيث التفسير :

المرحلة اللاهوتية تقوم بتفسير الأشياء عن طريق " تدخل إرادات اعتباطية ؛ لأنها افتراض تلقائي " [٢].

بينما تفسر الأشياء في المرحلة الميتافيزيقية بردها إلى قوى غيبية ، بخلاف المرحلة الوضعية فهي " في غنى عن التفسيرات " [٣] فهي تبحث عن الظواهر المحسوسة ، وما بينها من علاقات وقوانين ، وهكذا يكون المذهب الواقعي قصر المعرفة اليقينية على المعرفة التي تأتى من خلال الملاحظة، والتجربة ، وبهذا يكون قد قضى على الميتافيزيقا، وعمل على إحلال الوضعية بدلاً منها.

ب- تصنيف العلوم :

تصنيف " كونت " للعلوم في القرن التاسع عشر هو أهم تصنيف ، حاول من خلاله أن يرتب العلوم وذلك تبعاً لبساطتها، وقد ذكر ستة علوم أساسية رتبها على النحو التالي :-

---

(١) انظر:الفكر المادي الحديث د. محمود عثمان صـ ٨٤-٨٥ ، الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر صـ ٩٨، ٩٩.

(٢) الفلسفة الحديثة عرض ونقد د. أحمد رمضان صـ ٤٩٨.

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم صـ ٣٢٠.

الرياضة ، والفلك ، فالطبيعة ، فالكيمياء ، فعلم النبات ، فعلم الاجتماع، وكل واحد من هذه العلوم يرتكز على نتائج العلوم التي قبله وإذن فعلم الاجتماع هو من العلوم كلها ذروتها العالية ، ولا يبرر وجود علم من العلوم الأخرى إلا بمقدار ما يمدنا به من شرح وتوضيح لعلم الاجتماع ، وهكذا يرى " كونت " أن العلم بمعنى المعرفة اليقينية يسير على الترتيب السابق من موضوع إلى موضوع ، ومن الطبيعي أن تكون ظاهرة الحياة الاجتماعية المعقدة أخر ما يخضع للطرق العلمية " (١).

وعلى الرغم من أن تصنيفه يعد أهم تصنيف للعلوم؛ إلا أنه يلاحظ عليه إغفاله لكثير من العلوم وفى مقدمتها علم النفس، والعلوم التطبيقية ، وكذا الفنون ، وركز اهتمامه على الاجتماع، والمتأمل في فلسفته يستطيع أن يقف على حقيقة هذا الأمر دون كبير عناء فهو عنده بمثابة حجر الزاوية ، وينظر إليه على أنه " اللحظة الحاسمة في فلسفة "كونت" فكل فكرة لديه تستمد من هذا العلم ، وكل فكرة تؤول إليه ، وكما أن جميع المسالك في المذهب الأفلاطوني توصل إلى نظرية المثل، كذلك تستطيع أن تلمح علم الاجتماع دائماً من خلال طرقات المذهب الوضعي، فما أشبهه بالمركز الوحيد الذي تتلاقى عنده فلسفة العلوم، ونظرية المعرفة، وفلسفة التاريخ وعلم النفس، والأخلاق والسياسة والدين ، وبالإجمال تتحقق وحدة هذا المذهب في هذا المركز ، وهذه الوحدة هي أصدق دليل في نظر "كونت" على صحة ذلك المذهب " (٢).

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة. زكى نجيب، أحمد أمين. صــ ٣٠٤. الناشر مكتبة النهضة المصرية.

(٢) فلسفة أوجست كونت ليفى . بريل صــ ٣٣٨ ترجمة د. محمود قاسم، والسيد محمد بدوى نشر. مكتبة الأنجلو المصرية

واللافت للنظر في مذهب كونت هو إغفاله لعلم النفس ، وجعله من علم الفلك علماً أساسياً الأمر الذي عرضه للنقد يقول "يوسف كرم" ونلاحظ على هذا التصنيف أربع ملاحظات الأولى أنه يبدأ بالكم. الثانية جعله من علم الفلك علماً أساسياً. الثالثة. إهماله لعلم النفس الرابعة. إنكاره أصالة الظواهر النفسية [١].

إلا أن رفض كونت إدخال علم ضمن العلوم الوضعية وذلك انسياقاً مع المذهب الواقعي "الذي لا يعترف بالنفس ، فلذلك قسم أفعال الإنسان إلى أفعال عضوية أو حيوية. جعلها جزءاً من علم الحياة ، وأفعال فكرية جعلها جزء من علم الاجتماع" [٢] .

وقصارى القول حول تصنيف "كونت" للعلوم هو ما عبر عنه بعض الباحثين بقوله : إن كونت جعل من تصنيفه للعلوم وسيلة لفرض فلسفته الوضعية ، وتكملة لقانون الحالات الثلاث، وهو بهذا التصنيف أخرج الفلسفة نهائياً من الإطار النظري إلى الإطار العملي ، وذلك تقديراً منه للمنهج الوضعي، فقد أشار إلى أن هذا المنهج يستهدف دراسة الظواهر لا الأشياء ذاتها؛ ثم أقام دراسة الظواهر على المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتجربة [٣].

جـ- الأخلاق:

من المعلوم أن الفلسفة الوضعية رفضت كل تفكير ميتافيزيقي ، فقد استبعدت كل بحث عن العلل والغايات ، واقتصرت على الواقع المحسوس ،

---

(١) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم صـ ٣٢١ – ٣٢٢.

(٢) الفلسفة العامة ومباحثها د. محمد على أبو ريان صـ ١٢٨. ط دار المعرفة الجامعية ط٤ ١٩٧٩م.

(٣) انظر: الفلسفة العامة ومباحثها وأصولها. د. محمد أبو ريان ١٢٩ – ١٣٠.

وقد تبنت هذا الموقف في سائر اتجاهاتها ، وحاولت تطبيقه على الأخلاق ، فقد رأت أن الأخلاق شأنها شأن سائر العلوم الأخرى قد مرت بالمراحل الثلاث اللاهوتية ، والميتافيزيقية ، والواقعية والمرحلة الأخيرة هي التي تنشأ عنها الأخلاق الوضعية، تلك الأخلاق التي ردها أصحابها إلى قوى خارجة عنها، فهم يرفضون أن تؤسس الأخلاق على الذات الفردية من جهة ، وعلى المجهول والمطلق من جهة أخرى ، ولما كان هدف هذه الفلسفة هو إصلاح المجتمع من الفساد المادي ، والاضطراب المعنوي الذي سيطر عليه لجأت إلى الأخلاق فالمجتمع لا يستقيم بغيرها.

"ولكن " كونت " كان يضيق بمذاهب سابقيه من الأخلاقيين، ولا يرضيه اتجاه الديانة المسيحية بالوضع الذي بدا في عصره "[١] فالأخلاق المسيحية " خير ما فيها في نظرة أنها أقرت الإيثار حين طالبت معتنقيها بأن يحب غيره كما يحب نفسه ، وحثه على أن يحسن إلى المحتاج ويمد يد العون إلى الضعيف، ونفرته من الأثرة التي اعتبرتها أم الرذائل، ولكن "كونت" مع هذا قد أخذ عليها أنها جمدت والعالم يجرى في رحاب العلم ، إذ ارتبطت بالكاثوليكية التي تعثرت في مسايرة التقدم العلمي، ومتابعة ما يقتضيه مناهج البحث العلمي ، ثم ما لبثت أن جمدت وتصدت دفاعاً عن وجودها لمقاومة التقدم وعرقلة سيره ، ومن هنا نشأ النزاع الذي أتى على الأخلاق المسيحية فراحت هذه ضحية الكاثوليكية وجمودها" [٢].

---

(١) فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها د. توفيق الطويل صـ ٢٦٩ دار الثقافة للنشر والتوزيع ط٥ ١٩٨٥م.
(٢) نفس المصدر صـ ٢٧٠.

لهذا رفض " كونت " اعتبار المسيحية أساساً لمذهبه الأخلاقي . وعمل على إقامتها بناء على أسس مذهبه الخاصة به. فنراه يرفض الميتافيزيقا بكل ما يتصل بها، وانتهى "كونت" إلى إقامة علم أخلاقي وضعي غرضه إسعاد الإنسانية. وشعاره البعد عن التفكير الميتافيزيقي والنزوع إلى الحياة الاجتماعية.

"وقد عالج "كونت" الأخلاق في الفصل الأخير من علم الاجتماع منطلقاً من قانون التقدم العاطفي ، وهو أحد قوانين علم الاجتماع المتحرك وفحوى هذا القانون أن الفرد ينتقل من شئ من الغيرية ، ولا تزال الغيرية تتقدم حتى تسود سيادة تامة . فمراحل نمو الغيرية عبارة عن اتحاد الأفراد في الأسرة، واتحاد الأسرة لأجل الحرب ، وتعاون الجميع لازدهار الصناعة" [١].

فالأخلاق عنده تعني الشعور بالآخرين، وعدم الاهتمام بالمصلحة الشخصية وبهذا تكون الخاصة الخلقية عنده تتكون من عواطف تلقائية تتحول إلى حالات وجدانية عائلية واجتماعية، وبذلك تكون الأخلاق عنده غريزة طبقاً لجذورها الحيوانية، وتصبح عقلية في تطورها الإنساني [٢] ويمكن إجمال خصائص فلسفته الأخلاقية فيما يلي :-

---

(١) الفكر المادي د. محمود عثمان صـ ٩٥.

(٢) انظر: الأخلاق بين الفلاسفة وحكماء الإسلام د. محمد مصطفى حلمي . صـ٧٤ دار الدعوة للطبع والنشر ط١٤١٤٢هـ-١٩٩٣م.

١- أنها أخلاق وضعية :

فقد جعل " كونت " من العلم الوضعي أساساً لها ، ولهذا فهي تحقق صفاته الجوهرية وذلك لأمرين :-

أ- أنها فلسفة حقيقية فهي لا تقوم على الخيال بل على الملاحظة.

ب-نظرتها للإنسان فهي لا تنظر إليه على النحو الذي يتخيل وجوده عليه، بل على النحو الكائن بالفعل(١).

٢- أنها فلسفة تجريبية:

فهي فلسفة لا تعتمد التجارب السابقة التي قدمتها البشرية، ولكن تعتمد على الأدلة التي برهنت بها الإنسانية على وجود ميولها وبواعثها المألوفة التي حفزتها إلى العلم في خلال القرون التي قص علينا التاريخ أخبارها (٢).

٣- أنها أخلاق نسبية:

أعنى أنها ليست ثابتة فالظاهرة الخلقية تخضع لعوامل عديدة ومختلفة ، فهي ليست مطلقة وهذا أمر تقتضيه طبيعة المعرفة فنسبية المعرفة "تؤدى إلى نتيجة مباشرة وضرورية وهى نسبية الأخلاق" (٣).

هذه هي خصائص الأخلاق الوضعية، يتضح من خلالها مكانة العلم الوضعي ، وأهمية المنهج العلمي الذي يدعون إليه ويطبقونه على كل شيء زعماً منهم أنه هو السبيل لتحقيق السعادة للفرد والمجتمع .

---

(١) انظر: فلسفة أوجست كونت . ليفى بريل صـــ ٣٠١.

(٢) انظر: نفس المصدر صـــ ٣٠١

(٣) نفس المصدر صـــ ٣٠١.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل كتب لعلم الأخلاق الوضعي أن يحقق ما يريد ؟ الواقع أن علم الأخلاق الوضعي لم يستطع أن يحقق أي نجاح فالمحاولات التي أقيمت لهذا الغرض لم يكتب لها النجاح.

يقول بعض الباحثين : إن المحاولات التي بذلت لإقامة علم أخلاقي وضعي لم تنجح، وإذا أردنا أن نسير في الطريق السليم ينبغي أن نقلب المشكلة ونحاول أن نصل إلى أخلاق [١] علمية [٢].

[د] الدين الوضعي:

من المعلوم أن "كونت" أقام فلسفته محاولاً من خلالها أن يجعل من العلوم العقلية علوماً وضعية، والدين من العلوم العقلية لهذا حول أن يجعل منه ديناً وضعياً.

والمقصود بهذا الدين أن ديناً ملائماً للواقع فلا صلة له باللاهوت، ولا علاقة له بالميتافيزيقا ، وهو بذلك يحاول أن يشق لنفسه طريقاً لوضع أسس ديانة جديدة وهى "ديانة الإنسانية" التي قامت على يديه نتيجة لوجود بعض المفكرين عبروا عن سخطهم على الدين الموجود في ذلك الوقت.

ويمكن القول إن "كونت" "حدد في الجزء الأخير من حياته صفات ما أطلق عليه منذ ذلك الحين اسم الكائن الأعظم" [٣] أعنى دين الإنسانية واهتم

---

(١)انظر: الفكر المادي الحديث د. محمود عثمان صـ ٩٧.

(٢) انظر: تفصيل هذا في كتاب دفاع عن العلم. البيربابيه مقدمة المترجم الترجمة العربية صـ ٢٤-٣١ تعريب د. عثمان أمين . دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م.

(٣) فلسفة أوجست كونت . ليفى بريل صـ ٣٣١.

بما وأقف جزءاً كبيراً من اهتماماته عليها فهي في نظره سبيل الخلاصة من الاضطراب المعنوي، والخراب المادي .

فهي " تتألف من كل ما أحس به الناس ، وفكروا فيه وقدموه من خير وفضل وباقيات صالحات، إنها الموجود الذي يسمو على المكان ، والذي يتركز فيه جهود الأفراد العابرة ، والمتقلبة بعد تطهيرها وتنظيمها، والذي تصبح معه هذه الجهود حياة خالدة وأثراً باقياً" (١).

فهذا الدين في نظر كونت هو الأسمى والأفضل وفى تصوره " أصبحت الإنسانية الجماعية هي الإله الجديد ، وسماه كونت الكائن الأسمى أو الكينونة الاسمي التي لم تكن على الإطلاق مماثلة للكينونة اللا مفهومة للمسيحية أو للطبيعة المؤلهة التي لا يسمح وجودها بأي برهان، أو حتى بالمقارنة بأي شيء آخر، ولم تكن الكينونة الأسمى شيئاً فوق الطبيعة أو شيئاً مطلقاً؛ فطبيعتها نسبية، وبهذه الصفة قابلة للنمو والسمو، ومع هذا يعتمد نموها على أفعال البشر التي حلت فيها المشاعر الاجتماعية محل عشق النفس ، ومن هنا فإن كنيسة "كونت" التي لم ينضم إليها أحد استبكرت أعياداً للقديسين لتكريم أناس كالفنانين ، والحكام ، والعلماء وما أشبه من أولئك الذين كرسوا حياقم طوال التاريخ ليس للعبادة فقط ؛ وإنما لكي يندمجوا في هذه الكينونة الهائلة . يعنى الإنسانية في أفضل أحوالها البعيدة عن الأنانية، وبذلك تتحقق السعادة ويتحقق التقدم على الأرض" (٢).

---

(١) العلم والدين : أميل بوتروا صـــ٥٠.

(٢) الفكر الأوربي الحديث جـــ٣ القرن ١٩ صـــ ٦٦.

وعلى هذا جعل كونت الإنسانية هي الإله الوحيد، وهو بهذا يجعل من الدين وضعاً بشرياً يفقد من خلاله هيبته ومكانته السامية التي أحيطت به لكونه موحى به من عند الله ؛ ففي هذه الديانة احتلت الإنسانية محل الله ، وجعلت الإنسان مساوياً لله بل هو الله لهذا لا عجب أن "يكون دين الإنسانية قد بدا لأي مسيحي أو حتى لمؤلهي الطبيعة كأنه لا دين على الإطلاق" [١].

[هـ] الكون:

لقد تبنت هذه الديانة نظرية خاصة بالكون ، فقد قسم "كونت" الكون كله تقسيماً خاصاً بهذه الديانة على النحو التالي :-

١- الفتيش الأعظم وهى الأرض.

٢- الفتيش الوسط الأعظم السماء والهواء.

٣- الفتيش الأعظم أو الموجود الأعظم وهو الإنسانية [٢].

فهذه الأمور الثلاثة تمثل الثالوث الواقعي، وقد يكون كونت قد فعل ذلك ليقابل الثالوث المسيحي أعنى الأب والابن والروح القدس.

[و] العبادة:

وضع كونت طقوس وعبادات خاصة بهذا المعبود الجديد، وجاءت على النحو التالي : ١- عبادات فردية ٢- عبادات مشتركة

---

(١) الفكر الأوربي الحديث جـ ٣ القرن ١٩ صـ ٦٦.

(٢) انظر: الفكر المادي الحديث د. محمود عثمان صـ١٠٤، المذهب الوضعي رؤية إسلامية. د.صفوت مبارك صـ ٢٨-٢٩ دار الطباعة المحمدية ط١ ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

أما الأولى : فنيها يقوم الفرد باتخاذ بعض الأشخاص كمثل عليا يحتذي بها لتوجيه أفكاره . أما الثانية فيشترك فيها جميع طوائف الشعب كنوع من التكريم لبعض الشخصيات المهمة التي قامت بجهود وفيرة لخدمة الإنسانية.

يقول بعض الباحثين : وفى العبادة الفردية يتخذ الأشخاص الأعزاء على الفرد نماذج المثل الأعلى ، أما المشتركة فيشترك فيها جميع الشعب وتكون على أعياد تذكرية تكريماً للمحسنين إلى الإنسانية ، وتطبيقاً لهذه العبادة المشتركة قام "كونت" باختراع تقويم شهري ويومي مرتبط بواقع الناس ، وفيه سمى الأيام والشهور بأسماء الرجال [١] الذين أسهموا بنصيب وافر في تقدم الإنسانية [٢].

[ز] المرأة :

اهتمت الفلسفة الوضعية بالمرأة اهتماماً واسع النطاق ، فقد نظرت إليها على أنها الرباط الذي يربط الفرد والمجتمع .

" فالنساء بمثابة أعضاء العاطفة ، ولهذا أوجب على الرجل أن يقدم لها طقوس العبادة التي هي عبارة عن ثلاث صلوات في اليوم أحدها في الصباح ، والثانية في الظهر ، والثالثة في المساء. مضمونها الشعر؛ لأنه هو الذي يأخذ بمجامع القلوب " [٣].

---

(١) لقد سمى كونت أسماء الأيام والشهور باسماء رجال من المفكرين وهم على النحو التالي : أرشميدس ، قيصر ، سان بول، شرلمان ، دانتى ، جوتنبرج ، شكسبير، موسى، هومير، أرسطو، ديكارت، فردريك الثانى، بيثات (انظر: أوجست كونت د. مصطفى الخشاب صـــ ١٤٤ مطبعة لجنة البيان العربي) .

(٢) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم صـــ ٣٢٨.

(٣) دراسات في المذاهب المعاصرة د. محمد شلبي صـــ ١٠٧.

[ح] نظام الطبقات:

لقد أقام كونت في هذه الديانة نظام الطبقات وجعل الناس فيه على مراتب مختلفة وقد رتبهم على النحو التالي :-

١-الفلاسفة فهم على قمة النوع الإنساني.

٢-النساء فهم بمثابة أعضاء العاطفة، ولهن واجب وهى إثارة عواطف الحنان والغيرية.

٣-رجال المال والصناعة ، فهم بمثابة أعضاء التغذية.

٤-العمال وهم أعضاء الحركة (١).

وكونت في عرضه لهذه الديانة ، وتقسيم الناس فيها إلى طبقات لم ينس أن يجعل "لديانته بابويه عامة مقرها باريس، وبابا للإنسانية كلها، وشعارات رنانة مثل نظام وتقدم العيش في سبيل الآخرين بل إنه يقترح حركة وضعية تحل محل شارة الصليب ، ويقترح شكلاً للنظام الوضعي ، والحكومة الوضعية، وأعمال الكهانة وطقوس العبادة والأسرة" (٢).

وبالجملة فقد كانت هذه الديانة هي أهم جزء في فلسفته ، ولاقت اهتماماً كبيراً من " كونت "، ولا نغالي إذا قلنا أنه أوقف حياته كلها من أجلها.

يقول بعض الباحثين : " إن آراء أوجست كونت العملية والعلمية ، تتجمع كلها، وتتلاقى في فكرة واحدة هي الإنسانية ، التي تعد مركز هذه

---

(١) انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم صـ ٣٢٨.

(٢) الفلسفة الحديثة عرض ونقد د. أحمد رمضان صـ ٥١٤.

الآراء جميعاً، فإذا كان هذا التجمع كاملاً فإن كونت قد أدى رسالته، وقد استطاع من قبل أن يعالج الفوضى العقلية والخلقية، وهو يعمل الآن على إزالة الفوضى السياسية، والدينية وبذلك تتحقق الوحدة في كل مجال" (١).

هذه هي ديانة الإنسانية التي صاغها "أوجست كونت" وقصد من خلالها القضاء على الديانة المسيحية، وطمس معالمها فهذه هي الغاية التي قامت من أجلها.

يقول بعض الباحثين : " **الغاية الأولى للمذهب الفلسفي الوضعي هو معارضة الكنيسة، وبالتالي معارضة معرفتها، ومن باب التغطية عارض هذا المذهب باسم العلم، الميتافيزيقا والمثالية العقلية بهذا العنوان، وإلا فإن المذهب الوضعي في الوقت الذي ينكر فيه دين الكنيسة يضع ديناً جديداً بدله، وهو دين الإنسانية الكبرى، ويقوم هذا الدين على عبادة وطقوس كما تقوم المسيحية، وله قداسة واحترام في نفوس التابعين على نحو ما للكثلكة" (٢).**

والخلاصة :

إن ديانة الإنسانية ديانة متناقضة، تتناقض بنفسها؛ ففي الوقت الذي رفضت فيه الميتافيزيقا نجدها قامت بوضع نظام للعبادة اشتمل على طقوس، وكهنة وغير ذلك، ثم هي قامت بتقسيم الناس إلى طبقات وهذا يتنافى مع الشعار الذي وضعه لها مؤسسها الأول وكاهنها الأعظم ، "أوجست كونت" وهو المحبة مبدأ والنظام والتقدم أساس.

---

(١) فلسفة أوجست كونت. ليفي بريل صـ ٣٣٥-٣٣٦.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار د. محمد البهي صـ ٢٦٦. مكتبة وهبة.

هذه هي ديانة الإنسانية التي ارتبطت باسم "أوجست كونت" ونسبت إليه إلا أنه ينبغي أن أشير إلى أمر مهم أن هذه الديانة قد برزت من قبل لدى "سان سيمون" ودليل ذلك قوله:

من المستحيل أن يختفي الدين من الدنيا، ولكن من الممكن تحويله من صورة إلى أخرى فهذه العبارة أجملت نظرته الشخصية للدين ، ونظرة التنوير الجديدة التي ينظر من خلالها نظرة قاسية على الدين السماوي ، ويفسر هذا المحاولات العديدة التي أعقبت ظهور كتاب المسيحية الجديدة "لسان سيمون" الذي صدر عام ١٨٢٥م وفيه ابتكار لدين جديد يجمع في الوقت نفسه بين المصداقية العلمية، وإشباع الرغبة السيكولوجية والنفع الاجتماعي ، وانبعث من هذا المناخ دين جديد للإنسانية يقترن عادة "بكونت" وإن كان في الواقع قد انتشر إلى ما وراء صفوف الوضعية حتى ضم جماعات مختلفة كالراديكالتين، وشباب الهيجلين وعدد من الأدباء [(١)].

أثر الواقعية على المجتمعات والحركات الفلسفية:

سبق وأن أشرت إلى أن الوضعية قد انتشرت، وأثرت على كثير من المجتمعات وكذا أصحاب الاتجاهات المختلفة ، فأثرت على الفلاسفة ، والحركات الفلسفية ، والأدباء، وامتد أثرها ليشمل بعض المجتمعات.

---

(١) انظر: الفكر الأوربي الحديث جـ ٣ القرن التاسع عشر صـ ٦٣-٦٤.

١- إنجلترا.

الواقعية كمذهب فلسفي ساد في القرن التاسع عشر في فرنسا كرد فعل لما أحدثته الثورة الفرنسية من خراب مادى، ودمار معنوي أحدث ردود فعل واسعة النطاق، وعلى سبيل المثال إنجلترا فقد ظهرت الوضعية الجديدة في "ثواب جديد سمي الوضعية المحدثة على يد "جون ستيورت مل" "وجون لويس" [١] فقد أوجدت هذه الحركة "صدى في مجرى التفكير الإنجليزي الذي استمد روحه من الحياة الصناعية والتجارية ، والذي كان ينظر إلى الحقائق الواقعة نظرة توقير واحترام ... فقد وجدت هذه الفلسفة الإيجابية مؤيدين لها في إنجلترا أكثر مما وجد لها في مسقط رأسها فرنسا، ربما كان هؤلاء الأتباع الإنجليز لهذه الحركة الإيجابية أقل حماسه وحرارة ... ولكنه حماس مقرون بالولاء والتمسك المعروف عن الإنجليز الذي جعل "جون ستيورت مل" ١٨٠٦ - ١٨٧٣" "وفرديك هاريسون " ١٨٣١ - ١٩٢٣" مخلصين وموالين طيلة حياتهم لفلسفة "كونت" [٢].

٢- ألمانيا.

من بين المجتمعات التي أثرت عليها الحركة الإصلاحية التي قام بها، "كونت" ألمانيا ويبدو ذلك واضحاً من خلال ظهور الفلسفة الوضعية في ثوب جديد "على يد ماخ ١٨٣٨ - ١٩١٦م وغيره في ثوب آخر هو النقدية التجريبية التي ترى أن واجب الفلسفة تنحصر في الإحساسات [٣].

---

(١) انظر: الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر . جان فال صـ ١٠٣.

(٢) قصة الفلسفة. ول ديورنت صـ ٤٥٥ - ٤٥٦.

(٣) انظر: الفلسفة الفرنسية من ديكارت إلى سارتر صـ ١٠٤ ، الفلسفة الحديثة عرض ونقد.د. أحمد رمضان صـ ٥١٨.

٣- ثم ظهرت هذه الحركة في صورة جديدة هي "الوضعية المنطقية".

فقد تطورت الوضعية بعد "أوجست كونت" وتعددت مدارسها، واختلفت اتجاهاها ولكنها في النهاية تعود إلى خط عام ، ومن هذه الحركات- الوضعية المنطقية – التي تعد امتداداً للواقعية في رفضها للميتافيزيقا وارتكازها على التجربة ؛ إلا أنها زادت عليها بالاعتماد على التحليل المنطقى في ردها للأمور الميتافيزيقية.

فالوضعية المنطقية ترى أن كل ما ليس وضعياً: أي ليس له وجود في العالم المشاهد لا معنى له ، ولا وجود.

يقول بعض الباحثين : "ونستطيع أن نعد ... الوضعيين المنطقيين ورثة لأحد اتجاهات فلسفة "كونت" بصورة جزئية على الأقل" [(١)].

٤- أثرها على الماركسية.

أثرت وضعية "كونت" على الفلسفة الماركسية، فاتفقت معها في ضرورة إقامة المعرفة على التجربة والخبرة الحسية، فأي معرفة تخرج عن هذا فلا أهمية لها ؛ لأنها أشبه ما تكون "بجرثومة ضارة تعبث في الفكر البشرى ليظل سفسطاً بعيداً عن إطار العلم الصحيح المتمثل في العلم الطبيعي وحده؛ لهذا انتدب كل وضعي نفسه لمحاربة هذا الداء وتنفير الناس فيه" [(٢)].

---

(١) الفلسفة الفرنسية جان فال صـ ١٠٤.

(٢) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي د. عبد الرحمن الزبيدى صـ٤٧٨.

٥- أثرها على المجتمع الأمريكي.

لقد أثرت هذه الفلسفة على المجتمع الأمريكي تاثيراً بالغ النطاق ، وأحدثت صدى كبيراً عندهم وأية دليل. تلقف الأمريكيين لمذهب "كونت" الإنساني وتوجيهه وجهة دينية .

ويتضح ذلك من خلال بيان الإنسانيين الذي نشر عام ١٩٣٣م وأمضاه الكثير من المجتمع الأوربي ، وقد اشتمل هذا البيان على نقاط كثيرة أهمها :-

١- الكون موجود بذاته وليس مخلوقاً.

٢- الإنسان جزء من الطبيعة وهو نتيجة عمليات مستمرة فيها.

٣-لا ثنائية بين العقل والبدن وأن النظرة العضوية إلى الحياة نظرة صادقة.

٤- إن ثقافة الإنسان الدينية ليست إلا نتاج التطور التدريجي الناشئ من التفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية والوراثة الاجتماعية.

٥- عدم قبول السبيعة لأي ضامن من فائق على الطبيعة للقيم الإنسانية.

٦- تركب الدين من الأفعال رالتجارب، والأهداف التي لها دلالات في نظر الإنسان ومن هنا زال التمييز بين المقدس والمادي.

٧- انتهى الزمن الذي كان يعتقد الناس فيه بالدين ، وبالله.

٨- إن التحقق التام للشخصية هدف الإنسان.

٩- الاحساسات الشخصية تعبير عن الانفعالات الدينية.

١٠- لا توجد إذن انفعالات دينية، ومواقف الناس تربطهم بوجود خارق للطبيعة [1].

---

(١) انظر: وليم جيمس. محمود زيدان صـ ٢٠٤ – ٢٠٥ دار المعارف مصر ١٩٨٥م.

نقد وضعية أوجست كونت

لقد وجه لهذه الفلسفة انتقادات كثيرة من جوانب عدة :-

أولاً: النقد العام :

أ- التعصب الشديد للمذهب :

فمن بين الانتقادات التي وجهت إلى هذا المذهب هو تعصب أصحابه الشديد له ؛ دون النظر إلى كلام الآخرين ، ودليل ذلك العداء للفلسفة التأملية.

إن "ما يختص بالفلسفة فإن مصدر الحملة عليها أن "كونت" قد أساء فهم معناها، وأنه توهم أن العلم الواقعي يكفى نفسه، ولا يفتقر إلى أساس فلسفي " [1].

هذا بالإضافة إلى زعمه أن الشيء الوضعي هو الشيء المؤكد، الذي يمكن أن يقاس ، كما أنه هو الشيء النافع [2].

ب- النظرة الضيقة للميتافيزيقا:

لقد جاءت نظرة"كونت" إلى الميتافيزيقا نظرة ضيقة، وهذا يخالف ما عليه كبار الفلاسفة، الذي نظروا إليها نظرة تقدير وتقديس ، فضلاً عن هذا أقروا بوجودها، فوجود عالم أخر لا يدرك بالحواس حقيقة واقعة " فلقد صرح "ديكارت" في مقدمة الترجمة الفرنسية لكتاب مبادئ الفلسفة بأن الفلسفة وحدة غير مجزأة ولكنها تنقسم لسهولة التعليم أقساماً عدة.

القسم الأول : الميتافيزيقا وهى تشمل مبادئ المعرفة التي من بينها تفسير أهم صفات الله، وروحانية نفوسنا"[3] .

---

(١) العقل والوجود. يوسف كرم صــ ١٠٠-١٠١ . دار المعارف ١٩٥٦م.

(٢) انظر: محاورات فلسفية. د. عثمان أمين صــ ٦٤ – ٦٦. الأنجلو المصرية ط٢ ١٩٦٧.

(٣) نفس المصدر صــ ٦٦.

فديكارت جعل منها مدخلاً لسائر العلوم الأخرى والأساس في فلسفته أما "كونت" فرأى أن الواقعية مقياس كل شئ "لأن الطور الوضعي وحده هو الطور الذي يتبين فيه الذهن البشرى استحالة الحصول على مثل تلك المعارف، فيتخلى عن البحث في أصل العالم وغايته وعن معرفة ماهيات الأشياء ، وعللها، ومصائرها"(١).

جـ- افتقار العلم الوضعي لتوحيد مصطلحاته.

من بين الانتقادات التي وجهت للفلسفة الوضعية أنها تعتمد على علم الاجتماع ، وجعله أساس العلوم وهذا خطأ فهناك مشكلات كثيرة يعترض بها على هذا العلم من أهمها:

إنه يفتقر إلى توحيد مصطلحاته حتى تكون له لغة علمية موحدة ، وهناك صعوبات منهجية تقف كعقبة أمامنا ومنها: تلك الصعوبات التي تعوق القياس في العلوم نظراً لعدم ثبات الظاهرة الاجتماعية، ومن بين هذه المشكلات طبيعة الظاهرة الاجتماعية التي تمتاز بالتعقيد ولا تخضع لتجربة (٢).

د- التناقض الذي يسيطر عليها.

فمن المعلوم أن "كونت" رفض الميتافيزيقا، وحاول إبعاد المذهب اللاهوتى عن توجيه الإنسان ، وتقويم سلوكه، ودعا للمذهب الواقعي وإحلاله محلها، ولكنه فشل في ذلك ، وتناقض مع أصل مذهبه ، وذلك عندما دعا إلى دين الإنسانية ، وجعلها ديانة تشتمل على طقوس ، وشعائر ، وعبادات ، وكهنة وطقوس.

---

(١) نفس المصدر صـ ٨٠.

(٢) انظر: الفكر المادي د. محمود عثمان صـ ٩٣-٩٤.

هـ- حصر الموجود في العالم المحسوس.

فالفلسفة الوضعية تحصر الوجود في عالم الحس، والطبيعة منكرة وجود ما سوى ذلك، ولكن العلم الحديث يرفض ذلك فقد انتهت هذه الأبحاث إلى أن "الكون لا يقبل التفسير المادى في ضوء علم الطبيعة الجديد وسببه- في نظرى- أن التفسير المادى قد أصبح الآن فكرة ذهنية"[١].

ثانياً: النقد الخاص:

١- المعرفة:

وجهت للفلسفة الوضعية عدة انتقادات وذلك لاعتمادها على المعرفة الحسية ، على النحو التالي :-

أ- حصر مصدر المعرفة في الحس والتجربة:

فقد وجه إليها النقد في هذا الأمر لكونه يتصادم مع معطيات العلم الحديث التي أوضحت خلاف ذلك بل "إن العلوم اليوم كلها أبانت عن ضيق الأفق الذي تنظر منه الفلسفة التجريبية المعاصرة ، ماركسية ووضعية"[٢] فليس لها الحق في التمسك بالعلوم الطبيعية وحدها ، وقصر المعرفة على الحواس.

ب- خدع المعرفة الحسية لصاحبها:

إن هذا المذهب يؤمن بالتجربة الحسية ، وجعلها أساساً للمعرفة وهذا غير صحيح ، ودليل ذلك تفسيرنا لخدع الحواس.

---

(١) الدين في مواجهة العلم. وحيد خان صـــ ٧٥.

(٢) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي . دراسة نقدية. د. عبد الرحمن بن زيد الزبيدي صـــ ٥٢٥.

إننا حين ندرك السراب مثلاً نكون متأكدين تماماً بإحساسنا في مركز مشاهدتنا له أنه حقيقة لا ريب فيها، وهذا غير صحيح؛ لأننا إذا انتقلنا إلى موضع السراب إن أمكن تحديده بالضبط اكتشفنا أنه لم يكن سوى وهم وخداع [١].

فالحواس كثيراً ما تخدع صاحبها ولا يصح جعلها مصدراً وحيداً للمعرفة ، أو قصر المعرفة عليها.

وقصارى القول: في هذا إن "القول بالحس أداة وحيدة لإدراك الحقائق ، ومعيار أقصى لاختبارات العبارات فرض تعسفي يتمسك به هؤلاء الوضعيون" [٢].

فهذا الكلام أشبه بدعوى بلا دليل، فضلاً عن هذا وضعوا أنفسهم في دائرة ضيقة جداً من خلال إيمانهم بالمحسوس فقط، وجعلهم المعرفة أداة وحيدة للوقوف على حقائق الأشياء وإدراكها.

٢- قانون المراحل الثلاثة:

أ- افتقاده للأدلة التاريخية:

قانون المراحل الثلاث هو حجر الزاوية في فلسفته فهو الدعامة التي أقامها عليه ، إلا أنه لم يسلم من الانتقادات ، ومن أهمها:

افتقاده للأدلة من الناحية التاريخية " فلا يستطيع أحد أن يقيم الدليل على أنها تاريخية ، فإن الدور اللاهوتي يوافق ما قبل التاريخ وأوائل العهد

(١) أسس الفلسفة .د. توفيق الطويل صـ ٢٨٧.

(٢) الفلسفة ومباحثها د. محمد أبو ريان. صـ ٢٠٩.

التاريخي أجبنا : أن الإنسان عاش في تلك العصور الطويلة، وهو يحارب قوى الطبيعة ويستغل ذخائرها ... وإن قيل إن الدور الميتافيزيقي يوافق العصر القديم سألنا عن الأرصاد الفلكية والصناعات المختلفة في الدنيا الشرقية طب "بقراط"وهندسة إقليدس" (١) وكيمياء العصر الوسيط ، وإن "كونت" نفسه ليعترف بأن الرياضيات واقعية منذ آلاف السنين أي منذ الدور اللاهوتى بل لا يمكن إلا أن تكون واقعية، فكيف يقال: إن العقل لم يعرف الروح الواقعي إلا في العصر الحديث، وإن قيل إن الدور الواقعي يوافق العصر أحلناهم إلى ما هو باد في الفلسفة الحديثة من الاهتمام بالأخلاق والدين بل إن "كونت" نفسه وضع ديانة الإنسانية في أواخر حياته لا في شبابه كما تقتضي نظريته"(٢).

ب- مخالفته للواقع:

فهذا القانون مع اعتماد "كونت" عليه إلا أنه يخالف الواقع المشاهد " فكثير من المجتمعات لا تزال تلجأ عند تفكيرها في بعض الظواهر إلى القوى الميتافيزيقية ولا تزال بعض المجتمعات تفكر تفكيراً بدائياً في بعض الظواهر وميتافيزيقياً ووضعياً في البعض الآخر" (٣).

فالمجتمعات تختلف فيما بينها في نظامها واتجاهاتها؛ فما يحدث في مجتمع لا يصلح لآخر، وما يناسب مجتمع لا يناسب أخر من ناحية، ومن ناحية

---

(١) إقليدس: فيلسوف يوناني عاش ما بين عام ٤٥٠ – ٣٨٠ ق.م كان من أتباع سقراط وبارمينيدس وله عدة مؤلفات.(انظر: موسوعة أعلام الفلاسفة العرب والأجانب جـ١ صـ ١١٤ – ١١٥).

(٢) العقل والوجود. يوسف كرم صـ ٩٩ . ط. دار المعارف.

(٣) الفلسفة الحديثة عرض ونقد د. أحمد رمضان صـ ٥٢٤.

أخرى "فالتجربة تشهد بأن الأدوار الثلاثة قد توجد في الفرد الواحد والجماعة الواحدة ، مقترنة بعضها ببعض ، فقد يقبل الفرد أو الجماعة تفسيرات لاهوتية أو ميتافيزيقية في بعض المشاكل التي تواجهه مع اعتقاده بالعلم الوضعي ونتائجه" (١) هذه هي أهم الانتقادات التي وجهت لقانون المراحل الثلاث لدى كونت.

٣- الأخلاق:

أما بالنسبة لأخلاقه فهي أيضاً لم تسلم من النقد الشديد ، وأهم ما وجه إليها من انتقادات كانت على النحو التالي :-

أ- أنها أخلاق عقيمة:

فالأخلاق الوضعية أخلاق عقيمة، ودليل ذلك فشلها في إيجاد حل لمشاكل المجتمع أو قدرتها على تحقيق السعادة لأفراده فلم تستطع أن تقدم أي نجاح، كما أنها لم تساهم في القضاء على الفساد المادي أو الاضطراب المعنوي لذا كان أبسط ما يقال عنها بأنها أخلاق عقيمة.

ب- إغفالها للجانب الروحي:

للجانب الروحي تأثير كبير على النفوس، فهو يهذب السلوك ، ويرتقى بالأخلاق إلى أوج كمالها؛ إلا أن أخلاق "كونت" قضت على هذا الجانب وبهذا يكون "كونت" قد وقع في خطأ كبير وذلك بحصر مهمتها في القضاء على الجانب الروحي في الإنسان، وقطع صلته بالعالم العلوي، وهذا انحراف في الفطرة ، وعدول عن الحق.

---

(١) أسس الفلسفة د. توفيق الطويل صـ ٢٨٣.

يقول يوسف كرم "وفى رأيه أن المهمة التي تجب على الفلسفة الوضعية أن تعمل لها هي محو فكرة الحق الراجعة إلى أصل لاهوتي : من حيث إنها تفترض سلطة أعلى من الإنسان ، وحصر الأخلاق كلها في فكرة الواجب ذلك الميل الطبيعي إلى إخضاع النزاعات الدينية لصالح النوع أجمع بحيث يصير شعارنا الحياة لأجل الغير" [١].

جـ- تعارضه مع أصول مذهبه:

من بين الانتقادات التي وجهت إلى أخلاق "كونت" الوضعية هو تعارضها مع أصول مذهبه.

فقد تطلع "كونت" إلى جعل الأخلاق علماً عملياً يستند إلى المنهج الاستقرائي وحده ولكن بمرور الوقت اتسع معنى العلم عند جمهرة الباحثين حتى دخلوا في مفهومه كل دراسة منهجية منظمة تفسر في ضوء المنهج الاستقرائي ، وبهذا دخل في العلم دراسات جديدة لا تستند إلى الملاحظة والتجربة، وتقوض تصور القديم لمعنى العلم وهذا مخالفة للمذهب الواقعي وأصوله[٢] .

د- وأخيراً: فإن من بين ما وجه إليها من نقد هو محدوديتها وقصر نظرتها، فإن علم الأخلاق "تحول على يد أتباع "كونت" إلى علم واقعي، ومعنى هذا وقوفه على وصف الأحداث الخلقية فقط، ووضع قوانين لتفسيرها دون التعرض لمعرفة أثارها ، والنتائج عليها" [٣].

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم صـ ١٢٦.

(٢) انظر: الفلسفة الخلقية د.توفيق الطويل صـ ٢٨٥.

(٣) نفس المصدر صـ ٢٨٤.

٤- دين الإنسانية:

لقد وجه لديانة كونت التي دعا إليها انتقادات لاذاعة، فمع ما زعمه بأنها السبيل للخلاص من الشقاء وتحقق السعادة للفرد والجماعة إلا أنها لم تسلم هي الأخرى من انتقادات كشفت عن تهافتها ومن بينها ما يلي:

أ- وجود بذور ديانة فيها تسمو عليها:

فلقد وجه إليها النقد باعتبارها ترفض أي دين من شأنه أن يكون ذا مصدر يعلو أو يسمو على الإنسانية، ومع هذا فهي نفسها قد اشتملت على بذور ديانة ترد إلى مصدر آخر غير الإنسانية ودليل ذلك خلق الإنسان يقول بعض الباحثين : " أيكون خلق الإنسان بيد الإنسان تعسفاً؟ لو أثبتنا ذلك للإنسان لاحتقر نفسه ، لأنه حين زعم أنه يعمل الأحسن لم يعرف عندئذ إلا أن يتحرك بالصدفة مثل ذرة "ابيقور" (١) ولكنه يعتقد أنه بالرغم من عدم وجود نموذج كامل يحتذى به في الواقع ؛ فإن خلقه يقوم على قاعدة لها ضرورتها ووجودها، وقيمتها العليا؛ وهذه القاعدة التي تستقر في باطن نفسه، وتسمو عليها في آن واحد هي التي يسميها "الله" وهكذا توجد الإنسانية ذاتها بذور دين يسمو موضوعها على الإنسانية " (٢).

---

(١) ابيقور فيلسوف يوناني عاش عام (٣٤١ - ٥٢٧ م وكان أبوه ساحراً وأمه كاهنة ولما بلغ الثامنة عشر من عمره ذهب على أثينا ورحل إلى بعد ذلك إلى أسيا ثم عاد الى أثينا وافتتح مدرسته بها ٣٠٦ ق.م وله مؤلفات كثيرة فى المنطق والطبيعة (انظر : الموسوعة الفلسفية .. لجنة من العلماء . ترجمة سمير كرم صـ ٨ دار الطليعة للطباعة والنشر ط ١٩٨٠، المعجم الفلسفي: مجمع اللغة العربية صـ٢ الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية ١٩٧٩م ، تاريخ الفلسفة اليونانية يوسف كرم صـ ٢١٤).

(٢) العلم والدين. إميل بوتروا صـ ٦٨.

ب- عدم إشباع رغبات الناس:

من أهم الانتقادات التي وجهت لديانة الإنسانية عجزها عن تحقيق آمال الناس وإشباع رغباتهم، وهذا أمر حتمي فديانة أقيمت على غير أساس وخضعت لأهواء شخصية ورغبات إنسانية دون أن يكون لها أية صلة بالعالم الآخر لا بد وأن يكون هذا شأنها.

فدين الإنسانية الذي دعا إليه "كونت" فشل في تحقيق رغبات الناس، فهو يترك الناس جياعاً ضامرين فهل يمكن لذلك المخلوق الذي يصرخ إبان لهفته وأشواقه المضطرمة الملحة أن يكتفي بعبادة جنسه البشرى. أنرضي أن نترك ونفوسنا عطشى للحق، وأفكارنا تتجاذبها الشكوك والريب مع علمنا بوجود قوة أخرى تعمل على إشباع رغباتنا وتحقيق آمالنا، إلا أنها تسمو فوق إدراكنا، وتبعد عن منالنا[١].

هذه بعض الانتقادات التي وجهت لهذه الديانة، ومن خلالها يتضح لنا ضعف المذهب الوضعي كله، فهو مذهب غامضي عاجز عن إيجاد حل للمشكلات أو إيجاد حل لها.

الوضعية في ميزان الإسلام:

بعد هذا العرض لهذا التيار وهذه الفلسفة أرى ضرورة بيـــان رأى الإسلام فيها والواقع أن هذه الفلسفة تيار مادي يتعارض مع الإسلام في عدة نقاط جوهرية من أهمها ما يلي:

---

(١) انظر: كونت للمستشرق كاترين هنرى ترجمة حبيب سعد صـــ ١٠٤-١٠٥ دار الشرق والغرب. ضمن أعلام الفكر الفرنسي.

١- قصر المعرفة على المعرفة الحسية:

وهذا يخالف ما أقره الإسلام، فهناك جوانب كثيرة لا يصل الإنسان إليها بحواسه، وإن وصل إليها من طرق أخرى كالوحي مثلاً ومن ذلك :

- **الروح** قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١).

- **الملائكة** قال تعالى : ﴿ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٢).

٢- نظام الطبقات:

الناس في المذهب الوضعي طبقات يتمايزون فيما بينهم كل حسب درجته، ويأتي على قمة هذه الطبقات الفلاسفة فالنساء ، فرجال المال والصناعة وأخيراً العمال ، والواقع أن هذا يتعارض مع الإسلام، فالناس في الإسلام سواء يتفاضلون فيما بينهم بالتقوى والعمل الصالح. وهذا لا يمنع من وقوع تفاضل بينهم وذلك لحكمة أرادها الله تعالى.

قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ... ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ ... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٤).

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥.

(٢) سورة التحريم الآية ٦.

(٣) سورة النحل الآية ٧١.

(٤) سورة الحجرات الآية ١٤.

٣- موقفها من المرأة:

فقد اهتمت هذه الفلسفة بالمرأة اهتماماً واسع النطاق ، وقدمتها على الرجال ، وذلك يرجع إلى ما يمكن أن تحدثه المرأة من انقلاب للأوضاع ، ولا شك أن هذا يتعارض مع الإسلام، فالإسلام سوى بين الرجال والنساء وجعل مقياس التفاضل بينهما عند الله التقوى والعمل الصالح . إلا أنه أحاط المرأة بسياج من العفة والطهارة، وحفظ لها حقوقها. وجاء تقديم الرجل عليها جاعلاً القوامة من اختصاصه ليس تقليلاً من شأنها، أو حطاً لمكانتها، فقد جبلت المرأة على صفات خاصة بها لا تؤهلها للقوامة ، وهذا ما أكدته الأبحاث العلمية.

قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ... ﴾[1].

٤- جعلهم الإنسانية هي النهاية العظمى:

فلقد جعل هذا المذهب من الإنسانية إلهاً حقيقياً، كما جعلها هي النهاية العظمى الذي يتمثل فيها الموجود الأعظم الذي هو الإله الحق في نظره، وهذا يخالف ما جاء به الإسلام من أن الموجود الأعظم الجدير بالطاعة، والمنفرد بالعبادة هو الله تعالى ، وذلك لما أسداه علينا من نعم .

قال تعالى : ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ [2]وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا . . . ﴾ [3].

---

(١) سورة النساء الآية ٣٤.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٠٢.

(٣) سورة النحل الآية ١٨.

٥- إنكار وجود الله تعالى ورفضه العالم الغيبي كله :

وهذا هو أساس هذه الفلسفة فقد حصرت نفسها في الإيمان بالمحسوس فقط ، فكل بحث عن العلل والغايات لا فائدة منه ، ومن ثم يجب العدول عنه ، حيث إنه لا يدرك عن طريق التجربة والملاحظة ، التي تتسم باليقين.

وهذا يخالف الإسلام الذي أقر بوجود الله تعالى، وقد تضافرت الأدلة على ذلك ما بين عقلية ونقليه ، وعلمية فضلاً عن كشفه عن حقيقة العالم الغيبي ووجوده بكل ما أشار إليه القرآن.

الفصل السادس : الوضعية المنطقية

تعريفها :

الوضـــعية مذهب (أوجست كونت وهو ينكر الميتافيزيقا : ما وراء الطبيعة ويقيم المعرفة علي الوقائع والتجربة [١].

والوضـــعية المنطقـــية اتجاه فلسفي معاصر يقوم أساساً على التجربة تحقـــيقا للدقـــة والتحليل المنطقي للغة العلماء ولغة الحديث وبعدها المصدر الوحيد للمعرفة وليس للعقل من عمل إلا مجرد تنسيق معطياتها وتنظيمها .

ثم تحولت إلى دراسة تحليلية منطقية للغة العلم لتحقيق وحدة مشتركة بين فروع العلوم المختلفة [٢] .

جذور الوضعية المنطقية وتسميتها :

ولمـــا كان وضع الأمور في عالم الواقع هو وحده مجال البحث العلمي أطلق على النظرية العلمية اسم " الوضعية " فإن كان "الوضع " القائم الذي يشـــغل الباحث عبارة عن اللغة أو لفظة من ألفاظها كانت الوضعية في هذه الحالة وضعية منطقية ومن ثم كان هذا الاسم " الوضعية المنطقية " مميزا لطائفة من أصحاب الفكر صمموا على ألا يجاوزوا الواقع بنظرهم ، وعلى أن يكون هـــذا الواقـــع الذي يختصون به – هو اللغة – التي يصوغ فيها سائر العلماء علومهم على اختلاف موضوعاتها [٣] .

ويحاول الدكتور زكى نجيب محمود وهو أحد أنصار الوضعية المنطقية أن يتلمس جذور هذه الفلسفة فيما قبلها من فلسفات ذات اتجاهات وضعية

---

(١) المعجم الوسيط جـ ٢ صـ ١٠٤.

(٢) المعجم الفلسفي صـ ٢١٤ .

(٣) نحو فلسفة علمية . الدكتور زكى نجيب محمود صـ٣٠ الأنجلو المصرية الطبعة الأولى ١٩٥٨م .

جعلــت موضوع تحليلها الأشياء فكان بحثها متجها إلى المعرفة الإنسانية — في حــدودها وعناصرها ونصيبها من اليقين . ولكنها لم تعط اهتماما للعبارات لتي هي — بالإضافة إلى التجريب العلمي — سمة الوضعية المنطقية .

فـيقول (كــان "هيوم " بفلسفته التجريبية و" ليبنتز " بمنطقة الذي يفــرق به بين حقائق العقل وحقائق الواقع و" كونت " بمذهبه الوضعي كان هــؤلاء جميعاً من الرواد الذين مهدوا الطريق كل من جانبه لكي ينتهي إلى ما انتهــى إليه في القرن العشرين من حركة فلسفية عرفت أول ما عرفت باسم "الوضعية المنطقية ".

فيقول : ((كان " هيوم " بفلسفته التجريبية و " ليبنتز " بمنطقه الذي يفرق به بين حقائق العقل وحقائق الواقع و " وكانت " بتحليلة للعقل وقوله باســتحالة الميتافيزيقا التي تستنبط من مبدأ أول و " كونت " بمذهبه الوضعي كــان هؤلاء جميعاً من الرواد الذين مهدوا الطريق كل من جانبه لكي ينتهي إلى مــا انتهى إليه في القرن العشرين من حركة فلسفية عرفت أول ما عرفت باســم " الوضعية المنطقية " تميزاً لها من " وضعية كونت وغيره " وإنما سميت بهذا الاسم لأنها ترفض ما ترفضه وتقبل ما تقبله على أساس " المنطق " وحده . أي علــى أساس تحليل العبارات والألفاظ تحليلاً يبين حقيقة بنائها ولا يزال فريق من أتباع هذه الحركة الفلسفية يحتفظون لها باسمها الأول ، ولكن فريقاً آخــر أخذ يطلق عليها اسم " التجريبية العلمية " وما يدور حول هذا المعنى مــن أسمــاء ... ولكن الوضعية المنطقية إن تكن قد وجدت في هؤلاء الرواد مقــدمات مــن حيث وجهة النظر العامة ، إلا أنها قد اعتمدت في طرائقها التحليلــية الخاصة على فريق آخر من علماء الرياضة ورجال المنطق فهؤلاء

هـم الذين أمدوها بالأدوات التي تستخدمها في تحليلها الذي تريده لعبارات اللغـة وألفاظهـا ، تحليلا انتهى بها إلى مجموعة النتائج التي انتهت إليها حتى اليوم "[١] .

وتفصـيل ذلـك أن : " هيوم " على حد تعبير الدكتور زكي نجيب محمـود أول فيلسوف وضعي بالمعنى الشامل الدقيق فقد نبه الأذهان إلى أن الـتفكير الاسـتنباطي وحده – يستحيل أن يعطي معرفة صحيحة عن العالم الخارجـي وخالف بذلك الميتافيزيقي الذي يحصر نفسه ، ويضع لنفسه مبدءاً يدعـى أنه رآه بالحدس ويرتب عليه النتائج ونتائجها عن طريق الاستنباط ، ويدعـى أنها تصور أجزاءاً من العالم ، ويمتاز هيوم عمن سبقه – ممن يقولون بعدم كفاية التفكير الاستنباطي في تحصيل المعرفة عن العالم الواقعي – بأنه قد طبق المبدأ بجرأة على النفس الإنسانية .

فالوضـعية المنطقية ترتد إلى " هيوم " على أساس أنها ترتكز في نهاية التحلـيل على الخبرة الحسية المباشرة . عندما يكون الحديث عن ظاهرة من ظواهر العالم الخارجي .

ولكن الوضعية المنطقية لا تقتصر على ذلك ، بل تمتد إلى مجال آخر : وهـو تحليل العبارات والألفاظ ، وتفرق بين نوعين من القضايا وهما قضايا يقتضـي الـتحقق من صدقها إلى أكثر من الرجوع إلى عالم الواقع الخارجي وقضايا لا يحتاج التحقق من صدقها إلى أكثر من مراجعة الكلام نفسه لنرى إن كان عجز العبارات تكرار لصدها أم لا . وذلك هو سمة الفلسفة التحليلة المعاصرة .

---

(١) المصدر السابق صـ ٥٠ ، ٥١ .

ويأتي ليبنتز ليضع جذور هذه التفرقة ، فقد فرق بين ما يسميه بحقائق العقل وحقائق الواقع .

فأما حقائق العقل فهي أزلية ضرورية وهذا مبني على مبدأ عدم التناقض وقد تكون حقائق العقل واضحة بذاتها ، وقد تكون مستنبطة من حقائق واضحة بذاتها ، ويرى ليبنتز أن العقل هو مصدر الحقائق الضرورية .

وأما حقائق الواقع : فصدقها عرض ، بالرغم من أنها حقائق فطرية في النفس لأنها لا ترتكز على مبدأ عدم التناقض ، بل ترتكز على مبدأ آخر قال به ليبنتز – وهو العلة الكافية – والسبيل إلى تحصيل حقائق الواقع العرضية هو ملاحظة الوقائع الجزئية.

هذه التفرقة بين حقائق العقل وحقائق الواقع تعتبر ركيزه في بناء الفلسفة التحليلية . لأن الوضعية المنطقية تفرق بين نوعين من القضايا وهما :

أولاً : القضية التكرارية وهي يقينية لأن عجزها تكرار لصدرها .

ثانياً : القضية الإخبارية وسميت بذلك لأنها تضيف خبراً جديداً وهي احتمالية ويمكن أن يطلق على النوع الأول من القضايا – تحليلية – كما يمكن أن يطلق على النوع الثاني – تركيبية –[1] .

ويأتي " كانت " ليضع علامة على الطريق . فيصر على أن الطريق الوحيد للحصول على أحكام علمية إنما هو الخبرة التي تنظم أشتاها مبادئ عقلية فطرية . فالخبرة الحسية والمبادئ العقلية التي تنظمها لابد منهما . لتحصيل أحكام علمية صحيحة وهو يتفق مع الوضعية المنطقية في وجوب انحصار الإنسان في حدود خبرته . ولكنه يختلف معها – فيما يسمى بالشيء

(١) نحو فلسفة علمية صـ ٣٥ ، ٣٧ ، ونشأة الفلسفة العلمية صـ ٢٨ .

في ذاتـه – فهـو يعتـرف بوجـوده فوق متناول العقل الإنساني في حالته الموضـوعية ولكـن الوضـعية المنطقية ترفضه – بناء على التحليل المنطقي للعبارات من هذا القبيل – لأنه سيتبين بعد التحليل أن هذه العبارات ليست ذات معنى .

وبناء على هذا : فهي تختلف مع " كانت " في السبب الذي من أجله لا يجوز للعقل أن يتحدث عن الشيء في ذاته . ولكن الوضعية المنطقية تعزوه إلى أن الحديث عن شيء وراء الخبرة الحسية حديث فارغ من المعنى [١] .

وجاء القرن التاسع عشر وظهر تياران يختلفان في طريقة التفكير وهما المثالية والوضعية .

فالاتجاه المثالي يبدأ من ذات الفيلسوف هابطاً إلى الواقع ، وأما الاتجاه الوضـعي فيـبدأ من الواقع فصاعدا إلى ذات الفيلسوف والمثالية والوضعية تـتفقان علـى أن هـدف البحث هو الحقيقة القائمة فتصرفان جهودهما إلى الطبيعـية والتاريخ وتسلمان بأن العالم يتطور سائرا نحو الإمام وليس سكونيا ذا حقائـق ثابتة وترافق هذان التياران حينا إلى أن ضعف التيار المثالي فغلب التيار الوضعي وساد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وعمـل " كـونت " على تحقيق هدفين الأول: أن يجعل من العلوم العقلية علوماً وضعية . والثاني : أن ينظم شيء العلوم بمالها من قوانين ومناهج وموضـوعات في بـناء نقـي واحـد ، وحاول أن يدل ببنائه هذا على أن مـا لا يقع في حدود هذا البناء فليس من العلم في شيء وانتهى بذلك عصر اللاهـوت والفلسفة التأملية وأصبح التفكير الوضعي – في نظر الوضعيين –

---

(١) انظر : نحو فلسفة علمية د . زكي محمود صـ ٣٨ ، ٣٩ .

هـــو الطريق الصحيح وهذه هي المحصلة التي لابد للإنسان أن يبلغها في نهاية تطوره الفكري .

ويمكن القول بأن وضعية " أوجست كونت " ذات جوانب ثلاثة :-

الجانب الأول : هو نظرتها التاريخية عند تقديرها لقيمة الفكرة ، فقد تكون فكرة ما صالحة لعصر معين غير صالحة لعصر آخر .

والجانب الثاني : هو حصر المعرفة النافعة في حدود الخبرات التجريبية والعلم الـــذي يتجاوز هذه الحدود ربما كان خطأ أو صوابا لكنه على كل حال لا يفيد .

والجانـــب الـــثالث : هـــو التقريب بين الفكرة النظرية وتطبيقها العملي . فلـــيس علمـــاً ما لا يمكن استخدامه في التحكم في مجرى الطبيعة ومصير الإنسان .

وتـــتفق الوضـــعية المنطقية مع وضعية " أوجست كونت " في أنهما ترتكـــزان على الخبرة الحسية وحدها عندما يكون الحديث عن وقائع الطبيعة ولكـــنها تخـــتلف معها اختلافاً واسعاً إن وضعية كونت تجعل للعبارات التي تـــتحدث عمـــا وراء الحس معنى ، وترفضها فقط ؛ لأن معناها لا يفيدنا في الحـــياة العملية وأما " الوضعية المنطقية فترفض هذه العبارات لأنها خالية من المعنى تماماً .

فهـــي ترفضها على أساس منطقي لا على أساس من النفع أو عدمه كما يفعل " كونت " هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن اعتماد الوضعية المنطقـــية على أساس تحليل العبارات تحليلاً منطقياً – الذي يظهر أن العبارة ذات معـــنى أو خالـــية من المعنى – يجعلها ترفض العبارات التي تتحدث عما

وراء الحس على أنها خالية من المعنى دون نظر إلى تاريخيتها التي تنسب لها صلاحية في زمن دون زمن كما يفعل " أوجست كونت " الذي ينظر إلى هذه العبارات نظرة تاريخية (١) .

هكذا وجدت الوضعية المنطقية مقدمات لها في الفكر الوضعي السابق عليها من وجهة النظر العامة . ولكنها استمدت طرائق التحليل التي اعتمدت عليها من الأدوات التي استخدمتها من فريق من علماء الرياضة وعلماء المنطق المحدثين أمثال " فريجة " و " رسل " فقد بدأت في منتصف القرن التاسع عشر حركتان : إحداهما : رياضية ، والأخرى : منطقية فوقف بعض علماء الرياضة وقفة طويلة أمام مشكلة العدد وهو أساس علمهم الرياضي . وحاولوا أن يردوه إلى أصوله الأولية البسيطة ورجعوا به إلى المنطق ، ووجدوا الجذور في المدركات المنطقية البسيطة . وحاول بعض المناطقة الذين وجدوا أن المنطق الأرسطي يصب اهتمامه على القضايا المكونة من الموضوع والمحمول فقط أن يوسعوا مجال المنطق ليشمل ما يعبر عن علاقات ، ولا يمكن أن يدخل تحت القضايا ذات المحمول والموضوع مثل " إما " و " أو " و " إذا " ومثل القضايا الرياضية . فبدأوا البحث في طريق يبدأ من المدركات لينتهي إلى القضايا الرياضية . بينما كان يعمل علماء الرياضة بطريقة مضادة بادئين بالقضايا التحليلية لينتهوا إلى مدركات رياضة خالصة .

وهكذا انتهى الفريقان إلى هدف واحد وهو أن المنطق والرياضة كليهما امتداد لبناء فكرى واحد ، قوامة القضايا التحليلية التي يستنبط

---

(١) المصدر السابق صـ ٤٣ : ٥٠ .

بعضـــها مـــن بعض دون أن تكون دالة على حقائق الوجود الطبيعي . فكان ذلك من ممهدات التحليل الجديد الذي سمي " بالوضعية المنطقية " فاستعملت هذه الطرق المختلفة التي نمت وتشعبت في تحليل العبارات[١].

جماعة فيينا وأثرها:

هكـــذا نشـــأت حركة الوضعية المنطقية في " فيينا " عندما أسندت أستاذية الفلسفة بجامعتها إلى " مورتس شليك " الذي كان عالماً طبيعياً مهتماً بالفلسفة والتفّ حوله جماعة من العلماء ممن هم على شاكلته وأصدروا مجلة ســـنة ١٩٣٠م تعـــبر عن رأي هذه الجماعة وتولى الإشراف عليها إثنان من أعضـــائها وهمـــا " كارنـــاب " و " ريشنباخ " إلى جانب ما أصدره أعضاء الجماعـــة – مـــن كتب ورسائل وذاعت شهرتهم حتى استطاعوا أن يعقدوا مؤتمراً في مدينة " كينجزبرج " وكان موضوع البحث فيه هو " نظرية المعرفة " مـــنظور إليها من زاوية العلوم المضبوطة " كعلم الطبيعية " وتعاون معهم في هذا المؤتمر مجموعة كبيرة من كبار علماء الرياضة والطبيعة في جميع أنحاء أوربا . وعقـــدوا مؤتمراتهم بعد ذلك ولكن مقتل " مورتس شليك " سنة ١٩٣٦م وقـــيام الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩م شتت الجماعة . ذهب " فايجل " و " كارناب " و " ريشنباخ " إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتولوا مناصب الأســـتاذية في أكـــبر جامعاتها . وذهب " وايزمان " و" نوارث " إلى إنجلترا واشتهر في عالم الدراسات الفلسفية واتسع بذلك نطاق الجماعة وخصوصاً في الولايات المتحدة وفي إنجلترا [٢].

---

(١) المصدر السابق صـ ٥١ ، ٥٢ .

(٢) المصدر السابق صـ ٦٢ ، ٦٣ .

" لم تكـــن جماعة فيينا مدرسة فلسفية بالمعنى المألوف لهذه الكلمة أي بالمعنى الذي يجعل الأتباع ينصتون لرأي أستاذهم ثم يشرحونه ويعقلون عليه بل كان أعضاؤها متساوي القامات ارتفاعاً متقاربي القدرات والقوى ولذلك لم يكـــن هناك ما يمنع أن يطرح السؤال أمامهم فإذا كل واحد منهم بجواب لكنهم على اختلافهم هذا كانت تربطهم رابطة التشابه في حركة فلسفية هي الـــتي أطلق عليها اسم الوضعية المنطقية أحياناً واسم التجريبية المنطقية أحياناً أخرى .

إلا أن المصـــطلح الذي لقي رواجاً أكثر فهو الوضعية المنطقية وكان لهـــا بعـــض الأنصار من خارج فيينا مثل " ريشنباخ " ويون ميزس وآير من خارج النمسا وارتبطت الوضعية المنطقية بالفلسفة التحليلية الإنجليزية عند " مور " و " رسل " .

فالوضعية المنطقية تتبنى الآراء التجريبية المعتمدة على الحواس وتعتمد طـــريقة التحليلـــيين في فهـــم أقوال العلوم وقوانينها وعلى الرغم من هذا التقارب إلا أن الدكتور / زكي نجيب محمود يميز بين الاتجاه الوضعي المنطقي والاتجـــاه التحليلـــي ، ويرى أن الاتجاهين يكملان بعضهما بعضاً لكنهما لا يصلان إلى حد التطابق على الرغم من اتفاقهما في بعض النقاط [(١)] .

والوضـــعية المنطقـــية تـــريد لفلسفة أن تشبه العلم في دقه استخدام الألفـــاظ والعـــبارات بحيث يجيء استعمال الألفاظ والعبارات مطابقاً للواقع المشـــاهد بحيث لا تدع كلمة بغير مسمى يمكن تعقبه بالحواس ، وتشبه العلم أيضـــاً في حصـــر بحـــثها في مشكلات جزئية محددة وتقنع بذلك ولا تحاول

---

(١) فلسفة وفن . زكي نجيب محمود صـــ ٢٤٨ . مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٣ م .

البحث في مبدأ يضم الكون كله لأن هذه المحاولة تبدو مستحيلة النتائج والفيلسوف المعاصر صاحب النزعة العلمية يكتفي بتحليل كلام العلماء لتوضيحه ولا يشاركهم في أبحاثهم الواقعية في العلوم . فلا يشترط أن يكون متخصصاً في العلوم التجريبية . والمقصود بهذا التحليل هو تحليل العبارة تحليلاً منطقياً أو عقلياً وإن كانت كلمة تحليل ليست محددة تحديداً حاسماً بين من يستعملونها حتى المختصين منهم إلا أنه يمكن التماس شيء من التحديد بشرح طريقة كل فيلسوف يستخدم منهج التحليل ، فطرق التحليل وإن كانت مختلفة باختلاف أصحابنا إلا أنهم جميعاً تضمهم أسرة واحدة [1] .

ومهمة الفلسفة عند أنصار الوضعية المنطقية هي : تحليل العبارات والألفاظ من حيث بنائها المنطقي العام ، لا من حيث طرائق استخدامها في لغة بعينها وتحليل العبارات والألفاظ على هذا النحو هو نفسه تحليل للفكر من حيث صورته لا من حيث مادته .

والوضعية المنطقية تحدد مهمة الفلسفة بأنها ينبغي أن تكون تحليلاً صرفاً لقضايا العلم بصفة خاصة لكي تساير العلم في قضاياه وتفيد في توضيح غوامض تلك القضايا ولا تتعرض للضرب في مجاهل الغيب على حد تعبير الدكتور / زكي نجيب محمود .

ويعتقد الدكتور / زكي نجيب محمود : أن حصر مهمة الفلسفة في تحليل العبارات يعتبر ثورة في الفلسفة لأن فلاسفة التحليل قد غيروا مجال البحث الفلسفي تغييراً حاسماً ، فانتقل اهتمام الفلاسفة من البحث في حقيقة العالم وحقيقة الإنسان إلى تحليل العبارات وأصبح موضوع البحث ليس أشياء

---

(١) نحو فلسفة علمية صـ ٧ ، ١٣ ، ٨٠ ، ٨١ .

ولكنه جمل وبهذا يربط الفلاسفة أنفسهم بدنيا بالعلم والحياة اليومية بدلاً من البحث عن الحقيقة وراء هذا العالم المحسوس وبهذا تصبح الفلسفة منطقاً حرفاً على أساس تجريبي (١) .

وهكـــذا فإن قوام العالم حوادث محسوس ترتبط في مجموعات تجعل كل مجموعة منها شيئاً واحداً مثل العقاد والقاهرة .

وألفاظ اللغة وعباراتها من أشياء هذا العالم الواقعي كلماتها مكونة من حـــوادث تتمـــثل في حالاتهـــا المختلفة سواء كانت مسموعة أو مكتوبة أو مقـــروءة أو منطوقة وكل حالة من هذه الحالات ذات أحوال كثيرة وكذلك العبارات مكونة من تلك الكلمات ذات الأحوال الكثيرة .

وكلمات اللغة وعبارتها هي من مادة هذا العالم لا فرق بينها وبين ما تُعبر عنه – إلا في الدرجة فقط – وإذا كانت كلمات اللغة وعباراتها من مادة الواقـــع وهي جزء منه فقد جعلت بعض وقائع العالم رموز البعض الآخر ومن هـــنا يأتي معنى الرمز اللغوي فكلمة معنى بهذا الصدد تعني أن شيئاً يرمز إلى شيء وكلا الشيئين يكونان من كائنات العالم الواقع . والحديث هنا سيكون عـــن مجمـــوعة واحـــدة من مجموعات الرموز وهي الرموز اللغوية – ألفاظ وعبارات (٢) .

ومحـــور البحث الفلسفي عند " جماعة فيينا " ومن جرى مجراهم هو اللغـــة دلالة وتركيباً . فعندما يكون هدف البحث هو الدلالة يكون عندئذ مركـــزا علـــى علاقة التطابق بين الصورة اللغوية وبين عالم الأشياء المحسوسة ويطلـــق علـــى هـــذا البحث اسم – السيمية – أي السمات وعندما يكون

(١) نحو فلسفة علمية صـــ ١٦ ، ١٨ ، ٦٦ .
(٢) نحو فلسفية علمية صـــ ١١٥ ، ١١٦ .

مركـزاً على العبارات من حيث هي مركبة من مفردات يسمى عند ذلك " علم البناء اللفظي " .

وإذا كانت الوضعية المنطقية تدرس ألفاظ اللغة في حالتيها – عندما تكـون مفردة وعندما تكون مركبة – فإنها تطرح ألفاظ اللغة المعينة الخاصة بطائفـة من الناس وتعبر عنها برموز جبرية فتنظر إلى تركيبات اللغة الصورية الخالصـة وبـذلك يكون تحليل اللغة غير منصب على مادتها بل منصبا على صورتها .

والوضـعية المنطقـية عندما تبحث في مفردات اللغة لتحديد معانيها تشترط أن تكون معبرة عن أشياء محسوسة يمكن الإشارة إليها . فإذا لم يمكن الـرجوع بها إلى عالم الأشياء كانت فارغة من المعنى وعندما تبحث في الجملة أو القضـية المـركبة من طرفين أو أكثر تربط أطرافها علاقات معينة تحكم بالصواب أو بالخطأ عليها بالنظر إلى ما بين أجزائها من علاقات من جهة وما تـدل عليه من وقائع محسوسة من جهة أخرى ، فإذا كانت أجزاء القضية لا تعبر عن وقائع محسوسة كانت فارغة من المعنى ، وهكذا يشترط لكي تكون القضـية ذات معـنى أن يمكـن الرجوع بها إلى وقائع فعلاً فإن ذلك شرط للحكـم علـيها بالصدق أو عدمه وليس لخلوها من المعنى أو عدمه ، وهذا المعـيار ينطـبق علـى الجملة الخبرية فقط ولا ينطبق على القضايا الرياضية وقضـايا المـنطق الصوري على أساس أنهما لا تدعيان الإخبار بشيء بحيث تبحث عن خلوها من المعنى وعدمه .

ومن هذا المنطلق ترفض الوضعية المنطقية العبارات الميتافيزيقية [1] .

---

(١) نحو فلسفية علمية صـ ٦٦ ، ٧٢ .

ويعـــبر عـــن ذلــك د / زكي نجيب محمود بعبارات حادة فيقول : " وهاهنا يأتي حذف العبارات الميتافيزيقية على أيدي جماعة فيينا وأتباعهم لأنه إذا كانـــت العـــبارات الميتافيزيقية هي ما يزعم لها قائلها أنها " تعني " شيئاً خارج حدود الخبرة الحسية فهي بحكم هذا الاعتراف نفسه عبارة بغير " معنى " فليس الأمر هاهنا مقتصراً على أن الإنسان عاجز بملكاته الراهنة أن يجاوز حـــدود الخبرة إلى ما وراءها بحيث يفهم معنى العبارة السابقة ، بل إن منطق اللغـــة نفسه يحتم أن تكون مفردات اللغة وعباراتها منصرفة إلى مسميات في عالم الواقع الذي يحسه فعلاً أو إمكاناً .

والعـــبارة الميتافيـــزيقية بهذا المعنى لا يمكن تحقيقها ، وهذا معناه أنها عـــبارات بغـــير معنى وأذن فعباراتها " تشبه " اللغة وليس منها هي كالعملة الـــزائفة التي ربما انخدع بها مخدوع من غير صيارفة المحترفين لكن انخداعه هذا لا يجعـــل لهـــا قيمة في عالم الاقتصاد وتنشأ هذه العبارات الزائفة على إحدى صـــورتين : أولاهما : أن يدرس المتكلم في عبارته كلمة بغير معنى أي كلمة لا تشـــير إلى شـــيء من خبرات الإنسان الحسية ككلمة " جوهر " مثلاً كما يستعملها الفلاسفة الميتافيزيقيون ؛ حين يقولون مثلاً إن لكل شيء " جوهر " وراء معطـــياته الحسية ، والصورة الثانية : التي قد تجئ عليها العبارة الزائفة هـــي أن يســـتخدم المتكلم ألفاظاً كلها من ذوات المعنى الخبري المفهوم لكنه يرســـلها على نحو لا يرضاه منطق اللغة في استعمالها المألوف كأن يقول مثلاً " العقل عنصر " [١] .

---

(١) نحو فلسفة علمية صـــ ٦٩ ، ٧٠ .

دراسة الوضعية المنطقية للعبارات :

قلنا إن الوضعية المنطقية ترفض الميتافيزيقا بناءاً على آرائها الناتجة عن دراســة عبارات اللغة والتي تقرر أن الألفاظ والعبارات الميتافيزيقية مرفوضة لأنها خالية من المعنى وينبغي الآن أن نعطي صورة عن دراسة الوضعية المنطقية للكلمــات وصــورة عــن دراستها للجمل أو القضايا ، ثم نحدد بعد ذلك الميتافيزيقا المرفوضة في نظرها .

أولاً : الكلمات :

الكلمــات الــتي تعنيها الوضعية المنطقية هي رموز اللغة أو ما يقوم مقامهــا مما اتفق الناس على أن يكون دلالة على مسميات موجودة في الواقع – حــين لا تشير إلى شيء مما يتصل بالجانب الوجداني في حياة الإنسان لكي تصــلح أن تكون أداة في المعرفة العلمية أو المعرفة الإخبارية التجريبية بمعنى أوسع وعندئذ لا تتجاوز هذه الكلمات أن تكون أحداثاً مما يقع في عالم الحس ســواء كانــت " منطوقة أو مسموعة أو مكتوبة أو مقروءة " وتكون وسيلة إدراكها هي الحواس .

فكلمــة (قلم) ليست كلمة واحدة كما يعتقد الفلاسفة حين يرون أن هناك كلمة واحدة من ناحية ومسميات كثيرة هي أفراد النوع المسمى من ناحــية أخرى ، ويجعلون المشكلة الفلسفية في هذا الصدد هي : كيف أمكن لكلمــة واحــدة أن تســمى أفراد كثيرة ؟ أو بعبارة أخرى ما طبيعة الاسم الكلي ؟ .

ويقصــدون بالاسم الكلي اسماً واحداً يطلق على أفراد النوع كلها ويغفلون عن أن الاسم ليس واحداً بل هو مجموعة ضخمة من حالات مختلفة

مـــن طرائق النطق والكتابة ، وصور السمع والقراءة . ويقابل هذه المجموعة الكبيرة من ناحية الكلمة مجموعة كبيرة ضخمة من ناحية المسميات . فكلمة قلـــم بصورها الأربعة السابقة وملايين الحالات لكل صورة من هذه الصور تقابـــل ملايين الحالات التي تمثل الأقلام على أساس أن تلك الحالات متشابهة فقـــط وليس على أساس أن الاسم الكلي هو مطابق للمسميات وبهذا يكون السؤال عن طبيعة الاسم الكلي غير ذي موضوع وتنتهي المشكلة حينئذ [١] والرموز ومنها كلمات اللغة اتفاقية بحتة .

إن كلمـــات اللغة أحداث طبيعة كالمسميات تماماً فما الذي يبرر أن تكون الكلمات دالة على الأشياء ؟ .

والجـــواب : أن الرموز ومنها كلمات اللغة اتفاقية بحتة ويمكن للناس أن يغـــيروا هـــذه الـــرموز بـــدون مشاكل ما دام يتم الاتفاق على الرموز الجديدة [٢] .

والكلمـــة كائنة ما كانت لا تكون ذات معنى إلا إذا كانت تسمى شـــيئاً موجـــوداً في الواقع كما يتحقق للغة ما لابد منه ليتم لها ما جاءت من أجلـــه وهـــو الـــتفاهم ، وهو وجود طرفين وهما الرمز والشيء المرموز إليه والـــرموز اللغـــوية التي لابد لنا من استخدامها قد تكون كاملة وقد تكون ناقصة .

فالـــرموز الكاملة وهي تلك التي تطلق على مسميات محددة جزئية معلـــومة بحيث إذا ذكر الرمز عرف الشيء المرموز إليه في عالم الأشياء معرفة

---

(١) انظر : نحو فلسفة علمية صـــ ٨٢ : ٨٧ .

(٢) المصدر السابق صـــ ٨٨ ، ٨٩ .

جازمة حاسمة لا لبس فيها ولا ازدواج مثل أسماء الأعلام كالعقاد والنيل ولكن هذه الأسماء لها أحوال كثيرة تتغير في الزمان والمكان ولهذا فإنها رموز كاملة على سبيل التجاوز نطلقها على المسمى ذي الأحوال الكثيرة نظراً لما بين هذه الأحوال من شبه ولتعذر إطلاق اسم على كل حالة من هذه الحالات .

والرمز الكامل بالمعنى الدقيق هو اسم الإشارة هذا ، عندما يدل على حالة واحدة محددة بالزمان والمكان وما إلى ذلك من المحددات .

والرموز الناقصة هي تلك التي لا تضمن لنا بذاتها وجود مسميات لها وهذه الرموز الناقصة تكاد تشمل معظم ألفاظ اللغة التي نستعملها وهي لا تقتصر على الأسماء التي تدل على كائنات من نسج الخيال وحده مثل العفريت والعنقاء ولا ستثنى منها إلا أسماء الأعلام .

وبالرغم من اعتبار أسماء الأعلام مثل العقاد رموزاً كاملة تجوزاً فإنها لا تمثل إلا جزءاً قليلاً من اللغة التي تشتمل على كلمات تمثل غالبية ألفاظها وهي ما تسمى في المنطق بالكلمات العامة أو الأسماء الكلية مثل إنسان هذه الكلمات رموز ناقصة لا تكفل لنا وجود مسماها إذا قد يستخدمها الناس استخداما يؤدي إلى الغرض المقصود كاملا . ومع ذلك فقد لا يكون لها مسمى يقابلها في عالم الأشياء [(١)].

---

(١) المصدر السابق ص ٩١ - ٩٥

والأسماء الكلية أو الكلمات العامة لا تدل على فرد بعينه بل تدل على مجموعة من الأفراد تجمع بينها صفات مشتركة وهي جملة بأسرها ضغطت في كلمة لو حللت لأفصحت عن عبارة وصفية مجهولة الموصوف وقد يكون الموصوف الذي تدل عليه هذه العبارة الوصفية – التي ينطوي عليها الاسم الكلي – ذا وجود فعلاً أو لا يكون .

والعبارات الوصفية نوعان أحدهما : ما يكون المركب الوصفي فيه منطبقاً على فرد واحد ، ومنها ما يكون المركب الوصفي فيه مشيراً إلى فرد من مجموعة متشابهة الأفراد ، وهذه الرموز الوصفية لا تقضي بالضرورة وجوداً فعلياً ، ولا يكفي أن يكون الرمز اللغوي موجوداً لنحكم بأن له مسمى في الواقع ولابد لحكمنا بوجوده الفعلي من مشاهدتنا للفرد الموصوف في الحالة الأولى أو أحد أفراد المجموعة الموصوفة في الحالة الثانية لأن الفيصل بين الكائن الوهمي والكائن الفعلي هو شهادة الحواس فقط [1].

ويعبر عن ذلك الدكتور / زكي نجيب محمود ويطبقه على بعض الأسماء الكلية فيقول : " إن البناء الوصفي في حد ذاته لا يقتضي بالضرورة أن يكون هنالك الفرد الذي يجسده فالبناء الوصفي كالثوب نراه معلقاً وإما أن يكون للثوب بعد ذلك لابس أولا يكون .

وانظر بعد ذلك إلى الكلمات الرئيسية التي عليها تدور الفلسفة الميتافيزيقية تراهم جميعاً من قبيل الرموز الدالة على مجموعات من الصفات لا من قبيل الأسماء الدالة على أفراد جزئية مما يشار إليه بقولنا هذا فهذه الفلسفة إنما تدور حول " المطلق " و " الروح " و " النفس " و " الجوهر "

---

(١) انظر : نحو فلسفة علمية صـ ٩٨ ، ٩٩ .

و " الشـــيء في ذاتـــه " وما إلى ذلك وواضح أن الكلمة من هذه الكلمات لا ترمز إلى كائن جزئي مما يشار إليه بالإصبع ولكن كل واحدة منها تلخيص مضغوط لعدد كبير من الصفات فلو سألت مثلاً : ما المطلق ؟ أجابك المتكلم لا بالإشارة إلى أحد الموجودات الفعلية بل بعدد من الجمل وقف عندما شئت مـــن هـــذه الجمل أو مكوناتها اللفظية وأسأل وسيكون الجواب دائماً بجمل أخـــرى وهكذا ومعنى ذلك أن كلمة " مطلق " هي – كما قلنا – تلخيص لفظـــي لعـــبارات وصفية كثيرة ، وإذا كانت الكلمة بالتالي من قبيل الثوب الذي يظل ينتظر من يلبسه فحتى لو فهمنا كل الصفات المتضمنة فيه ، فهذا الفهـــم ليس دليلاً على وجود الكائن الموصوف أو على عدم وجوده إلى أن تـــأتي خـــبرة حسية بعد ذلك فنقرر أحد الشقين فإن كان الكائن الموصوف بحكـــم وصفة ليس مما يقع في خبرة حسية ظلت أوصافه إلى أبد الآبدين بغير دليل على وجوده [1].

وهـــناك نوع ثالث من الكلمات يسمى بالكلمات البنائية أو المنطقية مـــثل " الـــواو " و " أو " و " أمـــا " وما إليها تلك التي تعبر عن علاقة بين طـــرفين أو أكثـــر ولـــيس لها مسميات في الواقع ولا يكون لها معنى إلا إذا اقتـــرنت بمـــا تربط بينه من أسماء أو صفات ومع ذلك فلها خطرها الذي لا يمكـــن تجاهلـــه في المـــنطق وهي تستعمل في بناء الأفكار فهي تقتضي وجود الكلمات التي تربط بينها . والكلمات المنطقية تعتبر الركائز الثابتة التي تحدد صـــورة الفكرة ، بينما تحدد الكلمات التي هي أسماء أو صفات مادة الفكرة وقـــد يجوز إفراغ الفكرة من مادتها ولكن لا يجوز الاستغناء عن الصورة فقد

---

(١) نحو فلسفة علمية صـــ ٩٨ ، ٩٩ .

تســتبدل الكلمـــات التي تعبر عن مادة الفكر برموز خبرية ومع ذلك تظل الصورة قائمة .

هكـــذا تبدو أهمية الكلمات المنطقية التي تعبر عن علاقات : هي التي تميـــز المنطق التحليلي عن المنطق الأرسطي فالمنطق الأرسطي يرى أن الفكرة مكـــونة مـــن طـــرفين هما الموضوع والمحمول ولكن المنطق الوضعي يرى أن العلاقة تقوم بين طرفين أو أكثر كلها موضوعات [١].

هـــذه ضروب ثلاثة من الكلمات اسم العلم والاسم الكلى والكلمة المنطقـــية وليس فيها ما هو رمز كامل يدل حتماً على وجود مسماة وجوداً فعلـــياً في دنـــيا الأشياء إلا اسم العلم أي الكلمة التي تشير إلى جزئي واحد معين [٢].

وهـــناك نـــوع رابـــع وهو ذلك النوع من الكلمات التي على قيمة أخلاقية أو جمالية وتعبر عن انفعال شخص ولكنها لا تشير إلى كائن خارجي بحال من الأحوال والأحكام الجمالية والأخلاقية نسبية وليس لها معنى إلا هذا المعنى النسبي وليس لها معنى إلا هذا المعنى المطلق ، وإن أجمع الناس على جمال شيء أو قيمة فإن ذلك الحكم المجمع عليه إذا حللناه تحليلاً منطقياً قضينا بأنه قـــد يتغير هذا الحكم في يوم من الأيام وأيا ما كان (فإن الألفاظ الدالة على قـــيمة جمالية أو قيمة خلقية ليست من قبيل الأسماء الكلية التي تدل الواحدة مـــنها على مجموعة وصفية قد تتحقق عناصرها في شيء بذاته من أشياء العالم الخارجـــي وليســـت هـــي مـــن قبـــيل الكلمـــات المنطقـــية مـــثل " أو " و " إذا " ممـــا لا يكـــون له مدلول خارجي لكنه يربط أجزاء الجملة

(١) المصدر السابق صـــ ١٠٠ : ١٠٦ .

(٢) المصدر السابق صـــ ١٠٧ .

لـــيجعل مـــنها وحدة بل هي نوع رابع ومزيد إذ هي لا تشير إلى أي مدلول خارج الإنسان الذي يسوقها في كلامه ليخرج بها انفعالاً أحسن به وربما أراد أن يثير انفعالاً شبيها به عند سامعة) [١].

ثانياً : الجمل او القضايا :

إن الجمل أو القضايا ذوات المعنى ينبغي أن تتكون من كلمات ذوات معـــنى – وقـــد تحدثنا عن الكلمات ذوات المعنى – هذه القضايا تنقسم إلى قســـمين : قسم ضروري الصدق ويقيني ومعرفة ذلك الصدق قبلية ، وقسم ليس ضروري الصدق أو اليقين ومعرفة صدقة أو كذبه بعدية يقول الدكتور زكي نجيب محمود : " موقفنا هو استحالة الجمع بين الخبر وضرورة الصدق ، إذ يحـــتمل أن نـــراجعها علـــى الواقع فإذا هي باطلة ، وإذا كانت الجملة ضرورية الصدق فهي إذن فارعة عن الخبر وهي تكرار وتحصيل حاصل " [٢].

ومن هنا ينبغي أن نبين الموقف بإزاء هذين القسمين :

القسم الأول : هو قضايا الرياضة والمنطق .

والقسم الثاني : هو تلك القضايا التي تتحدث عن العالم الخارجي .

قضايا الرياضة والمنطق : فأما قضايا الرياضة : فهي ضرورية الصدق دائمـــاً في كل زمان ومكان . وصدقها غير خاضع للظروف المختلفة . ومعنى الضـــرورة هنا : أن النقيض مستحيل استحالة منطقية . وهي تلك التي تقال إلا على جملة تتضمن الشيء ونقيضه كما تقول المربع له أربعة أضلاع وليس له أربعة أضلاع . والقضية الرياضية يقينية لأنها تستمد يقينها من لفظها فهي تكـــرار اللفظ الواحد مرتين فالمبتدأ هو الخبر ورمزها أ هي أ بخلاف القضايا

---

(١) المصدر السابق صـــ ١١٣ .

(٢) المصدر السابق صـــ ١٧٠ .

الطبيعـــية فـــإن الخـــبر غير المبتدأ ورمزها أ هي ب وهكذا فإن يقينية قضايا الرياضـــة وضـــرورتنا كامن في لفظها لأنك عندما تقول الماء هو الماء تجد أن قـــولك المـــاء ليس هو الماء — وهو نقيض القضية السابقة — مستحيلاً لأنك عـــندئذ تقول الماء ليس هو الماء والقضية قبلية بمعنى أننا نعلم أنها صادقة قبل أن تحكـــم في ذلـــك إلى خـــبرة حسية لأن تكوينها الرمزي ذاته دال على ضرورتها ويقينها على اعتبار أنها تحصيل حاصل محمولها تكرار لموضوعها ولا يعطـــي خبراً جديداً كما هو الحال في القضايا الخاصة بالوقائع الخارجية التي يخبر محمولها عن موضوعها بخبر جديد فإنها لا تكون قبلية أبداً بل تكون بعدية أبداً لأن التحقق من صدقها أو كذبها لا يأتي إلا بعد الخبرة الحسية [1].

وأمـــا عـــن المـــنطق فإن قضاياه أيضاً ضرورية الصدق وقبلية وهي صـــورية خالصة على اعتبار أنها قوالب فارغة من المضمون الحسي وضرورة صدقها وقبليتها يتأتيان لكونها لا تقول شيئاً إيجابياً عن الطبيعة بحيث تتعرض من أجله للخطأ وهي في صميمها قواعد وضعت لتكون أساساً يعتمد عليه في استخدام الرموز اللغوية .

وخلـــو القالـــب من كل مضمون وفحوى هو الذي يجعله معداً لأن يمتلئ بأية مادة مما يصلح أن ينصب فيه لكنك إذا ما ملأته بهذه المادة أو تلك خـــرج عـــن كونه مبدأ منطقياً مجرداً والمبدأ المنطقي نفسه لا يكون موضوع نقاش لأنه موضوع اتفاق ولكن الأفكار التي تجري على غراره هي التي يصح أن تكـــون موضعاً لاختلاف الرأي والجدل والذي يجعل هذه المبادئ المنطقية صادقة صدقاً ضرورياً وقبلياً هو أنها قائمة على نفس الأساس الذي قام عليه

---

(١) المصدر السابق صـ ١٧٧ ، ١٧٩ .

صـــدق الرياضة – وهو الاتفاق على استخدام الرموز بطريقة معينة – فقد اتفق مثلاً على أن " أو " بحيث يكون الشيء إما " ق " أولاً " ق " في الوقت الحاضر [١].

القضايا الإخبارية ومدى وثاقتها:

والجمـــل اللغوية بمختلف أنواعها المكونة من الكلمات التي تستمد معناها منها ولا بد أن يكون بين هذه الكلمات وحده تجعل منها رمزاً واحداً له من الخصائص ما ليس للكلمات المفردة الداخلة في تكوينها .

ولكن ما كل صف من الكلمات يكون جملة ذات معنى ، ولا بد من عـــدة شـــروط لكي يكون للجملة معنى وهي أن تكون بين كلمات الجملة رابطـــة تـــوحد بينها في رمز واحد له من الخصائص ما ليس لمفرداته . ويجب على المحلل – عندما يتعرض لتحليل عبارة من العبارات – أن يطمئن إلى أنها جملـــة واحدة ولا تكون الجملة واحدة إلا إذا كانت دالة على واقعة واحدة بســـيطة لا يمكـــن تحليلها إلى أبسط منها ولا يتأتى هذا إلا إذا كانت الأسماء الموجـــودة في الجملـــة أسماء أعلام وكذلك الصفات ينبغي أن تكون حالات جزئية بسيطة جداً لأن تبين الصدق من عدمه لا يتأتى إلا عندما تراجع جملة واحدة على واقعة محسوسة واحدة على أساس أن الوقائع التي يجب أن تراجع عليها الجمل للتأكد من صدقها أو كذبها يجب أن تكون حالات جزئية مرتبط بعضها ببعض .

ولتوضيح ذلك يقال إن العالم مكون من وقائع تصور كل واقعة منه – أو يمكـــن أن نتصورها – جملة ويقال عن الواقعة التي لا تنحل إلى أبسط

---

(١) المصدر السابق صـ ١٧٧ : ١٧٩ .

منها إنما واقعة ذرية ويقال كذلك عن الجملة الواحدة البسيطة التي تصورها أنها جملة ذرية .

ولا يكون والكلام ذا معنى إلا إذا كان يشير إلى واقعة ذرية واحدة محسوسة أو يمكن تحويله إلى جمل ذرية تتحدث كل منها عن شيء واحد جزئي محسوس كذلك وينبغي أن يتوفر شرط في القضية الذرية التي ينتهي إليها التحليل وهو أن لا تكون مما يمكن أن نجد له نقيضاً ينقضه وينفيه . بمعنى أن تكون الخبرة الحسية المباشرة مستحيلة التكذيب على أساس خبرات الأخرى أو على أساس خبرات الآخرين . وهذا الرأي لفريق من الوضعية الذي يربط بين عبارات اللغة والوقائع الخارجية في اختبار صدق القضايا التي تخبر عن العالم الخارجي يعتنقه الدكتور زكي نجيب محمود .

ولكن ما مدى درجة وثاقة القضايا التي تتحدث عن العالم الخارجي ؟

إن كل عبارة يقفز بها المتكلم مما يدركه إلى ما ليس يدركه مباشرة هي صواب على سبيل الاحتمال لا على سبيل اليقين مثل أن يرى لوناً أسود فيقول تعبيراً عما تنطبع به حاسته – الذاتية " أرى لونا أسود فلا يستطيع أن يستنبط منها استنباطا قياسيا ضروريا يقينياً إن ثمة موجات ضوئية طول الواحدة منها كذا . وهي التي سببت إدراكه للون الأسود لأن إدراك اللون الأسود ليس هو الموجة الضوئية المذكورة وكل ما يستطيع نحو مثل هذه العبارات هو البحث عن درجة احتمالها فإذا كانت عالية عدت صواباً ورتبنا عليها سلوكاً نرجح أن تبلغ بنا إلى ما نصبوا إليه [1].

---

(١) نحو فلسفة علمية صـ ٢٠٧

الميتافيزيقا المرفوضة في نظر الوضعية المنطقية :

إن الوضـــعية المنطقية ترفض الكلمات والعبارات الميتافيزيقية – على أساس أنها خالية من المعنى – وقلنا أنها تحدد الكلمات ذوات المعنى – كأسماء الأعـــلام أو الأسمـــاء الكلية التي يدل الواحدة منها على مجموعة وصفية قد تـــتحقق عناصـــرها في شيء بذاته من أشياء العالم الخارجي – أو الكلمات المنطقية مثل " أو " و " إذا " وما إليها مما لا يكون له مدلول خارجي . لكنه يربط أجزاء الجملة ليجعل منها وحدة وما عدا ذلك من الكلمات فهو خال من المعنى .

وقلنا إن الجمل اللغوية تستمد معناها من الكلمات ويجب أن يكون في الجملـــة رابطة تربط بين أجزائها مما يجعلها رمزاً واحداً لـــه من الخصائص ما ليس لمفرداته .

كما يجب أن تكون الجملة الواحدة دالة على واقعة بسيطة محسوسة كـــذلك ليمكن مراجعتها على الوقائع المحسوسة على أساس أن نتبين الصدق من عدمه – لا يتأتى إلا عندما يمكن مراجعة جملة واحدة على واقعة محسوسة واحـــدة – بهذا فقط يكون للجملة معنى وما عدا ذلك من الجمل فهو فارغ من المعنى .

والآن ينبغـــي أن نخطو خطوة أخرى فنتبين بعض الألفاظ والعبارات الميتافيزيقية التي صرح بعض أنصار الوضعية المنطقية بأنها ميتافيزيقية مرفوضة لأنها خالية من المعنى .

ويحـــدد الدكـــتور زكـــي نجـــيب محمود الغاية من كتابه :" خرافة الميتافيـــزيقا " بقولـــه : " والغاية التي يهدف إليها هذا الكتاب ، وهي أن "

الميتافيــزيقا " كلامها كله فارغ ... لا يرسم صورة ، ولا يحمل معنى وبالتالي لا يجــوز فــيها البحث واختلاف الرأي فلو أردنا أن نقصر كلامنا على ما يكــون له معنى ، وجب إطراحه الفلسفة – التأملية – وهو اسم آخر نطلق علــى الأبحاث الميتافيزيقية – وما يدور مدارها من صنوف التفكير بحيث لا يبقى بين أيدينا في دائرة العلم إلا العلوم الطبيعية والرياضية " [١].

ويقــول " الغايــة الرئيســية من هذا الكتاب هي بيان أن العبارات الميتافيــزيقية خالــية من المعنى مع تحديد " الميتافيزيقا " بأنها البحث في أشياء لا تقــع تحت الحس لا فعلاً ولا إمكاناً لأنها أشياء بحكم تعريفها لا يمكن أن تــدرك بحاسة من الحواس ومن بين هذه الأشياء غير المحسة التي يكتب عنها الفلاســفة الخير والجمال ، ولذلك فنحن نسلك العبارات التي تتحدث عن الخــير وعن الجمال في زمرة الميتافيزيقا بالمعنى الذي حددناه لها وبالتالي فإننا نرى العبارات التي تتحدث عن هاتين القيمتين – قيمة الخير وقيمة الجمال – خالية من المعنى ولا تصلح أن تكون علماً ولا جزءاً من علم [٢].

وهكــذا رأيــنا أن الدكتور زكي نجيب محمود أحد أنصار الوضعية المنطقية يحدد الغاية من خرافة الميتافيزيقا بأنها رفض الميتافيزيقا وحتى الآن فإن الميتافيزيقا المرفوضة هي الحديث عن كل ما لا يحس فعلاً أو إمكاناً ويتعرض إلى القــيم ومنها – الخير والجمال – ويرى أن الكلمات أو العبارة التي تدل علــيها هي كلمات ميتافيزيقية ومرفوضة لأنها خالية من المعنى على اعتبار أنها لا تدل على محسوس بالفعل أو بالإمكان .

---

(١) موقف من الميتافيزيقا . د . زكي نجيب محمود صـ ٣ دار الشروق ط ٤ سنة ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
(٢) المصدر السابق صـ ١١٠ .

وننـــتقل إلى مجـــال آخـــر . وهو أن دراسة الوجود المجرد سابق من الناحـــية المنطقية على أساس أنه قبل أن يعرف وجود شيء من الأشياء ينبغي أن يعـــرف الوجـــود المجرد – تلك الصفة المشتركة بين الأشياء – وإذا كان الوجود مجرداً مقدماً من الناحية المنطقية فإنه هو العلم السامي الذي يجب أن يعد دارس العلوم الجزئية نفسه للوصول إلى دراسته في نهاية الأمر على أساس أن كل ماعداه من دراسات جزئية هو وسيلة إليه .

بعـــد أن يقـــرر الدكتور / زكي نجيب محمود هذا يقول (هذا العلم الأول والعلـــم الأخـــير اللاهوت لأنك إذ تبحث في الوجود الخالص ، فإنما باحـــثاً في طبيعة الله وذلك هو موضوع الميتافيزيقا كما تصوره أرسطو وإذن فلـــو تخيرنا عبارات مما تقوله الميتافيزيقا بمعناها هذا ثم لو أظهر لنا تحليل هذه العبارات أنها كلام فارغ خال مما يجعل للعبارة معنى فلن يكون من حق الناقد أن يقول إننا قد اخترنا جانباً يؤيد مذهبنا وكان يمكن أن نختار جانب آخر لا يـــؤيده علـــى أننا نفضل فيما يأتي أن نجعل كلامنا عن المطلق لا عن الله إذ الموضـــوع الذي يناقشه كبار الفلاسفة حين يناقشون فكرة وجود الله لا يمت إلا بصـــلة واهـــية – ذلك إن كانت هنالك صلة على الإطلاق – بالله كما تفهمـــه الأديـــان وإنمـــا هو فكرة من تركيب العقل ولذلك يحسن استخدام المصطلح الفلسفي وهو كلمة المطلق بدل اللفظة الدينية الله في سياقها هذا[1].

وهكـــذا يـــرى أن الكلمـــات والعبارات التي تستخدم فيها كلمة " مطلق " أو " وجود " التي تتصل بعلم اللاهوت هي عبارة فارغة من المعنى وهي على هذا الأساس من الميتافيزيقا المرفوضة .

---

(١) المصدر السابق صـــ ٧٣ – ٧٤ .

ولكن كيف يتحدث عن رفضه للمطلق الذي اختار أن يكون حديثه عـــنه بدلاً من الحديث عن الله ؟ أنظر إليه يقول : " أما أن الميتافيزيقي يقول كلاماً مستمداً من الخبرة الحسية ، ويمكن الرجوع إلى الخبرة الحسية في تحقيقه فـــذلك مـــا لا أظـــن أحـــداً يزعمه لأن " المطلق " الذي قلنا أنه موضوع ميتافيزيقـــي غير منازع – ليس مما يرى بالعين أو يسمع بالأذن أو يحس بأية حاســـة أخرى إنه إذا كان بين المحسات أصبح محدداً بمكان معين وزمان معين وصفات معينة ولم يعد " مطلقاً " [١] .

ومهمـــا يكن من أمر هذا المطلق فإنه لا يجوز لنا أن نسأل عن كائن غير محدد بزمان ومكان يقول الدكتور / زكي نجيب محمود بعد أن يفرق بين نـــوعين مـــن المشكلات وهما المشكلات الصعبة الحل – لكن حلها ممكن – والمشكلات المستحيلة الحل استحالة منطقية يقول " وأما السؤال الثاني الذي نسأل به عن كائن فيما وراء المكان والزمان أي كائن لا يكون له الوضع ولا تكون له لحظة من زمن فاستحالة الإجابة عنه منطقية لا عملية فالذي ينقصنا هنا ليس هو الوثائق التي نستند إليها بل تنقصنا وسائل التصور ذاتها إذ ليس في خبراتنا أبداً ما يعيننا على تصور كائن لا يكون وجوده في نقطة من مكان أو في لحظـــة من زمن إننا نرفض المشكلات الميتافيزيقية لا لصعوبة حلها بل لأنهـــا مشـــكلات زائفـــة فهـــي بمـــثابة أســـئلة يستحيل منطقياً أن يكون لها جواب " [٢] .

وننتقل إلى مجال آخر هو مجال الحديث عن الكلمات والعبارات التي تـــدل علـــى قـــيم إذ يرى الدكتور / زكي نجيب محمود أن هذه الكلمات

---

(١) نحو فلسفة علمية صـــ ٧٠ – ٧١ .

(٢) نحو فلسفة علمية صـــ ٧٠ – ٧١ .

والعبارات فارغة من المعنى فهي إذن من الميتافيزيقا ويحصر كلامه في الكلمات والعـــبارات الأخلاقية على أساس : أن ما ينطبق عليها ينطبق على أمثالها من الكلمات والعبارات التي تعبر عن قيمة من القيم .

والكلمات والعبارات الأخلاقية خالية من المعنى لأنها تعبر عن انفعال نفســـي ولا تـــدل على شيء خارجي محسوس يقول " إننا سنقصر حديثنا فـــيما يـــأتي علـــى العبارات الأخلاقية التي ترد فيها الكلمات مثل " خير " و " واجـــب " .. الخ ، حصراً لدائرة البحث وتركيزاً لانتباه القارئ وذلك على اعتبار أن ما يجوز قوله عن العبارات الأخلاقية يمكن أن يقال كذلك عن العـــبارات الجمالية ، ومن حيث أن كلتيهما تشمل ألفاظاً دالة على " قيمة " – كائـــنة ما كانت – ومعظم مجهودنا الآن موجة إلى إثبات أن العبارات التي تتحدث عن قيمة شيء – " خيراً " كانت أو " جمالاً " – هي عبارة فارغة من المعنى " [١] .

ويقول " النظرية التي ندافع عنها هي : أن الحكم الأخلاقي تعبير عن انفعـــال المـــتكلم إزاء شيء ما محاولاً أن يحدث انفعالاً شبيهاً به عند السامع وإذن فـــلا صـــدق فيه ولا كذب لأن الانفعالات النفسية ليست مما يوصف بصدق أو كذب إذا لو كانت القضية الأخلاقية وصفاً لشيء خارجي لأمكن مـــراجعة صـــدقها بالمطابقـــة بينها وبين ذلك الشيء الخارجي ، لكن الحكم الأخلاقي كما قلنا ليس من هذا القبيل الوصفي ، ليس هو حكماً على واقع شيء عيني موضوعي بعيد عن ميول المتكلم ورغباته وأهوائه " [٢] .

---

(١) موقف من الميتافيزيقا صـــ ١١٢ .

(٢) المصدر السابق صـــ ١٣٤ ، ١٣٥ .

ويعد من الميتافيزيقا المرفوضة – إلى جانب اللاهوت وما يتصل به من نحو الوجود المجرد والمطلق والروح وخلود النفس والقيم والأبحاث التي تدور حـــول بعـــض المشـــكلات – الكلمات الفلسفية مثل " الكلمات الكلية " و " الإدراك الحسي " و " الجوهر أو الشيء في ذاته "

ويـــرى أن كلام الميتافيزيقي – على وجه العموم – فارغ من المعنى لأنـــه يســـبق قضايا لا هي تحصيل حاصل ولا هي مما يمكن أن يختبر بالتجربة ومـــع أن الميتافيزيقـــي يسوق تلك القضايا التي لا تتوفر لها الضمانات التي تجعلها غير خالية من المعنى يدعى أنه يخبر أخباراً حقيقية عما وراء الحس يفعل ذلك كله ولا يدري أن كلامه فارغ من المعنى .

" كلام الميتافيزيقي فارغ لا يحمل معنى ، فتعريف الجملة الميتافيزيقية هو أنها عبارة يراد بها أن تعبر عن قضية حقيقية لكنها في حقيقة أمرها لا هي بمعـــبرة عن تحصيل حال ، ولا عن فرض تحققه التجربة ولما كانت تحصيلات الحاصل والفروض التجريبية تستنفذ كافة القضايا ذات المعنى كان لنا ما يبرر التأكـــيد بأن ما تقوله الميتافيزيقا خال من المعنى . يزعم لنا الميتافيزيقي أنه قد جاءنـــا بعلـــم عن الحقيقة التي لا تدخل في نطاق الطبيعة المحسوسة المشهودة إذ هـــو يحدثنا عن أشياء تجاوز عالم الشهادة والحس فنسأله من أي المقدمات استخلصت نتائجك التي انتهيت إليها ؟ أليس يتحتم – كما يتحتم على سائر الـــناس – أن تبدأ بشهادة حواسك ؟ وإن كان ذلك كذلك فكيف يجوز أن تســـتنبط مـــن مقـــدمات حسية نتائج عن حقيقة أخرى خارجة عن نطاق الحـــواس ؟ إنك إذا بدأت بمقدمات تجريبية وحصرت نفسك فيما تنبئك به

---

(١) المصدر السابق صـــ ٥ : ١٧ .

فيستحيل أن تستدل وجود (شيء) أو (صفة) مما يخرج عن نطاق التجربة) [١] .

وقد يجيب الميتافيزيقي على ذلك قائلاً : لا إنني لم أبدأ رحلتي بشواهد مما تأتي به الحواس ، إنما اعتمدت على أداة أخرى لكسب ما كسبته من المعرفة بما يقع خارج حدود العالم التجريبي ، وتلك الأداة هي " الحدس " أو العيان العقلي المباشر ؛ فهذه الوسيلة الإدراكية أستطيع أن أعلم ما يستحيل على الحدس أن تجيئني به ... وحتى لو كنت استخلص نتائجي الميتافيزيقية اللا تجريبية من مقدمات تجريبية ثم تبين لكم أنني مخطئ في استنتاج ما هو لا تجريبي مما هو تجريبي فإنكم بذلك تشيرون إلى خطأ عقيدتي في سلامة استدلالي لكنكم لا يقيمون الدليل بذلك على أن النتائج اللا تجريبية في ذاتها مخطئة ؛ فقد تظل هذه النتائج صواباً على الرغم من خطئ أنا في الظن بأنها مستمدة من المقدمات التي زعمتها لها [٢] .

والوضعية المنطقية بناء على رفضها الميتافيزيقا – التي تنشد الحقيقة اليقينية ، وترى أن الموجودات يمكن وصفها بأنها حقيقة ، سواء كانت محسوسة أو غير محسوسة – وتصف الأشياء المطابقة للواقع بأنها حق أو صواب – تقلب هذا الوضع وترى " أن الحق صفة لا تصف بها شيئاً من الواقع نفسه ، بل نصف بها اعتقاد لدى فرد من الناس عن ذلك الواقع وبالتالي نصف بها عبارة يقولها صاحب الاعتقاد ليعبر بها عن اعتقاده فليس

---

(١) المصدر السابق صـ ٨١ ، ٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ٨٢ .

الحـــق في ذاته كائناً موضوعياً خارجياً حتى يجوز للفلاسفة أن يبحثوا فيه على هذا الاعتبار بل هو علاقة بين الاعتقاد من جهة وبين الأمر الواقعي المعتقد فيه مـــن جهة أخرى وتكون علاقة الحق قائمة بين طرفيها حين يكون بين طرفين تطابـــق بأي معنى من معانيه فالاعتقاد الحق هو ما له طرف خارجي يشير إليه والاعتقاد الباطل هو ما ليس لـــه طرف خارجي يشير إليه أو هو ما يشير إلى طرف خارجي إشارة لا تكشف عن طبيعته على نحو ما هي قائمة " [1] .

نشأة الميتافيزيقا في نظر الوضعية المنطقية :

هكذا ترفض الوضعية المنطقية الميتافيزيقا ، وتحدد الميتافيزيقا المرفوضة بأنهـــا كـــل مـــا لا يمكن أن يحس لأنه فارغ من المعنى تماماً ولكن إذا كانت الكلمـــات والعـــبارات الميتافيـــزيقية لا تفـــيد شيئاً فكيف نشأت وعاشت في الفلسفة على امتداد تاريخها حتى تبين خلوها من المعنى ؟

يتـــناول الدكـــتور / زكـــي نجيب محمود الإجابة على هذا السؤال في كتابـــية " خرافة الميتافيزيقا " و " نحو فلسفة علمية " في مواضع مختلفة من كـــلا الكتابين يقرر أن الكلمات الميتافيزيقية تشبه النقود الزائفة التي ينخدع بهـــا غـــير المحترفين من الصيارفة وهي غير ذات قيمة في عالم الاقتصاد أو هي تشبه ظرفاً يتداوله الناس مدة طويلة اعتقاداً منهم أنه يحتوي على أوراق مالية حـــتى يكتســـب الظرف قيمة النقد الفعلية إلى أن يأتي من يشك في الظرف فيفضـــه ليـــتأكد مما فيه فيجده فارغاً ولو تنبه الناس إلى ذلك من أول الأمر لبطل البيع والشراء به منذ زمن بعيد .

(١) نحو فلسفة علمية صـــ ٢٦٠ .

تلك العبارات الميتافيزيقية الزائفة نشأت على إحدى صورتين أولاهما : أن يدرس المتكلم في عبارته كلمة بغير معنى أي كلمة لا تشير إلى شيء من خبرات الإنسان الحسية فكلمة " جوهر " مثلاً كما يستعملها الفلاسفة الميتافيزيقيون حين يقولون مثلاً إن لكل شيء " جوهراً " وراء معطياته الحسية . والصورة الثانية التي قد تجيء عليها العبارات الزائفة ، هي أن يستخدم المتكلم ألفاظاً كلها من ذوات المعنى الخبري المفهوم ، لكنه يرصها على نحو لا يرضاه منطق اللغة في استعمالها المألوف ، كأن يقول – مثلاً – " العقل عنصر " [1] .

مقارنة بين الوضعية المنطقية ووضعية اوجست كونت :

إن وضعية أوجست كونت تتميز بثلاث خصائص واحدة منها هي : التي تسللت إلى وضعية فيينا المعاصرة ؛ فأما الخاصية الأولى في وضعية القرن الماضي تبدو في جانبها العملي إذ أن صواب الأفكار متصل بمدى ما تحققه للإنسان من مصالح فالمقياس الرئيسي لكل ما هو عملي أصيل هو قيمة المعرفة في حياة الإنسان ، وثانيها اهتمامها بالتطور التاريخي في مسائل التفكير وآخرها حرصها على المنهج التجريبي ، وهذه هي الخاصية الوحيدة التي تسلك ندوة فينا وإن إدراكها تطور على يد أعضاء هذه الندوة .

اعتبر كونت وأتباعه العبارات الميتافيزيقية قضايا أقل وضوحاً من قضايا اللاهوت وصرح بأن هذه العبارات قد أثارت مشاكل استعصى حلها على أذهان الميتافيزيقين جميعاً ، ومن ثم وجب رفضها والاكتفاء بقضايا المجال التجريبي لأن التثبت من صحتها في حدود الخبرة الحسية ميسور لكل باحث.

---

(١) نحو فلسفة علمية صـ ٦٩ ، ٧٠ ، موقف من الميتافيزيقا صـ ١٠٣ : ١٠٥ ، ونشأة الفلسفة العلمية صـ ١٨٤ ، ١٨٥ .

هـــذا هو أساس الوضعية الفرنسية في موقفها من ما بعد الطبيعة أما التجريبية المنطقية المعاصرة فإنها ترفض التسليم بالميتافيزيقا على أساس يخالف هـــذا الأساس تماماً ، لا تقيم رفضها للقضايا الميتافيزيقا على أساس أنها عديمة الـــنفع في حـــياة الإنسان ولا على أساس أنها لا تحمل برهاناً ولا تقبل حلاً ولكـــن علـــى أســـاس أنها كلام فارغ لا يحمل معنى يمكن وصفها بالصواب أو بالخطـــأ ليس ثمة عبارة ذات معنى لا يمكن التحقق من صدقها أو كذبها في حدود الخبرة الحسية ؛ أما منفعة المعرفة فلا قيمة لها في ندوة فينا بأي وجه من الوجـــوه من هنا كان الخطأ التوحيد بين وضعية القرن التاسع عشر ووضعية فيـــنا المنطقـــية ، وإن لم تـــوجد بيـــنهما هـــو ســـحيقة القـــرار لأن قولنا " لا تشـــغل نفســـك بعـــبارات لا تقبل برهاناً لأن مثل هذا الانشغال عديم الجدوى "

هذا القول يؤدي بنا في يسر إلى أن نقول " لا تشغل نفسك بعبارات لا تقـــبل برهاناً لأن هذا الانشغال عديم المعنى شأنه شأن العبارات التي دعت إليه " [(١)] .

وقـــد اعتـــبر أكثر الوضعين في القرن الماضي ما بعد الطبيعة مجموعة قضـــايا ذات معنى ولكنها لا تقبل برهاناً ولا جدوى من ورائها هذا إلى أن الوضـــعية المعاصرة لا تهتم بتحليل الفكر تاريخياً – كما يفعل كونت – لتبرر اســـتبعادها للـــتفكير الميتافيزيقي ، فهي تؤثر معالجة جميع الأفكار على غط واحد بصرف النظر عن مكانها من التاريخ ، ومن ثم بدا خلاف ملحوظ بين اتجاهين ، فالمقياس الوحيد لقيمة الأفكار والمفهومات عند الوضعية المنطقية إنما

---

(١) أسس الفلسفة د . توفيق الطويل صـــ ١٧١ ط ٢ سنة ١٩٥٥م .

يكون بتحليلها منطقياً للتثبيت من صوابها أو خطئها في حدود الخبرة الحسية أمــا عند كونت وأتباعه فيبدو التحليل مقياساً لقيمة المعرفة ، وتبدو العلاقة الوحــيدة المباشرة بين الوضعية القديمة والوضعية المعاصرة في اهتمام كلتيهما بالمــنهج التجريبي باعتباره المصدر الوحيد لكل حقيقة ومع هذا فإن دواعي الاعتقاد فيه مختلفة في الحالين كما أشرنا منذ حين [١] .

تهافت المبدأ الأساسي للوضعية المنطقية :

واعــتمد في نقد الوضعية المنطقية على اعتراض قوى شائع وفحواه أنــه بــناء علــى أن المعرفة الصحيحة في نظر الوضعية المنطقية نوعان فقط: وهما الرياضة والعلوم الطبيعية والوضعيون المنطقيون في ذلك أتباع " هيوم " في عــباراته القائلة " إذا تناولت أيدينا كتاباً – كائن ما كان – في اللاهوت أو في الميتافيزيقا فلنسأل هل يحتوي على أي تدليل تجريبي يدور حول الواقعة القائمة في الوجود ؟ .

لا ، إذن فاقــذف بــه في النار لأنه يستحيل أن يكون مشتملاً على شيء غير سفسطة ووهم " [٢] .

ويقــول الناقدون تعليقاً على هذا الموقف ؛ لكن هذه العبارة نفسها الــتي قالها " هيوم " لا هي تدليل رياضي حول الكمية والعدد ولا هي تدليل تجريبي يدور حول وقائع الوجود .

ويحــاول الدكــتور / زكي نجيب محمود الإجابة على ذلك فيقول : " وجوابــنا هــو أنهــا منطق أي تحليل أي فلسفة بالمعنى الذي نريد أن نحدد الفلسفة به .

---

(١) المصدر نفسه صـــ ١٧٢ .

(٢) موقف من الميتافيزيقا صـــ ٢٥ .

فأمامنا عبارات يقولها المتكلمون والكاذبون يقولونها لمن ؟ يقولونها لمن يسمعونهم أو يقرئونهم ، يقولونها لنا أفلا يكون من حقنا أن نستوثق أولا من صدق ما نسمعه أو قرأه " [١] .

ويحصر الدكتور زكي محمود الطرق إلى المعرفة الصحيحة في طريقين فيقول " وليس أمامي إلا هذان الطريقان في التحقق من صدق ما يقال طريق مـــراجعة الاســـتدلال الاستنباطي في حالة العلوم الطبيعية ، وطريق مراجعة المشـــاهدات للعـــالم الواقعـــي في حالة العلوم الطبيعية ومن أجل ذلك قبلت ما يقوله الرياضيون وعلماء الطبيعة " [٢] .

ويقـــال للدكتور زكي نجيب محمود إن التناقض قائم فعلاً فالوضعية المنطقـــية تقول إن المعرفة الممكنة منحصرة في قضايا الرياضة ، وقضايا العلوم التجريبية .

وهذه العبارة التي تحصر المعرفة الممكنة في هذين النوعين من القضايا لا بـــد مـــن أن تكون خاضعة لنفس المبدأ حتى تكون معرفة ممكنة وإلا كان الإصرار على تطبيق هذا المبدأ تحكماً لا مبرر له [٣] .

والدكـــتور زكي نجيب محمود يحس بهذا ويستثني هذه العبارة استثناءً تعســـفياً ويقـــول : إنها منطق والمنطق لا يخضع لمثل هذه المقاييس إن هذا قد يســـلم لـــــه لو أن المنطق الوضعي كان معترفاً به من الجميع أو من الغالبية العظمى على الأقل ولكن الواقع غير ذلك .

---

(١) المصدر نفسه صـــ ٢٦ .

(٢) ذاته .

(٣) الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه د . محمود عثمان صـــ ٤٦٢ .

ولجــوء الدكــتور زكــي محمــود إلى المــنطق ليحتمي به من تهمة التــناقض لا يكون صحيحاً إلا عندما تكون مبادئ المنطق ثابتة ومتفقاً عليها من الجميع .

كــيف والحال غير ذلك ؟ فإن مبادئ المنطق الوضعي ليست متفقاً علــيها لأنها ليست وحدها في الميدان فهناك المنطق البراجماتي وهو أكثر منها شــيوعاً لأن معظــم النظم التربوية أخذت (بنظرية جون ديوى " في التربية ومــن أهم المبادئ التربوية الديوية مساهمة الإنسان في خلق الحقائق والمبادئ ومــنها المــبادئ المنطقية وليس المنطق الوضعي والمنطق الديوي وحدهما في المــيدان بــل لا يزال هناك من يؤمن بمنطق أرسطو وما تفرع عليه . فالمنطق الوضعي إذن ليس سيد الموقف في الميدان .

هــذا كلــه يســمح لنا بالقول إن التناقض قائم فعلاً وأن استثناء الدكــتور زكــي نجيب محمود للعبارة التي تحصر المعرفة الممكنة في عبارات الرياضة والعلوم التجريبية – على أنها منطق – استثناء تعسفي . ولهذا لجأ إلى توضيح موقفه بضرب الأمثلة التي لا تغني شيئاً في النقاش الفلسفي .

وأنصار الوضعية المنطقية يحسون بضعف موقفهم بإزاء هذا التناقض . ولــيس أدل على هذا من عبارات " ويجشتين " أن ما أوردته في الكتاب من قضايا يدل على أن من يفهمني سيرى في النهاية أن تلك القضايا ليست بذات معــنى وذلك بعد أن يكون قد صعد على سلمها وخطا على درجاتها وأصبح فوقها . فيجب أن يقذف بالسلم – إن صح هذا التعبير – بعد أن يفرغ من استخدامه لصعوده [1] .

---

(١) موقف من الميتافيزيقا صـــ ٢٨ .

موقف د/ محمد البهي من د/ زكي نجيب محمود

يرى الدكتور محمد البهي أن مجموعة من الكتاب رددت الفكر الغربي في مصر منذ بداية القرن العشرين ، ترديد النافع منه الذي يصح أن يثمر في الجماعة الإسلامية الناهضة كالفكر العلمي في مجال التعمير والهندسة ... في مجال الطب .. في مجال الكيمياء .. في مجال الطبيعة أو الرياضة البحتة .. وإنما كان ترديداً لفكر المستشرقين أو للفكر المادي كما ساد في الغرب في القرن التاسع عشر رددت الفكر المادي ترديداً مشوهاً أو محرفاً [١].

ويتخذ كتاب " خرافة الميتافيزيقا " للدكتور زكي نجيب محمود مثالاً لهذا النوع من ترديد الفكر المادي الغربي في مصر ويرى أن الكتاب جعل غايته هي بيان أن العبارات الميتافيزيقية خلو من المعنى مع تحديد الميتافيزيقا بأنها البحث في أشياء لا تقع تحت الحس لا فعلاً ولا إمكاناً لأنها أشياء بحكم تعريفها لا يمكن أن تدرك بحاسة من الحواس [٢].

لم يذكر الكتاب في سطر واحد منه أن المراد من قوله " البحث في أشياء لا تقع تحت الحس لا فعلاً ولا إمكاناً هو الفلسفة الميتافيزيقية وحدها دون الحقائق الدينية كما صرح بذلك " أوكام " وبهذا كان يمكن أن يضع أمام قارئه من أول الأمر أنه يهدف إلى مناقشة البحث الفلسفي الإنساني الذي له طابع ما بعد الطبيعة أما الدين ورسالته ... أما الإسلام على وجه أخص فأمر آخر وبذلك يبتعد القارئ عن اللبس ويصون قدسية الدين في الوقت الذي يناقش فيه صنعة الإنسان وهي صنعته الميتافيزيقية .

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي صـ ٣٩ .

(٢) موقف من الميتافيزيقا صـ ١١ .

لكن الكتاب ذكر كلمة العبارات الميتافيزيقية من غير أن يفرق بين عبارات الأنواع والأجناس من جانب وعبارات الأعلام الشخصية من جانب آخر ، وبذلك لا يعرف القارئ أنه بصدد تحديد ألفاظ ومدى ارتباطها بمدلولها في واقع الأمر كما لا يعرف أن اسم الله جل جلاله ليس مصوناً فحسب عن هذا النقاش بل لا يدخل في دائرته بحال [١].

إنه يقول مطلقاً بدون تحديد (العبارة الميتافيزيقية التي تخبرنا عن شيء غير محس عبارة فارغة من المعنى لسبب بسيط وهو أنها ليست مما يجيز المنطق أن يكون كلاماً على الإطلاق فمتى يقبل الكلام عند المنطق ؟ المنطق يقبل الكلام إذا كان لدى السامع وسيلة لتحقيقه فإما أن يصدقه بعد التحقيق أو يكذبه أما الكلام الذي يستحيل بطبيعة تركيبه أن نتصور وسيلة لمراجعة صدقه أو كذبه فهو كلام خلو من المعنى [٢].

ونحن بدورنا نتساءل أي منطق له هذه الوظيفة ؟ نراه منطق الإنسان عامة ؟.. وهناك أنواع متعددة من المنطق : منطق الرياضة ومنطق الصورة والقياس ، ومنطق الفلسفة الوضعية .

لو حدد الكتاب هذا المنطق " بالمنطق الوضعي " لعرف القارئ أن هناك أنواعاً أخرى من المنطق تخالف هذه الوجهة من النظر ، ومن هنا يكون هو أما منطق محدد .. ولكن ليس من دافع لأن يجزم بأن المنطق الإنساني عامة – كما يوهم الكتاب – يحيل أن تكون هناك عبارات موجودة على سبيل الحقيقية وهي تلك العبارات التي مدلولاتها توجد فيما بعد الطبيعة ويزيد الكتاب في هذا الإبهام في عباراته التالية :

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي صـ ٢٤٠ .

(٢) موقف الميتافيزيقا صـ٧٨ .

" إن الميتافيزيقي لا يقول حين يدعي ما يدعيه إني أحلل لفظة إلى ما يساويها هو يصف كائنات يزعم وجودها بصفات معينة فإذا طلبت إليه أن يدلك على الخبرة الحسية التي من شأنها أن تطلعك على تلك الكائنات حتى ترى لنفسك إن كانت حقاً موصوفة بالصفات التي زعمها أو لم تكن أجابك بأنها ليست مما يحس ... وإذن هو موقف عجيب يقول كلاماً عن أشياء ، ثم يرفض أن يدلك كيف يمكن أن تلتمس الأشياء في خبرك لتصدقه أو تكذبه .

فلا هو على استعداد أن يحقق لنا ما يقوله بالخبرة الحسية – كما يفعل الذين يحدثوننا عن الأشياء الخارجية في العلوم أو في الحياة الجارية ولا هو بقانع أن يجيء كلامه تحصيل حاصل حتى تصفه بالصدق من غير التجاء إلى خبرة حسية .

وإذن فلا هو يقول عبارات تركيبية كالتي يقولها العلماء الطبيعيين ولا عبارات تحليلية كالتي يقولها علماء الرياضة .

فأي نوع من الكلام يقول ؟ كلام الميتافيزيقي فارغ لا يحل معنى .

" يزعم لنا الميتافيزيقي أنه جاء بعلم عن الحقيقة التي لا تدخل في نطاق الطبيعة المحسوسة المشهودة إذ هو يحدثنا عن أشياء تجاوز عالم الشهادة والحس فنسأله من أي المقدمات استخلصت نتائجك التي انتهيت إليها ؟ أليس يتحتم عليك – كما يتحتم على سائر الناس – أن تبدأ بشهادة حواسك وإن كان ذلك كذلك فكيف يجوز أن تستنبط من مقدمات حسية نتائج عن حقيقة أخرى خارجة عن نطاق الحواس ؟ إنك إذا بدأت بمقدمات

تجريبية وحصرت نفسك فيما تنبئك به فيستحيل أن تستدل على وجود " شيء " أو " صفة " مما يخرج عن نطاق التجربة " [١].

ثم يستطرد الكتاب فيقول (وإذا كانت العبارات الميتافيزيقية رموزاً فارغة خالية من الدلالة والمعنى وإذا كانت العبارات الميتافيزيقية كلاماً لا ينفع السامع شيئاً لأنه لا يدل السامع على شيء فكيف وقع هذا الوهم العجيب ؟ كيف تمت هذه الأسطورة الكبرى فامتلأت بها واشتد الجدل بين أصحابها ؟.

" نشأت الميتافيزيقا من غلطة أساسية .. وهي الظن بأنه مادامت هناك كلمة في اللغة فلابد أن لها مدلول ومعنى وكثرة تداول اللغة ووجودها في القواميس يزيد الناس إيماناً بأنها يستحيل أن تكون مجرد ترقيم أو مجرد صوت بغير دلالة لكن التحليل بين لك أن مئات من الألفاظ المتداولة والمسجلة في القواميس هي ألفاظ زائفة أو هي أشباه ألفاظ كما يسميها رجال (الوضعية المنطقية) وما أشبه الأمر هنا بظرف يتداوله الناس في الأسواق مدة طويلة على أنه يحتوي على ورقة من ذوات الجنيه حتى يكتسب الظرف قيمة الجنيه في المعاملات وبعدئذ يجيء متشكك ويفض الظرف ليستوفي من مكنونه ومحتواه وإذا هو فارغ وكان ينبغي أن يبطل البيع والشراء لو تنبه الناس إلى زيفه من أول الأمر . " [٢].

ترى أية كلمة تلك التي تتداول في كثرة وهي أشبه بالظرف الذي يحتوي على ورقة من ذوات الجنيه ويتداولها الناس في الأسواق مدى طويلة .. ولو تنبه الناي إلى ما فيها من زيف لبطل البيع والشراء أكل كلمات

---

(١) موقف الميتافيزيقا صـ ٨١ - ٨٢ .

(٢) المصدر السابق صـ ١٠٤ - ١٠٥ .

الميتافيزيقا على هذا النحو وجماهير الناس لا يعرفون الميتافيزيقا فضلاً عن أن يقفوا على مصطلحاتها ؟.

للميتافيزيقا سوق يتعامل فيه جماهير الناس وهي أبعد جوانب الفلسفة وأشدها عزلة عن الحياة العقلية العامة وحياة الرأي العام وهي حياة الجماهير.
ثم يقول الدكتور محمد البهي : (إن منطق الكتاب هو التعمية وعدم التفرقة :

أولاً : بين عبارات الأنواع والأجناس من جانب وعبارات الأعلام الشخصية والأفراد من جانب آخر .

ثانياً : بين الحقائق الدينية والحقائق الميتافيزيقية – كما صنع أرباب المذهب الاسمي – وهذا المنطق من السهل تحديد هذه الكلمة المتداولة في كثرة والتي ظن الناس منذ مدة طويلة أن لها قيمة كبيرة وهي زيف لا قيمة لها في التعامل لو تنبه الناس إلى ذلك بأنها الله وهكذا يكون لفظ الله فارغ ولا مدلول له وهو خرافة .

قصد التعمية هنا وتجاهل التفرقة التي التزمها أصحاب المذهب الاسمي كما رأينا لا تدل فحسب على قلة إدراك اللغة العلمية بل تدل أيضاً على أن " البتر " في النقل عن الغير يكاد يكون صفة من صفات التجديد في الفكر الإسلامي الحديث عند هؤلاء المرددين .) [(١)].

ولنترك سمة البتر التي وسم بها د / محمد البهي د / زكي نجيب لنقول إن ما عرضه الدكتور محمد البهي يكفي لاستنتاج النتيجة التي استنتجها وهي أن الكتاب يقصد التعمية وهو في الواقع يهدف إلى إنكار

---

(١)الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي . الدكتور محمد البهي : صـ ٢٤٣ الناشر مكتبة وهبة الطبعة الثانية عشر سنة ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

الحقائق الدينية وأرى أن الدكتور محمد البهي ليس في حاجة إلى الاستنتاج فإن الدكتور زكي نجيب محمود يشير إلى أن البحث في الوجود المجرد هو بحث في اللاهوت وهو ميتافيزيقا في نظر أرسطو ، ويعتبر بحثاً في الميتافيزيقا المرفوضة ويستعمل كلمة المطلق بدلاً من الكلمة الدينية الله ، ويرى أن السؤال عن المطلق سؤال لا معنى له لأنه لن توجد عليه إجابة في عبارة ذات معنى على أساس أنه لكي تكون العبارة ذات معنى ينبغي أن تدل على كائن محدد بالزمان والمكان والمطلق ليس كذلك .

أليست هذه إشارة قريبة من التصريح أن لفظ الجلالة الله يعتبر من الميتافيزيقا المرفوضة .

الفصل السابع : الفلسفة البراجماتيه

تمهيد :

يمكن القول بأن الفلسفة البراجماتية جاءت تعبيراً عن روح العصر الذي وضعت خلاله أسس الحياة الأمريكية والحضارة الأمريكية وهي تتمثل في جعل الحواس الطاهرة والمخيلة هي وسائلنا الوحيدة للمعرفة حيث إنه لا وجود لغير المادة . وبالتالي يجب إحلال العلم محل الدين .

فالفلسفة البراجماتيه ظهرت مطبوعة بالطابع العام الذي ميز فلسفة القرن التاسع وهو طابع الثورة ورد الفعل ضد الاتجاهات الميتافيزيقية التي حلقت طويلا في عالم المجردات دون أن تصل إلى شيء يطمئن إليه القلب ، أو يرتاح له العقل فما يقرره فيلسوف يهدمه آخر ، وذلك نظرا لاختلاف المعايير التي قامت عليها هذه الفلسفة ، وذلك ما يشير إليه جيمس بقوله : ولم يتفق الفلاسفة في وقت ما على معيار واحد واقعي تختبر به حقيقة ما هو في الواقع حق [(١)] .

كما أنها قد سارت على غير أساس من الوحي السماوي الصادق ، ومن هنا ولت الفلسفة في القرن التاسع عشر وجهها نحو مجالات الواقع المحسوس ، ومن هنا اختلف طابعها عن طابع الفلسفة القديمة . هذا ويمكن أن نوجز خصائص الفلسفة الميتافيزيقية فيما يلي :

١) البحث في الوجود بما هو موجود ، أي الطبائع العامة والحقائق الكلية.

---

(١) انظر التجربة الدينية في الفلسفة البراجماتية د/ سعد صالح . بحث بحولية كلية أصول الدين بالزقازيق ص ٢٠ العدد الثالث ١٤١٢هـ - ١٩٩١ ، العقل والدين . وليم جيمس صـ ١٧ ترجمة د/ محمود حب الله القاهرة ١٩٤٥ .

٢) البحث عن الحقيقة للحقيقة وحدها بصرف النظر عن النتائج المترتبة عليها ، وبذلك فصلت بين المباحث النظرية والمباحث العملية حيث كانت الحياة في خدمة الفكر وليس الفكر في خدمة الحياة [1] .

٣) اعتمدت على المنهج العقلي ، وذلك طبقا لطبيعة الموضوع الذي اضطلعت به وأما طابع الفلسفة في القرن التاسع عشر فكان على النقيض من ذلك .

- إذا اهتمت الفلسفة بقضايا الإنسان الفرد وحاولت أن تعالج مشكلاته الراهنه على قدر طاقته .

- وأكدت وجود الإنسان الفردي والاجتماعي وأحلته محل الآله .

- وأسقطت من اعتبارها معظم قضايا الميتافيزيقا .

- وأنكرت قيام الوجود العام ، وانصرفت عنه إلى دراسة الواقع المحسوس .

- انصرفت عن النظر العقلي المجرد الذي يهدف إلى كشف الحقيقة لذاتها إلى البحث الذي يهدف إلى تغيير الواقع من خلال الحقيقة واعتبارها مجرد أداة للتحكم في السلوك البشري .

- وأغفلت المناهج العقلية والنقلية ، واعتمدت أساسا على مناهج الحس والتجربة المادية [2] .

هذا وقد ظهرت هذا الفلسفة نتيجة عده عوامل ساعدت على ظهورها وهي :-

---

(١) انظر . مشكلات فلسفية د/ محمد فتحي الشنيطي صـ ١٠١ . القاهرة ١٩٥٧ نقلاً عن التجربة الدينية د/ سعد صالح صـ ٢٠ .

(٢) التجربة الدينية في الفلسفة البراجماتية د/ سعد صالح صـ ٢١ .

١- ظهور نظرية التطور التي قال بها داروين فقد كان لظهورها أثر بالغ على كثير من الفلاسفة والمفكرين ومن بينهم فلاسفة الفلسفة البراجماتية .

فقد قامت هذه الفلسفة على أساس قانون البقاء للأصلح . وبذلك مهد لفكرة ارتباط الحقيقة بالمنافع التي تؤدي في الحياة .

فالإنسان يستخدم الصيغ العقلية لحفظ وجوده ، ويستطيع أن يستبدل بها غيرها دون أن يفوته النجاح العملي . وقد بنى (جون ديوي) على هذه الفكرة " براجماتية الزرائع " [1].

٢- تقدم العلوم السيكولوجية ، فقد تطورت علوم النفس وقالت إن كل شيء في العقل يهدف إلى غاية معينة – وكان وليم جيمس أشهر مؤسسي البراجماتية من كبار علماء النفس وهو صاحب (قانون المنفعة) في علم النفس .

٣- الحاجات الدينية : يقول (جان قال) في كتابه طريق الفيلسوف لابد من أن نضع في اعتبارنا الحاجات الدينية في البلدان التي ظهرت فيها البراجماتية كبريطانيا وأمريكا ، وهذه الظاهرة ملحوظة في جانب خاص من جوانب فلسفه وليم جيمس .

وفي فرنسا ظهر الجانب الديني من البراجماتيه واضحا في نظرية : (ليرو) القائلة : إن الاعتقاد في حدوث المعجزات يساعد على تحقيقها ، ومع ذلك فقد كان بعض البراجماتيين ملحدين مثل (جون ديوي) الذي جاهر بإلحاده وأصدر بيان الإنسانيين [2] .

---

(١) نفس المصدر ، وانظر : تاريخ الفلسفة الحديثة . يوسف كرم . صـ ٤١٤ . ط دار المعارف ١٩٩٦ .

(٢) انظر : التجربة الدينية . د/ سعد صالح صـ ٢٢ .

٤- الظروف الاجتماعية : فقد كانت هذه الفلسفة ثمرة التفاعل بين الأفكار التي حملها المهاجرون الأوربيون إلى أمريكا وبين البيئة الجديدة التي نشأوا فيها ، فقد نزل المهاجرون في أراضي بكر معتمدين على سواعدهم ، فالمعول في حل المشكلات التي يواجهها المهاجر هو العمل والكفاح ومن هنا ارتبط التفكير بالعمل ، وأصبحت النظريات والمذاهب مجرد فروض للعمل تمتحن بما ينتج عنها في المواقف العملية ، وهي قابلة للتغيير طبقا لمقتضيات الواقع ، هذه الروح التي تمثل كل ذلك هي التي عرفت باسم البراجماتية ، وهو اسم يطلق على الروح الأمريكية [(١)] .

وأول من صاغ هذا المصطلح هو " تشارلز بيرس " في يناير سنة ١٨٧٨ والذي يعد الأب الروحي للبراجماتية ، ومعناه - عملي أو صالح لغرض معين ، أو يؤدي الغرض المطلوب ثم تناوله (وليم جيمس) وفصله في نظام فلسفي حتى أصبحت البراجماتية تعرف بوليم جيمس ويعرف بها [(٢)] .

تعريف البراجماتية :

البراجماتية مذهب فلسفي اجتماعي يقول بأن الحقيقة توجد في جملة التجربة الإنسانية : لا في الفكر النظري البعيد عن الواقع . وأن المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة ، وأن صدق قضية ما : هو في كونها مفيدة للناس وأن الفكر في طبيعته غائي [(٣)] .

---

(١) نفس المصدر ، وانظر : جون ديوي . د/ أحمد الأهواني صـ ٨٢ دار المعارف سلسلة التوابع ١٩٦٨م .

(٢) انظر: البراجماتية - يعقوب فام . صـ ١٣١ . الهيئة المصرية العامة للكتاب.سلسلة الألف كتاب الثاني . ١٩٩٨ م .

(٣) انظر : الموسوعة الميسرة في الاديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة أشرف . د/ مانع بن حماد الجهني . جـ ٢ صـ ٨٤٢ . نشر دار الندوة العالمية ط٣ ١٤١٨ هـ .

المعرفة عند البراجماتية :

لم تتفق كلمة الفلاسفة الذين تعرضوا لبحث مسألة المعرفة على وسيلة مثلي لها ، فقد تفرقوا إلى اتجاهات ثلاثة ، أخذ كل اتجاه بالوسيلة التي رآها نافعة ومعولاً عليها في الوصول إلى المعرفة اليقينية .

وجاءت هذه الاتجاهات على النحو التالي :-

[أ] العقليون :

وفيه يرى أنصاره أن العمل المستقل عن التجربة هو مصدر المعرفة فهو الذي يفسر نفسه ، كما أنه هو الذي يفسرلنا العالم الخارجي .

فهو نور الفطرة الذي يمدنا بحقائق الأشياء ، على خلاف الحواس التي غالبا ما تكون خادعة أو مخدوعة أو مختلطة بالأوهام .

[ب] الحسيون :

وهو على عكس الاتجاه الأول فهو يرفض جعل العقل مصدراً للمعرفة ، بل إنه يجعل من الحس مصدراً وحيداً للمعرفة ، فنحن نرى الأشياء والظواهر ونحسها ، ثم نعرفها وكل ما نعرفه يأتي إلينا عن طريقة الحواس فلكي نحصل على معرفة صادقة لا بد من سوق الفكرة إلى الطبيعة الثانية للأشياء .

[جـ] النقديون :

وهؤلاء لا يقصرون المعرفة على العقل وحدة أو الحواس وحدها ، وإنما جعلوا منهما معاً مصدراً للمعرفة ، ويحددون لكل منهما دوره الخاص به[١] .

---

(١) انظر : مدخل إلى الفلسفة وأصولها . د/ محمد علي أبو ريان صـــ ٢٤٠ وما بعدها . دار المعرفة الجامعية . ط٤ . ١٩٩ :

أما بالنسبة للفلسفة البراجماتية فهي واحدة من الفلسفات المعاصرة التي قدمت وجهة نظرة بالنسبة للمعرفة رأت فيها أن الفكرة هي مجال العمل، إذ أنه لا قيمة لأية فكرة إلا بمقدار ما يترتب عليها من نتائج أو أثار .

فالمعرفة عند البراجماتية إداة لتعمل المنتج ، وصدق الفكرة معناه التحقق من منفعتها بالتجربة ؛ ولهذا اعتبروا وسيلة الإنسان الوحيدة للوصول إلى المعرفة هي التجربة . فالمعرفة في نظرهم لا يعترف بها إلا بمقدار النفع والاستفادة بنتائجها [١] .

فالفلسفة البراجماتية تري أن المعرفة تتم عن طريق التجربة . فها هو " وليم جيمس " أحد رواد هذه الفلسفة يؤكد على هذا المعنى فيقول : لقد ارتضيت فيما يتعلق بتطرية المعرفة ، المذهب التجريبي ، وآمنت بتطرية عملية ، وهي أنه يجب علينا أن نسير في تجاربنا ونمضى في تفكيرنا حول هذه التجارب ؛ لأن أفكارنا لا تتطور نحو الكمال إلا بهذا السبيل ، فكل معرفة تأتي من غير هذا الطريق خطأ عظيم ، وعندي أن تاريخ الفلسفة يشهد بذلك [٢] .

وما أعلنه " جيمس " أكده " جون ديوي " فقد تحدث عن البراجماتية في صدر كتابة " المنطق نظرية البحث " فنراه يذكر أن هذا الكتاب براجماتي من أوله إلى أخره ، إذ نظرنا إلى البراجماتية نظرة نؤولها تأويلاً سليماً ، وأعنى به أن نستخدم النتائج على أنها اختبارات لابد منها للدلالة على صدق القضايا ، على شرط أن نتناول هذه النتائج من حيث هي عمليات يمكن

---

(١) انظر : النسبية وتطبيقاتها . د/ أحمد رمضان صـ ٨١ . مكتبة الإيمان بالمنصورة . ط١ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

(٢) انظر : العقل والدين . وليم جيمس صـ ١٦-١٧ . ترجمة محمود حب الله . ط دار أحياء الكتب العربية ١٩٤٩م .

إجراؤها ، ومن حيث هي وسائل تؤدي إلى حل المشكلة الخاصة ، التي قد استدعت تلك الإجراءات [١] .

فالأفكار إذن في الفلسفة البراجماتية تجريبية ليس إلا ، والحقيقة لا تكون كذلك إلا إذا كانت تجريبية عملية حتى يتسنى تعديلها أو نبذها أو تأييدها أو إثباتها على محك النتائج الحادثة بمقتضى العمل بهذه الأفكار [٢] .

ومعنى هذا أن الحقائق التي لا تكـــون تجريبية فـــلا وجود لها ، ولا اعتداد بها .

والمتأمل في الكلام السابق يدرك أن كلا من جيمس وديوي يدافع بشده عن المذهب التجريبي ويؤمن به ؛ بل أن كلا منهما تجريبي متطرف ، فقد جعل جيمس العقل منفعلاً بالطبيعة ، منقاداً لها كما أنه جعل صور المحسوسات والروابط التي تربط بينها مستمرة من الخارج .

فالفلسفة البراجماتية من أشد الفلسفات إيمانا بالمذهب التجريبي ومعارضة ونقداً للمذهب العقلي

ويؤكد على ذلك أحد الباحثين عند حديثة عن فلسفة وليم وجيمس فيقول : إن فلسفة جيمس معارضة للمذهب العقلي إلى حد إنكار التعارض بين الذات والموضوع ، بل وصف وليم جيمس نفسه فلسفته بأنها : تجريبية متشددة وهو يدفع بفكرة إمكان الموجودات إلى حدها الأقصى بالقول بنظرية أسماها **Tychism** أي المصادفة [٣] .

---

(١) انظر : المنطق نظرية البحث جون ديوي. ترجمة د/ زكي نجيب محمود صـــ ٤٨ ط دار المعارف . مكتبة الدراسات العربية .

(٢) انظر : الفكر المادي الحديث د/ محمود عتمان صـــ ٣٨٠ .

(٣) انظر الفلسفة المعاصرة في أوربا . إ . م. بوشنسكى . ترجمة عزت قرني صـــ ١٩٥ سلسلة عالم المعرفة. العدد ١٦٥ .

ويتحدث " رسل " عن ذلك فيذكر : إن جيمس أخذ على عاتقه إثبات أن الثنائية التقليدية للذات والموضوع عقبة في وجه الفهم السليم لنظرية المعرفة ، ففي رأي جيمس أن من الواجب التخلي عن فكرة الوعي الذاتي بوصفه كياناً يوجد في مقابل موضوعات العالم المادي ، وهكذا يبدو له تفسير المعرفة على أساس تقابل الذات والموضوع ، كما لو كان تشويهاً عقلانياً معقداً ليس على أية حال تجريبياً بالمعنى الصحيح ، وذلك لأننا لا نملك في الواقع شيئاً يتجاوز نطاق التجربة الخالصة التي ينظر إليها على أنها الامتلاء العيني للحياة في مقابل الفكر التجريدي اللاحق فيها وتصبح عملية المعرفة علاقة بين اجزاء مختلفة من التجربة الخالصة [1] .

ويؤكد ذلك دكتور زكريا إبراهيم فيقول إن الطابع العام لفلسفة وليم جيمس تجريبية متطرفة تريد أولاً وقبل كل شيء أن تعمل على مناهضة سائر النزعات المثالية التي اشتطت في التفكير المجرد حتى انقطعت بالواقع ، ومَن هذه الناحية قد يصح القول : بأن فلسفته تعارض المذهبية التي تريد أن تدخل الكون بأكمل في مركب عقلي معد من ذي قبل ، بغية تفسير شتى الموجودات بالرجوع إلى مبدأ عقلي واحد [2] .

ويدلل " جيمس " نفسه على نزعته التجريبية المتطرفة فتراه يهاجم آية أفكار قبلية غريزية لا دخل للتجربة فيها فيقول : " إن البراجماتي يولي ظهره بكل عزم وتصميم – وإلى غير رجعة – لعدد كبير من العادات الراسخة المتأصلة العزيزة على الفلاسفة المحترفين ، إنه ينأى بعيداً عن التجريد ، وعن عدم الكفاية ، ويعرض عن الحلول الكلامية وعن التعليلات

---

(١) انظر : حكمة الغرب . رسل . ترجمة د/ فؤاد زكريا جـ ٢ صـ ٢٤٦ سلسلة عالم المعرفة العدد ٧٢ . ١٩٨٣ .

(٢) انظر : دراسات في الفلسفة المعاصرة . د/ زكريا إبراهيم جـ١ صـ ١٧ . مكتبة مصر للطباعة .

القبلية الدرئية (السابقة على التجربة) وعن المبادئ الثابتة ، وعن ضروب المطلق والأصول المزعومة ، وهو يولي وجهه شطر الاستنادية والمحسوسية والكفاية ، شطر الحقائق والوقائع ، شطر العمل ، والأداء والمزولة وشطر القوة " [١] .

والناظر في هذا النص يدرك أن هذه الفلسفة تجريبية مادية فهي لا تقيم وزنا لأية أفكار فطرية قبلية ، كما أنها لا تعترف بأية عادات أو تقاليد سابقة على التجربة الحسية . فالتجربة التي هي أساس علم الطبيعة هي أساس المعرفة .

هذه وجهة نظر أنصار الفلسفة البراجماتية في المعرفة نلمح فيها تأثراً واضحا بالنزعة التجريبية المتطرفة التي انطلقت منها هذه الفلسفة ، ورأت من خلالها أن أفكارنا وآراءنا تتطور إلى الكمال .

الحقيقية عند البراجماتية :

الحقيقية عند رواد الفلسفة البراجماتية ليست خالدة ولا ثابتة وإنما هي نسبية متغيرة من شخص لأخر ، فليس هناك حق مطلق في المسائل الطبيعية ، وليس هناك كذلك حق مطلق في الأحكام الخلقية .

فالحقيقة شيء محسوس جزئي وموجود في عالمنا الأرضي ، وهي في تغير وتطور حسب إفادتنا منها . فالحقيقة أمر ذاتي مرده إلى الفرد والمنفعة . وذلك على حد قولهم .

وقد يكون في العبارة التالية التي قالها (بيرس) أهم خصائص هذا المذهب . إذا كانت لديك فكرة وأردت تحديداً لمضمونها ، فانظر ماذا عسى

---

(١) انظر : البراجماتية . وليم جيمس . ترجمة د/ محمد العريان صـ ٧١ نشر دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٥ م .

أن يكون لها من نتائج تطبيقية في دنيا العمل ، ثم إجمع هذه النتائج العملية معا ، يكن لك قوام فكرتك ، وبعبارة أخرى إن قولك : إني أعرف كذا مساو لقولك : إني أعمل كذا ، وما ليس في وسعك أن تعمل به شيئا لا يكون لك علم به ؛ لأن علما بلا عمل يؤديه كلام ينقض نفسه بنفسه[١] .

فالحقيقة عند البراجماتيين أمر نسبي ، وهي تصنع تماما كالصحة والثروة والقوة في سباق الخبرة ومجراها ، فالأشياء تعد حقيقية عندما تتطابق في تكوينها مع أفكارنا عنها ، وفي نفس الوقت الذي اختبرناها فيه ، من خلال تجربة الاثنين : الأشياء والأفكار ، في مزج متبادل بينهما [٢] .

والحقيقي عندها هو " المطلوب النافع الموافق في سبيل تفكيرنا تماماً مثلما ، أن الصحيح ليس سوى المطلوب النافع في سبيل سلوكنا [٣] .

والخلاصة:

أن البراجماتيين يعدون العلم صناعة خاصة أو مطابقة لبعض حاجات النشاط البشري . ولا جرم أن هذا الاعتبار الجريء ينتج نتيجة خطيرة ، وهي أنه يخلع على الحقيقة معنى جديدا ، مجمله : أن كل ما يحقق نفعاً أو يضمن نجاحاً في الحياة هو وحدة الحق اليقيني . ولما كان هناك غالباً عدة وسائل تحقق النجاح بإزاء طرف بعينه لا يتبدل ، ولما كان هناك أيضاً حاجات مختلفة حسب تعدد الأفراد واختلاف مشاربهم وغاياتهم ، فقد وضع

---

(١) انظر : نظرات في الفلسفة الحديثة د/ أحمد الجمل صـ ٢٩٣ .دار الطباعة المحمدية ط١ ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .

(٢) انظر : تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال ٢٠٠ عام . بتركاز . صـ ٢١٢ . ترجمة حسني نصار . مراجعة . مراد وهبة . الأنجلو المصرية ١٩٧٩ م .

(٣) انظر : البراجماتية . وليم جيمس صـ ٢٦٢ .

البراجماتيون هذه القاعدة الأولية وهي : كل قضية عقلية تنتهي إلى نتيجة عملية تكون حقة ، وإذا اقتادتنا إلى النتيجة ذاتها اقتياداً واقعيا كانت مشروعة . وينجم عن هذا إمكان أن تكون علومنا مغايرة لذواتها الراهنة دون أن يخرجها ذلك عن أن تكون علومنا في رأي البراجماتية حقائق يقينية ما دام أنها وسائل للعمل تنتهي إلى نتائج واقعية [١] .

وبذلك فقد وضعوا مقياساً جديداً ، لوزن الأفكار والفصل فيها بين الحق والباطل وهو مقدرة الفكرة المعينة على إنجاز أغراض الإنسان في حياته العملية . فإن تضارب الآراء وتعارضها ، كان أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها ، أي ذلك الذي تنهض التجربة العملية دليلاً على فائدته . والأفكار التي لا تحقق قيمة عملية ولا يوجد لها آثار نافعة فيما تصادف من تجارب الحياة ، فليست من الحقيقة بشيء ، بل يجب اعتبارها ألفاظاً جوفاء لا تحمل من المعنى شيئاً .

فمرد الحقائق جميعاً في هذا المذهب إلى حقيقة عليا في الوجود ، هي الاحتفاظ بالبقاء أولاً ، ثم الارتفاع بالحياة نحو الكمال ثانياً . فكل فكرة يمكن استعمالها كأداة للوصول إلى تلك الحقيقة العليا فهي حق صريح وحقيقة يجب تصديقها ، وكل فكرة لا تصنع شيئاً في هذا المضمار فلا يصح الأخذ بها [٢] .

---

(١) انظر :المعرفة عند مفكري الإسلام . د/ محمد غلاب صـ ٥٧- ٥٨ . الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦

(٢) انظر : فلسفتنا محمد باقر الصدر . صـ ١٦٤ دار التعارف للمطبوعات ط ١٣ / ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

وبناء على ذلك نجد أن الحقائق عند البراجماتيين ليست مطلقة بل هي نسبية متغيرة .

وذلك ؛ لأن الحقيقة عند " بيرس " هي ما يتفق عليه كل الباحثين ويمكن اكتشافها باستخدام وسائل العلم . وعند " جيمس " و " ديوى " هي شيء يصنع مثل الصحة والثروة ... يصنعها الإنسان بكفاحه ونضاله ليستفيد من الوجود . وقد ربطها " ديوى " بالبحث ، فما يؤدي إلى حل للمشكلة – فكريا أو عمليا – فهو حقيقي [١] .

الأخلاق عند البراجماتية :

من المعلوم أن النظريات الميتافيزيقية قامت على أساس وجود قيم عليا ، ومثل ثابتة ينبغي على الإنسان أن يرتقى إليها ، ويتسامى بنفسه وسلوكه من خلالها ، فهي النور الذي يضئ للإنسان ظلمات هذه الحياة ، كما أنها المنهج المستقيم الذي من خلاله يعيش الإنسان حياته متنعماً بها ، أمناً فيها ، وهذه القيم كثيرة من أهمها الحق والخير ، والجمال .

إلا أن رواد الفلسفة البراجماتية رفضوا فكر التسليم بفكرة القيم الثابتة . فليس هناك حق في ذاته ؛ أو خير في ذاته . لأن الإنسان هو الخالق الوحيد للقيم

ويتحدث جيمس عن موضوع الأخلاق في محاضرة لها ألقاها في نادي " بيل " بعنوان فلسفة الأخلاق والحياة الخليفة فيقول : الغرض الرئيسي من

---

(١) انظر : البراجماتية وموقف الإسلام منها . رسالة دكتوراه إعداد الباحث د/ أحمد رمضان صـــ ٥٥ كلية أصول الدين بالقاهرة ١٤١٢هـــ / ١٩٩١م .

هذا الموضوع هو تبيين أنه من المستحيل أن تكون فلسفة أخلاقية ، ووضع قواعد نظرية لها قبل وجود التجارب الفعلية ، وتبيين أن كل منا يساهم في بناء مدلول الفلسفة الأخلاقية ، كما يساهم في بناء الحياة الخلقية للجماعة الإنسانية . وبعبارة أخرى . تبيين أنه لا يمكن أن يكون هناك حق مطلق في الأحكام الخلقية ، كما أنه ليس هناك حق مطلق في المسائل الطبيعية [١] .

وقول " جيمس " هذا يسوى بين الأخلاق والطبيعة في أن كلا منهما خاضع للتجربة الإنسانية . فلا يمكن تكوين فلسفة أخلاقية أو قواعد نظرية للأخلاق عن طريق غير تجريبي . وأن الإنسان هو الذي يبني الفلسفة الأخلاقية والحياة الخلقية للجماعات الإنسانية . ومن هنا لا يمكن أن يكون هناك أحكام أخلاقية مطلقة .

ولكن ما هو الطريق الذي يؤدي إلى ظهور القواعد الأخلاقية ، وبناء الحياة الخلقية للجماعات الإنسانية هذا عن طبيعة الأخلاق أما عن الطريق إليها ؟ فيقول " جيمس " :

(أن علم الأخلاق فيما يتعلق بالناحية المعيارية مثل العلوم الطبيعية في أنه لا يمكن استنباطه كله مرة من مبادئ ذهنية ، بل لا بد أن يخضع للزمن وأن يكون مستعداً ؛ لأن يغير من نتائجه من آن لآخر .

والغرض المبدئي في كليهما ، طبعا ، هو أن الآراء الدائمة حق وأن القانون المعياري الحق هو ما يعتقده الرأي العام ، وأنه من الحماقة حقا

---

(١) انظر : إرادة الاعتقاد – وليم جيمس – ترجمة دكتور محمود حب الله صـ ٧٩ ، ط دار أحياء الكتب العربية

بالنسبة لكثير منا أن يحاول وحده التجديد في الأخلاق أو في العلوم الطبيعية ولكن الزمن لا يخلو أحيانا من أن يوجد فيه بعض الأفراد الذين لهم هذا الحق من التجديد ، وقد يكون لآرائهم ولأفعالهم المجدد ، بعض الأثر المحمود . فقد يضعون مكان القديم من (قوانين الطبيعة) أخرى خيرا منها وقد يوجدون بمخالفتهم القواعد القديمة في ناحية ما ، حالة أكثر مثالية وكمالات من تلك التي كانت تكون تحت تأثير القواعد القديمة) (١) .

ومعنى هذا : أن " جيمس " يرى أن علم الأخلاق مثل العلوم الطبيعية مستعد للتغيير من نتائجه من آن إلى آخر على مر الزمن . على أساس أن الآراء الدائمة حق ، وأن القانون الحق هو ما يعتقد الرأي العام . وأنه قابل للتغير كلما تغير الرأي العام . وقد يتغير الرأي العام بتأثير أحد الأفراد هكذا يرى " جيمس " أن الأحكام والقواعد الأخلاقية تجريبية ومتطورة مع الزمن ولا ثبات لها إلى أن ينتهي الإنسان من على الأرض (٢) .

ولكن ماذا عن القول بوجود إله يحفظ للأحكام والقواعد الأخلاقية الدوام والاستقرار ؟ يتناول " جيمس " هذه المشكلة ، فيقول : (إنه يبدو لي أيضاً – وتلك هي نتيجتي النهائية – إن العالم الخلقي المتسق المنظم الذي يبحث عنه الفيلسوف الخلقي ، لا يمكن أن يوجد كاملا إلا حيث توجد قوة مقدسة ذات مطالب عامة شاملة .

---

(١) المصدر السابق صـ ١٠١.

(٢) الفكر المادي الحديث د/ محمود عثمان صـ ٣٨٤ . نشر الدار الإسلامية للطباعة والنشر .

فإذا وجد مثل هذه القوة فإن منهجه في إخضاع أحد المثل للآخر يكون المنهج الصحيح لتقدير القيم ، وتكون مطالبه أبلغ أثرا ، ويكون العالم المثالي أكثر العوالم ممكنة التحقيق شمولا ، وإذا كان موجودا الآن فلابد أن يكون قد علم بالفعل تلك الفلسفة الخليفة التي نبحث عنها ، وعلم أنها النموذج الذي يجب أن نعمل للوصول إليه دائما . لذلك ينبغي لنا ، كفلاسفة ، ومن أجل تحقيق غاياتنا من أيجاد نظام أخلاقي واحد ، أن نفترض وجود الإله وأن نتمنى انتصار الدين على اللادينية . ولكنا لا نعرف تماما ما هي معلومات ذلك المفكر الإلهي حتى ولو كنا متأكدين من وجوده . وهكذا يؤدي افتراضه في النهاية إلى التحرر من خواطرنا القوية ولكن الأثر عام بالنسبة لكل الناس حتى ولو لم يكن لهم اهتمام بالفلسفة . فليس الفيلسوف الأخلاقي مخالفا جوهرية للرجل العادي) [1] .

ومن هذا يمكن تلخيص وجهة نظر " جيمس " : بأن افتراض وجود إله يضمن استقرار الأحكام والقواعد الأخلاقية ممكن ، ولكنه يثير مشكلة بإزاء هذه النتيجة هي : أننا على فرض تأكدنا من وجود اله لا نستطيع أن نصل إلى معلوماته التي يجب أن نعتمد عليها في معرفة النظام الأخلاقي ، وعليه فلا يمكن أن نصل إلى أحكام وقواعد أخلاقية دائمة ومستقره : فضلا عن أن حديثه عن الإله في هذه الفقرة مطروح بطريقة لا تسمح لنا بالقول من أنه متأكد من وجود اله .

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٦ – ١٠٧ . ، وانظر : الفكر المادي الحديث د/ محمود عثمان صـ ٣٨٤ – ٣٨٥ .

أما موقف " ديوي " من الأخلاق ، فإنه يتضح من قوله : (كل الأحكام الأخلاقية تجريبية ومن ثم خاضعة للمراجعة) [١] .وإذا قدر أن يكون للأخلاق علم فيوسعها أن تتطور وتنمو ، لأن الحقيقة كلها لم تعرف للعقل الإنساني ، لأن الحياة سبيل متحرك تتغير فيه الحقائق الأخلاقية القديمة ، وتتوقف عن التطبيق ، وتحل محلها حقائق أخرى جديدة تصلح للتطبيق في حينها . ويعبر عن هذا بقوله : (في وسع الأخلاق أن تكون علما يتطور وينمو إذا قدر لها أن تكون علما على الإطلاق – ليس فقط لأن الحقيقة كلها لم تعين وتقرر بعد على يد عقل الإنسان ، ولكن لأن الحياة سبيل متحرك تبلى فيه الحقيقة الأخلاقية القديمة وتتوقف عن التطبيق) [٢] . ولكن كيف تنشأ الأخلاق وتتطور ؟ يرى " ديوي " أن القضايا الأخلاقية لا تنحصر في الامتثال والانحراف ولكنها تتركز في قيمة النظم الاجتماعية ، والقوانين والتقاليد الموروثة المتبلورة في شكل نظم ومؤسسات ، وفي التغيرات التي تتفق مع رغبات الجماعة .

هذا كله يحدث في ظل الحياة الاجتماعية المليئة بالتعاملات الإنسانية ، وتفقد هذه النظم قداستها عندما تفقد مقومات بقائها ، هذه الفكرة واضحة في قول " ديوي " : عندما تكون الحياة الاجتماعية في حالة تدفق ومداولة بين الناس فان القضايا الأخلاقية لا تقتصر على الامتثال

---

(١) انظر : قاموس جون ديوي للتربية جمع رالف . ب . وين صـ ٢٨ ترجمة وتقديم د/ محمد علي العريان مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤م .

(٢) انظر : المصدر السابق صـ ٢٨ ، الفكر المادي صـ ٣٨٥- ٣٨٦ .

والانحراف ، وإنما تتركز قيمة التدابير والنظم الاجتماعية والقوانين والتقاليد الموروثة التي تبلورت وترسبت في شكل نظم ومؤسسات ، وكذلك في التغيرات المرغوب فيها .

وعلى هذا : فإن النظم تفقد ما يحيط بها من هالات القداسة ، وتصبح مسائل قابلة للتمحيص الأخلاقي ونحن الآن نعيش في مثل هذا العصر [١] .

واستمرار الحياة الأخلاقية مرهون بوجود بيئة أخلاقية مناسبة تساندها وتعاونها تماما . مثل الحياة المادية التي لا تستمر إلا إذا كانت مستندة إلى بيئة مادية . وفي ذلك يقول " ديوي " : (كما أن الحياة المادية لا يمكن أن توجد بدون عون وسند بيئة مادية . فكذلك الحياة الأخلاقية لا يمكن أن تستمر بدون عون وسند بيئة أخلاقية) [٢] .

ومن هنا نستطيع فهم كيف أن الأخلاق تفاعل بين الشخص وبيئته ، وكيف أن الوعظ والتلقين لا يفيد الأشخاص الذين يعيشون في بيئة مصيبة بعجب الناس فيها بمن يتصرفون تصرفات غير أخلاقية . وعلى هذا فان العلم الأخلاقي يجب أن يهتم بالبيئة التي تحيط بالإنسان بكل أبعادها حتى تشمل مجالات العلوم المختلفة سواء ما تعلق بها بالإنسان أو بغيره من سائر العلوم المادية باعتبار ذلك كله مؤثر في سلوك الإنسان .

ومهما يكن من أمر الأخلاق عند ديوي فإنها لا تعدو أن تكون تجريبية إنسانية ليس لأي قوي عليا سلطان فيها سواء في نشأتها أو في طريقة

---

(١) قاموس جون ديوي للتربية صـ ٢٨ . ، الفكر المادي الحديث د/ محمود عثمان صـ ٣٨٦ .

(٢) انظر : الفكر المادي الحديث صـ ٣٨٦ .

تطورها وفي هذا يقول : (إنها – على خولا يمكن استئصاله – تجربة اختيارية وليس لا هويته ولا ميتافيزيقبة ولا حسابية)[١] .

وهكذا نرى نظرة البراجماتية إلى الأخلاق ، إنها نظرة مادية ، فهي ترى أن أخلاق الجماعات وكذلك القواعد الأخلاقية التي تضبطها . إنما هي من خلق الإنسان وحده ، نشأت بطريقة تجريبية بحته ، وليمت خاضعة في نشأها لأي قوي عليا خارجية عن نطاق الإنسان ، وهي متطورة لا ثبات لها – فتتغير أخلاق الجماعات كلما تغيرت متطلباها ورغباها – ومن هنا : فهي ليست ثابتة ولا يقين لها على الإطلاق . ومعيار الصدق فيها هو أن تكون موافقة للرأي العام[٢] .

بعد هذا العرض لبيان الجانب الأخلاقي عند الفلسفة البراجماتية يتضح لنا الأتي :–

١– أنها أخلاق وضعية . وبالتالي لا تخلو من كونها عرضة للضياع – للخطأ والنسيان

٢– أنها ركزت على جانب واحد أعنى الجانب المادي وأغفلت الجانب الروحي الذي يحدث أثراً كبيراً في النفس فهو يرتقي بالأخلاق إلى أوج كمالها .

٣– أنها أخلاق نسبية بمعنى أنها ليست ثابتة . فهي قابلة للتغيير مع أن الأخلاق ينبغي أن تكون لها مقاييس ثابتة ، ولا يصح أن تخضع

---

(١) المصدر السابق صـ ١٥٣ الفكر المادي صـ ٣٨٧ .

(٢) الفكر المادي الحديث د/ عثمان صـ ٣٨٧ .

لمقاييس الإنسان خصوصاً وأنه موصوف بالغرور والأنانية وحب الذات ، الخ ، ومن هنا فلا يمكن أن يحدد القيم إلا كائن مجرد عن كل هذا وهو الله تعالى .

موقف القرآن من هذه القضية وكيف عالجها :

الواقع أننا لو نظرنا في القرآن لوجدنا أن أخلاقه جاءت متصفة بعده سمات منها :-

أ- أنها أخلاق عملية لا تقبل جدالا أو مناقشة فهو يقدمها لنا على أنها أوامر واجبة النفاذ

ب- أنها أخلاق شاملة . تتناول علاقة الإنسان بنفسه وبالناس وبالله تعالى بل إنها تمتد لتشمل علاقة الإنسان بغيره من الكائنات الأخرى إنساناً كان أم حيوانا أم جماداً . فرأينا امرأة دخلت النار في هرة عذبتها ، ورجل يدخل الجنة لكونه سقى كلبا قد تملكه العطش

جـ- إنها أخلاق قامت على نجاح الناس في الدنيا والفوز والسعادة في الآخرة .

د- أنها أخلاق توازن بين العقل والعاطفة فتقنع العقل وتشيع العاطفة ، وترضى القلب والوجدان بمعنى آخر ، راعت بين الجانب المادي والجانب الروحي .

الدين عند البراجماتيه :

عند عرضنا لموقف البراجماتية من الدين نجد أن لها موقفا خاصاً منه ، فهو مفهوم لا يتفق مع المفهوم الذي أشارت إليه الأديان السماوية ، فهي

تتحدث عن الدين لا على أساس أنه حق يجب الإيمان به بل على أساس أنه جانب من جوانب النفس الإنسانية يمثل أحد رغباتها الهامة التي يجب أن تشبع عن طريق الاعتقاد " ووليم جيمس " الأكثر تساهلا مع الدين لا يعدو أن يكون من القائلين : بأن لا يجوز الحجز على النفس الإنسانية أي أن تعتقد بما تشاء . بل من الأحوط لها أن تعتقد ولا تقف على الحياد حتى تأتيها الأدلة على صحة الاعتقاد [1] .

يقول " جيمس " في ذلك : (أليس القول بوجوب الحياد ، في حين أن ميولنا النفسية تؤدي بنا إلى الاعتقاد قولا في غاية الحماقة ، أو ليس القول بأنه لا يمكن أن تكون هناك صلة بين أغراضنا النفسية وقوانا وبين القوي الموجودة في العالم الخفي — مجرد يقين خاطئ لا دليل عليه — ؟) [2] .

(فمن الذي يحق له أن يمنعا من أن نثق في ميولنا ومطالبنا الدينية ونصدقها ؟) [3] .

هكذا يجعل جيمس مهمته في الإقناع بأن القول بوجوب الامتناع عن الاعتقاد خطأ لا يجوز التمسك به لأن مبررات من يقولون بذلك لا تقوي على الصمود .

فالدين أري جيمس ليس حقاً واجب الاعتقاد ، بل هو تجربة مفيدة في إشباع رغبة نفسية ، هي الاعتقاد .

---

(١) انظر : الفكر المادي الحديث د/ محمود عثمان صـ ٣٨٧- ٣٨٨ .

(٢) نظر : إرادة الاعتقاد . وليم جيمس صـ ١٣١ . ترجمة د/ محمود حب الله دار أحياء الكتب العربية . ١٩٤٦ .

(٣) نظر . نفس المصدر ١٣٢ .

والتجربة الدينية صادقة بقدر ما تفيد . وبقدر ما تعطى للإنسان من نفع . شأنها في ذلك شأن دوران الأرض المفيد في قصور الظواهر ، والتجربة الدينية تمتاز بخصائص التجربة الوجدانية . إلى حد ما " فإنها تقوم على حدس أصيل ، وأن لها آثاراً نافعة .

على أن الشك يظل ممكناً ، إذا التجربة الدينية تجربة شاذة فريدة ، غير قابلة للتحقيق بملاحظة نزيهة ، لكنها قبلت في البراجماتية ، لاتصالها بالشعور والوجدان ، وإنتاجها آثارا نافعة ، شأنها في ذلك شأن المخترعات النافعة والوسائل المفيدة ، التي لا تستند على تجربة حاضرة ، كالمعاني المجردة ، والقضايا المنطقية والرياضية والطبيعية .

أما أن الدين حق في ذاته ، ونظام إلهي لا تستقيم بدون الحياة ، فهذا مالا تدنو منه البراجماتية ، بل إن الدين يظل تجربة وجدانية ، تعطى ثمرات جد نفيسة في حياة الأفراد والجماعات،وذلكم هو مبعث الخصوبة فيها،وفيه [١] .

أما عن موقفه من الأديان المنزلة وأهميتها وتأثيرها في الحصر الحالي :
فإنه يعتقد إن إيمان الناس في العصر الحديث بالأديان المنزلة بدأ يزول تدريجيا – أن لم يكن قد زال نهائيا – وذلك لأسباب كثيرة منها : أن الأديان تقوم على التخويف والتهديد والعقاب والرهبة . ومنها : فرض العبادات واعتقاد بأنها أساسية وهي تمييز الإيمان من الكفر ، مع أنها ظواهر سطحية في نظر الكثيرين اليوم . ومنها : نهضة العلم والنقد الفلسفي ، لقد أظهر العلم أن

---

(١) انظر : نظرات في الفلسفة الحديثة د/ أحمد عبده الجمل صـــ ٢٩٤ ، تاريخ الفلسفة الحديثة – يوسف كرم صـــ ٤١٨– ٤٢١ . ط دار المعارف.

الإنسان واضع للقوانين ولم يتلقها من الله ، وأن القوانين خاضعة للتغيير والتعديل وليست خالدة . ولقد أبان دارون وغيره : أن فكرة العناية الإلهية والتدبير خرافة ، وأن النظام الغائي غير موجود . إذا أن فكرة النظام تفسير إنساني مصطلح لا وجود له في الكون ذاته . كل ذلك قلل من سلطة الله في العالم والعباد [1] .

فإذا ما قصدنا جون ديوي وجدنا أنه أكثر إلحاداً من غيره وأشد تطرفاً فقد نظر إلى الدين على أنه تجريبي تماما . ومن ثم كان مذهبه في الدين إنسانياً متسقا مع مذهبه البراجماتي . فالدين ككل القيم تجريبي نشأ تجريبيا يتطور بواسطة الإنسان . وليس له وجود محقق على سبيل اليقين . وليس أدل على هذا من بيان الإنسانيين الذي صدر في أمريكا سنة ١٩٣٣ ، ووقعه " ديوى " وآخرون ، ومن أهم نقاطه :-

١- الكون موجود بذاته وليس مخلوقا .
٢- الإنسان جزء من الطبيعة ، وهو نتيجة عمليات مستمرة فيه .
٣- لا ثنائية بين العقل والبدن ، وأن النظرة العضوية إلى الحياة نظرة صادقة
٤- ثقافة الإنسان الدينية ليست إلا نتاج التطور التدريجي الناشئ من التفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية ، والوراثة الاجتماعية .
٥- لا تقبل طبيعة الكون أي ضامن فائق على الطبيعة للقيم الإنسانية .
٦- لقد ولي الزمن الذي كان يعتقد الناس فيه بالدين وبالله .

---

(١) انظر : الفكر المادي الحديث د/ محمود عثمان هامش صــ ٣٨٩- ٣٩٠ .

٧- يتركب الدين من الأفعال والتجارب والأهداف التي لها دلالات في نظر الإنسان . ومن هنا زال التمييز بين المقدس والمادي .

٨- أن التحقيق التام للشخصية الإنسانية هدف الإنسان .

٩- الاحساسات الشخصية تعبر عن الانفعالات الدينية .

١٠-لا توجد إذن انفعالات دينية ومواقف للناس تربطهم بوجود خارق للطبيعة (١) .

الفلسفة البراجماتية في الميزان:

أولاً: مميزات الفلسفة البراجماتية :-

يمكن القول أن للفلسفة البراجماتية عدة مميزات جاءت على النحو التالي :-

١-أنها فلسفة تجريبيه عمليه وجهت التفكير الفلسفي من عالم المثل إلى عالم الواقع مما ترتب عليه التطور بصفة مستمرة ، ولكن هذا لا ينتفع فيه إلا في مجال العلوم الطبيعة والرياضية والمنطقية .

٢-أنها عالجت قضايا المعرفة ورجعت بنا إلى أصل العقل والحواس وأضافت وسلسلة أخرى وهي التجربة ، والقرآن أيد ذلك ، وكشف عن وسائل أخرى للمعرفة مثل الحكمة والوحي والإلهام (٢) .

٣-أن وليم جيمس نجح في بيان أن الروح العلمية لا تتنافى مع العقائد الدينية .

---

(١) انظر : وليم جيمس محمود زيدان ٢٠٤- ٢٠٥ دار المعارف ١٩٨٥ .

(٢) انظر التيارات الفكرية المعاصرة د/ إنشاد محمد علي وآخرون . صـــ ١٤٢بدون .

٤-أن الفلسفة البراجماتية هي خير مثال لفلسفة القرن العشرين ، لأنها تقوم على دعامتين أساسيتين هما : الإيمان بالديموقراطية والإيمان بالطريقة العلمية . وأن الإيمان بالطريقة العلمية هو السبيل إلى تشجيع العلم والعلماء والتوصل إلى هذا الإطار الحافل بالاكتشافات العظيمة في مجال العلم والحياة الاجتماعية . كما أن الإيمان بالديموقراطية هو السبيل إلى الحياة الحرة الكريمة التي تقوم على النقاش المنظم والاقتناع الناجح . بهذا كانت الفلسفة البراجماتية أول فلسفة ناجحة تضع في حسبانها قواعد التغير وإمكان حدوثه ، كما أنها تضع في حسبانها التغيير الشامل الكامل في شتى ميادين الحياة . وهذا هو الذي يلاحظ في هذا العصر (١) .

٥-أن البراجماتية كان لها أثر كبير في " القضاء على جمود التقاليد في غرف الدراسة والإيحاء بجو أكثر حرية ، وأنها أدت إلى نشوء علاقات أكثر مودة بين المدرسين والتلاميذ ، وأنها قضت على ما كان يسود التعليم من الموضوعات الشكلية التقليدية في المناهج ، وأنها شجعت على إدخال الأساليب التي تقوم على نشاط أكثر من جانب التلاميذ " (٢) .

ثانياً: أوجه النقد الموجهة إلى الفلسفة البراجماتية :-

---

(١) انظر : المنهج البراجماتي والتطبيق التربوي كوثر عبد الرحيم صـ ٧٣ دار النهضة العربية .

(٢) التربية عن طريقة النشاط إسماعيل محمود القالي صـ ١٩٢ . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٢ ١٩٨٤ .

١- تعد الفلسفة البراجماتية " فلسفة سفسطائية " ؛ لأنها تجعل من الإنسان مقياساً لكل شيء ، وتجعل من النفع وجهه معياراً للحقيقة ، وبهذا فإنها تحول قيم الحياة إلى قيم مادية نسبية قابلة للتغير باستمرار ، وبدعوتها هذه فإنها تلغي مفهوم الثبات والكلية في القيم ، وكأنها بطريق غير مباشرة لا تعترف بالقيم الدينية الثابتة ، إلا بالقدر الذي يحقق نفعاً مادياً ملموساً للإنسان ، علماً أن الدين لا يقوم على النفع المادي وحسب ، بل ينطوي على قيم معنوية وروحية لا تدخل في الحسابات المادية .

٢- البراجماتية فلسفة لا تحترم أي عادة أو تقليد أو قيمة أو سلوك أو حق مبدأ ، إلا بالقدر الذي يحقق مردوداً نفعياً للفرد ، وهي بهذا تضع المفهوم المادي فوق كل اعتبار داخل الحياة الإنسانية ، وهو مبدأ يفسد طبيعة العلاقات والحقائق التي لا تنطوي على نفع مباشر ، بل هي دعوة إلى جعل الحياة نزعة مادية نفعية وحسب ، وفي ذلك إهمال واضح للقيم الأخرى داخل الحياة البشرية .

٣- تعمل الفلسفة البراجماتية على تحييد النظم الاجتماعية من الدين ؛ لأنها ترى أن الدين مسألة فردية وليست اجتماعية سياسية ، ولهذا فإن المجتمعات التي تتبنى هذه الفلسفة لا تعتني بالدين داخل المدارس التربوية بحجة الديموقراطية .

٤- تري الفلسفة البراجماتية أن الإنسان والحياة من نتاج التطور البيولوجي ، وفي ذلك إشارة إلى النزعة غير الإيمانية نحو موضوع خلق الإنسان والكون والحياة .

٥-تؤمن الفلسفة البراجماتية بالتغيير في أهداف الحياة ، حتى أنها لا تترك مجالاً كافياً لاختيار هذه الأهداف ، لهذا فهي فلسفة إنزلاقية سريعة التحول والتبدل وتربي الإنسان على الشك في كل شيء حتى يصبح قابلاً للتفاوض على ذاته وقيمه وأخلاقياته مقابل النفع المادي .

٦-الفلسفة البراجماتية لا تتناسب مع مجتمعاتنا العربية والإسلامية ، لما تنطوي عليه من أفكار تعارض . مفهومنا الديني ومفهومنا الاجتماعي ، ونظرتنا للحياة .

هذا ويمكن القول إن الفلسفة البراجماتية يمكن الإفادة منها جزئيا وبخاصة من بعض مبادئها التي تتعلق باحترام الإنسان وتقدير الذكاء ، وأسلوب الديموقراطية في الحياة ، ووظيفة العمل ، نظراً ؛ لأن هذه المبادئ موجودة في عقيدتنا السمحاء ، ولكن مع استبدال الديمقراطية بمبدأ الشورى [1] .

٧-الفلسفة البراجماتية تؤكد على النفع العملي ولو سلمنا بهذا لأصبحت الفلسفة كلها جريا وراء تحقيق النفع العملي ولأصبح البحث عن الحقيقة بحثا ثانويا بالقياس إلى البحث عن النفع العملي وقد يؤدي هذا إلى هدم الفلسفة نفسها باعتبارها بحث إيجابي عن الحقيقة .

٨-البراجماتية لا تقدم لنا بحثا إيجابيا عن الحقيقة لأنها في صميمها ليست إلا منهجا لاكتشاف الخطأ والأفكار الخاطئة (وهي الأفكار التي ليس

---

(١) انظر : فلسفة التربية . إعداد أعضاء هيئة التدريس بقسم أصول التربية . كلية التربية . جامعة الأزهر : بحث بعنوان الفلسفة البراجماتية والتربية . إعداد . د/ أسامة حسين باهر صـ ١٣٥- ١٣٦ .

لها آثار عملية) ومعنى ذلك أنها بحث سلبي عن الحقيقة وليست بحثا إيجابياً فإذا كانت الأفكار التي لها آثار عملية هي الأفكار الصحيحة من وجهة نظر البراجماتية فلا يمكننا إن نخلص للقول بأن الأفكار التي ليس لها آثار عملية هي الأفكار الخاطئة وإلا كان في ذلك مبالغة .

٩- أن معيار الحقيقة لا يمكن أن نحصره فقط في الميدان الضيق المحدود الذي يرتضيه البرجماتي وهو الآثار العملية للفكرة فصدق القضايا العلمية والأخلاقية مثلاً ليس محصورا فيما تترجمه هذه القضايا من آثار عملية في دنيا الواقع والعمل الناتج ، فقد آمنت الإنسانية على مر العصور بمفهومات أخلاقية كثيرة – وعلى الرغم من إيمانها المطلق بها – لم تحاول أن تبحث عمالها من آثار عملية [1] .

---

(١) تاريخ التربية : النشأة والتطور " دراسة تحليلية لتطور الفكر التربوي " صـ ٢٥٠ مطبعة الأصدقاء بكفر الشيخ .

الفصل الثامن : مدرسة التحليل النفسي

أولاً : تاريخ حياة سيجموند فرويد :

صاحب هذه المدرسة سيجموند فرويد ، وقد ولد فرويد في فريبرج مورافيا (تشيكو سلوفاكيا) في ٦ مايو سنة ١٨٥٦م وكان والده تاجر أصواف وتزوج والده مرتين أنجب خمس بنات وولدين بعد فرويد وكان لوالده أيضاً ولدين من زوجته الأولى – والدة فرويد كانت امرأة ذات حيوية وذكاء وقد احتفظت بتلك المزايا حتى وفاقما عن عمر يناهز ٩٥ عاماً .

رحلت الأسرة إلى فيينا عندما كان فرويد في سن الرابعة وبالرغم من إمكاناقم المحدودة إلا أنه لم يكن هناك ما يمنع من تعلمه – وقد أجاد في دراسته وحصل على درجته الطبية من جامعة فيينا عام ١٨٨١م وبعد ممارسته للطب في المستشفى العام في فيينا قام بدراسة الأمراض الرئيسية للجهاز العصبي وفي عام ١٨٨٦م تزوج مارثا برنايس والتي استمرت خطبته لها أربعة أعوام وقد أنجب منها ستة أطفال ، الكبرى هي أنا فرويد ولدت عام ١٨٩٥م وهي التي كرست حياقما في مجال التحليل النفسي .

وفي عام ١٨٨٦م قام فرويد بممارسة متخصصة في الأمراض العصبية حيث بدأت اهتماماته بأن تحول من الاهتمام بالمظاهر العضوية " الجسمية " للجهاز العصبي إلى الاهتمام بنقص الأسباب النفسية للأمراض العصبية هذا التغير في الجوهر أو في الاتجاه جعله أكثر جدة وقوة خلال بضع سنوات تالية وفي آخر الأمر كرس كل اهتمامه لدراسة الأسس النفسية أو ما يسمى بالجذور النفسية للأعصاب .

وقد استمر في إصراره على ذلك حتى وفاته في لندن في عام ١٩٣٩م عن عمر يناهز ٨٣ عاماً وكان مقتنعاً بترك بيته الذي عاش فيه عمراً طويلاً في فيينا في سنواته الأخيرة هرباً من الاضطهاد النازي ومن ضمن أعمال فرويد المتعددة المنشورة كتاب " تفسير الأحلام " " ١٩٠٠ " الأمراض النفسية في الحياة اليومية " ١٩٠١ ، ما وراء مبدأ اللذة " ١٩٢٠ " الأنا والهو " " ١٩٢٣ " " الحضارة وأزمالها " ١٩٣٠ وهو من أفضل أعماله في علم النفس تم نشره عندما كان في الستينات والسبعينات من عمره واستمرت كتاباته في أعلى مستواها خلال سنوات عمره رغم ما كان يعانيه من آلام من مرض سرطان الفك حيث أجريت له ٣٣ عملية جراحية لم تقلل من جهوده في الخوض داخل النفس الإنسانية .

وقد غير فرويد بعضاً من افتراضاته النظرية على مدى سنوات عمره كما أن عدداً من كتاباته " محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي " ١٩٣٣ " وموجز التحليل النفسي " ١٩٤٠ " تختلف عن الأفكار المطروحة في هذا الفصل إذ ألها بصفة أساسية المراحل الأخيرة في أفكار فرويد [1] .

ثانياً : أهم مبادئ مدرسة التحليل النفسي :

١ – اللاشعور وما قبل الشعور ، والشعور :

إن نظرية التحليل النفسي كما قدمها فرويد واستمر في تعديلها خلال فترة تناهز نصف قرن كان في عمودها الفقري تأكيداً على المظاهر

---

(١) السـلوك الإنساني : (ثلاث نظريات في فهمه) صـ ٢٥ – ٢٦ ، روبرت د . ناي إعداد وتقديم أحمد إسماعيل صبح مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٣ م .

اللاشعورية للشخصية ولم يكن فرويد هو الأول في التاريخ للتحقق بأن الإنسان لم يكن مهتماً أو مشغولاً لدوافعه الأساسية وصراعاته الداخلية ، وإنما كانت إسهاماته في الدراسة المنظمة للاشعور كما أنه بذل مجهوداً مركزاً وطويلاً ليربط معاً قطعاً كثيرة من المعلومات الصغيرة ومن مصادر مختلفة لإعطاء معاني لديناميات وتفاعلات اللاشعور وتأثيرها في الشخصية الإنسانية.

وبتأكيده وإصراره على اللاشعور لم يتبع فرويد الاتجاهات السائدة لأي ممارسة من الممارسات العلاجية المعروفة في هذا القرن في العلاج الطبي أو في مجال علم النفس .

من جانب آخر فقد رأى فرويد أن اللاشعور جزء من الشخصية يجب دراسته وقد استخدم عبارات محددة لتصوير مدى اهتمامه باللاشعور مثل عبارة جبل جليدي تحت سطح الماء وبأن الجزء الأعظم من شخصية الإنسان يرقد تحت مستوى الرعاية والاهتمام . كما اعتقد فرويد أن العوامل ذات الأهمية العقلية والمؤثرة في سلوك الإنسان تكمن داخل عالم الشخصية المجهولة وبناء على ذلك ولكي نفهم الإنسان يجب الكشف عن عالم اللاشعور [١] .

ثم يبين فرويد أنه يوجد ثلاث مستويات للشعور ، وهذه المستويات الثلاثة تتكون من : اللاشعور وهو في حقيقته مظاهر شخصياتنا التي لا نعتني بها ثم مستوى ما قبل الشعور أي الخبرات والأشياء التي ليست في اهتمامنا حالياً والتي من الممكن الوصول إليها وإدراكها وكثيراً من أفكارنا ومثلنا

---

(١) المصدر السابق صـــ ٣٢ وما بعدها .

تصبح ممكنة لنا عندما نركز عليها أو نحاول استحضارها داخل مجال اهتمامنا وهو المستوى الثالث المسمى بالهو .

تلك المستويات الثلاث ليست تماماً قابلة للتقسيم ووضعها في فئات ولكنها نقاط كمية متصلة تختلف عن الأمور الواضحة والحاضرة من اهتماماتنا ومختبئة بعمق داخل أعماق شخصياتنا [١] .

٢ - الجنس والعدوان :

الجنس والعدوان دافعان لهما أهمية بالغة مطلوب أن يتغلب الإنسان عليهما . وقد كان لركني نظرية فرويد الجنس والعدوان أثر هام في بحوثه ورأيه في مظاهر السلوك الإنساني فبالنسبة إلى غريزة الجنس تجده فسر في ضوئها معظم سلوكيات الإنسان منذ الصغر وحتى الكبر فالدافع الجنسي يفسر به فرويد جميع مراحل تطور الإنسان ونشاطاته سوية كانت أو شاذة .

فالطفل الرضيع يتلذذ جنسياً من عملية المص والعض لثدي مرضعته وهو طور للنشاط الجنسي عند فرويد يسمى بالمرحلة الفمية نسبة إلى الفم .

والطفل ابن سنتين أو ثلاثة - بعد الفطام - يتلذذ جنسياً من عملية التبرز والطفل ابن الرابعة الذي يمص إبهامه يمارس نوعاً من الجنس أيضاً [٢] .

وهذه الأمور فيما يرى فرويد تدل على أصالة دافع الجنس

---

(١) المصدر نفسه صـ ٣٣ - ٣٤ .

(٢) مالك بدوي مجلة المجتمع بحث للدكتور مالك بدوي عن الإسلام والعلاج النفسي عدد ٢٠٩ يوليو ١٩٧٤ ص٥٠ .

في الإنسان وأنه العامل الذي يصدر عنه سلوكه في صغيرة .

كذلك في الكبار يفسر فرويد أنواعاً من النشاط الذي يبدو أبعد ما يكون عن المسألة الجنسية يفسرها تفسيراً جنسياً فالسيجارة والغليون — البايب — يفسر استخدامه بالجنس وثباته في المرحلة الفمية ، والبخل والإمساك لدى بعض الناس أساسه جنسي فهو مرتبط بمرحلة إمساك البراز في الصغر فإنه يؤدي إلى إمساك اليد في الكبر .

كذلك توجد الشطحات الجنسية في تفسير أنصار التحليل النفسي كنشاطات البشر الجماعية الحروب والمذاهب السياسية .

٣ — الأحلام والرؤى :

فهي أساساً وسيلة إلى إشباع الرغبات اللاشعورية المكبوتة والإنسان في حالة اليقظة يكون مسيطراً على هذه الدوافع اللاشعورية ولكن هذه السيطرة تقل طبعاً وقت النوم مما يسمح لهذه الرغبات أن تعبر عن نفسها أثناء النوم ومهما بدا الحلم غير منظم أو غير منطقي فهو بمجموعة كل له مغزاه وتفسيره عند فرويد قائم أيضاً على الناحية الجنسية وقد وضع فرويد كقاعدة في تفسير الأحلام حسب ما يزعم . مجموعات كبيرة من الرموز ترمز كل منها عن الأعضاء التناسلية للذكر وللأنثى .

ومن الأول مثلاً : الأشياء المدببة كالأقلام والسيجارة والمدخنة والعصا وساق النبات وما شاكلها كالسكين والمسدس والبندقية والمحراث وما إلى ذلك من الأشياء المخترقة .

ومن الثاني كل إناء أو شيء مجوف كالصناديق وأواني المطبخ بل

والبيوت أيضاً [١] .

ورأى فرويد في الأحلام على هذا النحو رأى فج فهو يركز على جانب واحد من جوانب الأحلام وحتى هذا الجانب يفسره تفسيراً ملتوياً وينحط بالبشر فيه إلى دركات أو درجات الحيوان .

فلا شك أن جزءاً هاماً من الرؤية يمثل حديث النفس كما يقول الرسول (ﷺ) . وقد يشتمل حديث النفس فيما يشمل الرغبات المكبوتة ولكنها أعم مطلقاً من الرغبة الجنسية فهي لا تعدو أن تكون رغبة واحدة في عداد رغبات الإنسان الكثيرة والمتعددة ، لكن تركيز فرويد على الناحية الجنسية منعه من رؤية جوانب أخرى من الرؤيا التي لها نوع تعلق برغبات الإنسان فأنا اشتغلت برغبة معينة كشراء سيارة أو منزل ولم يكن إلى ذلك سبيل فإن هذه الرغبة تنـــزوي في اللاشعور – وقد تظهر في الأحلام – لكن تفسيرها أبعد ما يكون عن هذايانات فرويد الجنسية .

على أن هناك رؤيا من الله وهي الرؤيا الصادقة وهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة كان (ﷺ) في الجاهلية وقبل أن يبعث لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ليست أوهاماً ولا أضغاث أحلام والرؤيا التنبؤية ليست مقصورة على الرسل صلى الله عليهم وسلم ، فهي بالنسبة إليهم نوع من الوحي لكنها في غيرهم واقع مشاهد . فالروح لها سبحاتها ونشاطاتها وقت النوم وما دمنا قد وصلنا إلى ما يسمى بالروح فإننا ولابد فاهمون لسر عزوف أمثال فرويد عن الاعتراف بها . فهو ينكر كغيره عالم الروح . كما

---

(١) المصدر نفسه صـ ٥٠.

حددنا في منطلقات المذاهب الحديثة في علم النفس .

وبالرغم من أن هذا النوع من الرؤى قليل بالنسبة إلى جانب الأول الذي يمثل تنفيساً عن رغبات مكبوتة وهي كما قلنا أعم من الدافع الجنسي إلا أن هذا النوع موجود فعلاً وهو يفسر على أساس الاعتراف بصلة ما خفية حقيقية . بين الإنسان والغيب المجهول . هذه الصلة أساسها يميز الإنسان بهذا القبس الإلهي الذي يسمى الروح . وهو ما تجاهلته المدارس النفسية الأوربية وعلى رأسها مدرسة التحليل النفسي . وهنا حقيقتان أساسيتان [1] .

الأولى : أن هذا النوع من الأحلام رغم قلته موجود وهو بالطبع خارج عن التفسير الفرويدي المتعلق بالرغبات الجنسية المكبوتة . وقد لجأ أنصار فرويد إلى القول بأن هذه الأحلام بهذا الشكل التنبؤي تخضع للمصادفة فبعض الأحلام يصدف أن تتحقق إلى الناس أنهم متنبؤن .

وقد يفسرون ذلك بأن حدوث مؤدى الحلم في الواقع ناتج عن إيحاء الحلم ذاته فقد يدفع الإنسان إلى تحقيقه عامل المصادفة وعامل الإيحاء هذان لا يفسران الظاهرة تفسيراً كلياً وعامل الصدفة لا يفسر كون ذلك مطرداً في بعض الأحيان كما هي رؤى الأنبياء عليهم السلام كما أن الإيحاء الذاتي لا يفسر تحقيق الحلم على يد الغير أو فيما يتعلق بالغير . وقد يكون هناك مسافة شاسعة . فقد رأى في مصر مثلاً ما قد يتحقق في الهند فهذه النماذج خارجة عن تفسير الصدفة والإيحاء .

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام صـ ٣٧ للأستاذ / محمد قطب طبع دار الشروق الطبعة السابعة سنة ١٩٨٢م .

أما الحقيقة الثانية : فهي أن عدم وصول العلم إلى تفسير لمثل هذه الأمور لا يعني نفيها فعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود والصلة بين الروح الإنسانية وعالمها المجانس لها خارجة بالطبع عن حدود العلم الذي حصر نفسه في المادة بوسائله المتاحة .

الأحلام إذن أسمى من أن نحصرها في تفسير فرويد في الجنس ومتعلقاته على أن فرويد يرجع إلى الجنس أمر العقيدة ذاته فهو يرجع الاعتراف بالإله إلى عملية لا شعورية ذات صلة بالجنس .

عقدة أوديب :

وهذه المسألة عند فرويد تتصل بأساس اتجاهه الوثني الأسطوري القديم فيما يسمى بعقدة أوديب أو أسطورة أوديب التي كانت ذات تأثير واضح على مذهب فرويد وتمثل أسطورة أوديب ابناً فقد أبواه وعاش في مجتمع مختلف وقاد جيش والده فقتله دون أن يعرفه ثم تزوج بأمه وقد قال فرويد بوجود عقدة أوديب لدى كل مولود تتمثل في التوحيد بالجنس المماثل والاستيلاء الجنس المقابل فالابن يتوحد بالأب من أجل الاستيلاء على الأم والبنت تتوحد بالأم من أجل الاستيلاء على الأب وأصبحت عقدة أوديب ترمز إلى كل شهوة جنسية مكبوتة .

وقد أكد فرويد أن تلك العقدة ضرورية ولازمة ومظهر عام للطفولة وتحدث لكلاً الجنسين ، وبنين وبنات حيث ينمو للأولاد انجذاب جنسي للأم والرغبة في امتلاكها بديلاً عن الأب وترغب البنات في امتلاك الأب بديلاً عن الأم وتسمى عقيدة أوديب الأنثوية أحياناً " عقدة إلكترا " على الرغم من مقاومة فرويد لاستخدام تلك العبارة .

وكما أشرنا آنفاً أن الأعضاء التناسلية خلال المرحلة القضيبية تأخذ أهمية بالغة فإن تلك المعالجة ينتج عنها اللذة والخيالات المرتبطة بتلك الأنشطة فالطفل يبدأ أولاً في ملاحظة الفروق بين الأعضاء الجنسية للذكر والأنثى الأب والأم ، الأخوة والأخوات ، والأشخاص الآخرين من الجنسين .

وسوف نبدأ أولاً بدراسة عقدة أوديب بالنسبة للولد حيث تعتبر أحد الخيالات الجنسية له وتدور حول رغبته في تملك الأم ومع توحده الفكري بتلك الرغبة الملحة المحرمة فإن الولد يمارس – يعيش – خبرات الغيرة والاستياء من الوالد ، وقد يرغب في إزاحة الوالد في تلك المنافسة وكلما زادت تصورات الولد تبدأ الصراعات الداخلية في البناء والتكوين ويستمر الولد في رغبته في الوصول إلى أمه منفرداً ولكن استمرارية وجود الأب إلى جانب تهديد صورة الولد لو كشف عنها وعرفت مشاعره وأفكاره سوف تكون نتيجة القلق والذي يسميه فرويد " قلق الإخصاء " أو الخوف من الإخصاء ويصبح قلق الاخصاء المحتوي الرئيسي لعقدة أوديب الذكرية ، وينشأ الخوف الخاص بسبب أن المنطقة التناسلية هي مصدر مشاعر الولد من شبعه لأمه ، وأيضاً لأن الآباء أحياناً يحذرون الأبناء من عدم اللعب بأعضائهم التناسلية تلك التحذيرات قد يفسرها الولد كأنها تهديد لمرجعيات مشاعره نحو أمه [١] .

إذن لدينا ولد صغير تنشأ بداخله صراعات كبيرة وبالطبع فإن ثمة عامل آخر معقد هو أنه ما زال يحب والده على الرغم من رغبته في إزاحته عن طريقة كيف إذن حل هذه المشكلة ؟ .

---

(١) السلوك الإنساني صـ ٦٠ ، ٦١ مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٣ م .

الحل العادي هو بعض من الكبت للرغبة العارمة وإقامة بديل للعلاقة الحنونة معها يتوحد الطفل مع الأب والتوحد مشاركة أو اندماج مع صفات الآخر وفي هذه الحالة يتبنى أو يتخذ اتجاهات وقيم والده عندئذ ينمو الأنا الأعلى للولد .

وكثيراً أشار فرويد أن الأنا الأعلى وريث عقدة أوديب والتوحد مع الأب يفيد الولد في الإقلال من قلق عقدة الإخصاء عنده كما أن ذلك يفيد المجتمع في تعلم الولد دور الجنس الذكري وعن هذا الطريق تمر المعايير الثقافية أو القيم الحضارية للسلوك من جيل إلى جيل .

ولكن ليس دائماً ما تكون عقدة أوديب لدى الولد إيجابية فمثلاً الاستياء والعدوانية تجاه الوالد قد تستمر وتعمم على جميع أشكال وصور السلطة المختلفة أو أن يؤدي قلق الإخصاء بشدة إلى سلبية حادة نوع من الاستسلام أو التخلي في مواجهة الإحباط الشديد والخوف تلك السلبية في عقدة أوديب يمكن أن تنتهي إلى الجنسية المثلية إذ كان الوالد ضعيف وخاضع وسلبي وتكون الأم قوية ومسيطرة ... عندئذ يصبح التوحد مع الأم بدلاً من الأب أمراً ممكناً في مثل تلك الحالة .

ويوجد عامل آخر مؤثر في التوحد هو اختلاف الاستعداد الداخلي لقوة الميول الأنثوية أو الذكرية لدى الفرد خاصة حينما تكون العوامل الوراثية ذات تأثير حيث تلعب الميول الذكرية أو الأنثوية دورها وقد أشار فرويد بأن كل إنسان يحمل مكونات نفس الجنس وعكسه فإذا كان لدى الولد خبرات أسرية معينة مثل تعرض لأب ضعيف وأم مسيطرة ، فإنه بذلك

يرث ميول أنثوية وبذلك يزداد عنده الميل للتوحد مع أمه أكثر من التوحد مع أبيه .

ثم يفسر فرويد عقدة أوديب الأنثوية بأنها أكثر تعقيداً وغير كاملة وعلى الرغم من محاولته وصف أحداث حرجة فبالنسبة للذكر يؤدي تهديد الإخصاء إلى عقدة أوديب وبالنسبة للأنثى تشعر بأنها تفتقد شيئاً ومع شدة هذا الشعور ينشأ لديها أو تدخل في دائرة حد القضيب عند البنت وقلق الإخصاء عند الولد هما مظاهر عقدة الإخصاء كلية .

في الوقت الذي ينشأ فيه عدوان البنت نحو أمها وترى أنها ليست أكفأ جسدياً من أمها تلفظها وتتحول إلى حب الأب ، وبالطبع فإنه ليس من السهل بطفلة صغيرة أن تتخلى عن أمها لذلك فهي تحاول أن تستبدل جوهر أمها في داخلها بواسطة التوحد معها وأن تحاول أن تحل مكان أمها في علاقتها مع الأب وأن تقاسمها في قضيبه تصبح البنت حساسة وقابلة للحرج نحو أمها وهذا يزيد من استيائها المضمور .

ويعتقد فرويد بأن البنات لا يحلون عقدة أوديب بطريقة الأولاد وذلك لأنهن ليس لديهن خوف شديد من الإخصاء الذي يدفع الأولاد إلى حل أسرع ومحدد وكامل عن طريق التوحد مع الأب فبالنسبة للبنات يرى فرويد أن الإخصاء قد تم بالفعل لذلك فإنه لا يوجد تهديداً حالياً أو مستقبلاً ولكنه أمر واقع ولأن البنات لا تنتهي لديهن عقدة أوديب في دلالتها كما عند الأولاد فإنهن أيضاً لا تنشأ لديهن " أنا أعلى " قوي . يرى فرويد أن الافتقار إلى " أنا أعلى " قوي عند البنات مرتبط بتلك السمات الشخصية

الأنثوية مثل الانفعالية وقلة الإحساس بالحكمة والعناد وعدم الخضوع لمتطلبات الحياة وطبعاً فإن المنادون بالمساواة بين الرجل والمرأة لا يصدقون تلك العبارات [1] .

فبالنسبة لحل البنات لعقدة أوديب يكون في التوحد مع الأم وكبت الصراع الذي يحقق الهدف وإذا قل دور جنس الأنثى فإن الرغبة في القضيب يمكن أن تحل إشباعاً بالرغبة في طفل ويعتبر الحصول على طفل كإشباع بديل وكحل وسط تعويض لعدم الحصول على القضيب فإذا احتفظت البنت برغبتها البدائية فبالحصول على القضيب وهو جوهرها فهذا يعني أنها ترغب أن تكون ولداً وقد ينشأ لديها سمات الذكورة وفي الحالات الحادة تتصف بالجنسية المثلية ومن المحتمل أن ينشأ عن حد القضيب مشاعر النقص أو الخجل بسبب نقص العضو التناسلي .

ويجب الإشارة إلى أن رؤية فرويد المسماة بعقدة أوديب الأنثوية وخاصة فكرته عن حد القضيب وتأثيراتها المعاكسة قد هوجمت كثيراً باعتبارها ذات أفكار منحازة لجانب الرجل .

ووفقاً لنظرية التحليل النفسي فمن المعقول إلى حد كبير أن يكون الحل الإيجابي لعقدة أوديب خطوة هامة في نمو شخصية سوية وما تبقى من الصراع النفسي يستخدم بعد ذلك وبدون حل في صورة مشاعر جنسية وعدوانية وأفكار اتجاه الوالدين يمكن استمرارها والتي يصدر عنها مشكلات

---

(١) السلوك الإنساني صـ ٦٤.

في مراحل البلوغ والرشد [1] .

ومن أهداف نظرية التحليل النفسي السماح للمريض بأن يعمل فكرة للتعرف على الصراعات الانفعالية والاتصالات غير الواقعية والمزيفة التي عاشها فترة عقدة أوديب .

وفي سن الخامسة أو السادسة من العمر حينما تكبت الدوافع المحرمة نحو الأقارب والمشاعر العدوانية بالنسبة لعقدة أوديب تتحول جزئياً إلى مشاعر مقبولة وتحل جزئياً خلال عملية التوحد حيث يدخل الطفل في مرحلة الكمون إذ تهدأ الرغبات الجنسية والعدوانية والخوف بعض الشيء وبالرغم مما تتصف به تلك الفترة باللعب مع أنداده من نفس الجنس مما يساعد على تقوية أدوار الجنس خلال توحدنا فيه ، وإلى جانب مشاعر التعلق والتقرب من الآباء حتى على المستوى اللاشعوري لا يزال يبقى بعض عناصر للرغبة الجنسية والعدوانية وتستمر تلك المرحلة من الهدوء بصفة عامة حتى حوالي سن الـ ١٢ .

ومع مرحلة البلوغ تظهر مرة أخرى الجنسية التناسلية ولكن بمظاهر وتأكيدات أخرى وذلك أن مراحل ما قبل التناسلي الفمية والشرجية والقضيبية اتصفت بالبحث الإشباعي المتمركز حول الذات من خلال بواعث ومعالجات بذات الجسم تكون هي المصادر الرئيسية للإشباع .

أما عند البلوغ يبدأ البحث عن علاقات جنسية مع الجنس الآخر في اتجاه لإشباع متبادل كما أن الميول المبكرة ذات الصفة الأنانية تبدأ في

---

(١) المصدر نفسه صـ ٦٥ .

التحول إلى معنى آخر هو مسئولة اختيار شريك جنسي من خلال استمرار عملية التنشئة الاجتماعية وإذا كانت الظروف المحيطة عادية يعبر الإنسان عن المرحلة التناسلية بمعقولية النضج . حيث يكون في سباق لأن يصبح عضواً منتجاً في المجتمع ومفيداً وقادراً على الحب والعمل بأسلوب مؤثر من خلال وسائل مقبولة وموفقة مع الذات ومتطلبات العالم والذين يعيشون فيه وهذا يؤكد بالطبع قدرة التكيف مع عواصف المراحل المبكرة دون التثبيت على مرحلة نمو معينة وعند الوصول إلى المرحلة التناسلية فهناك تفاعلات في هذا المستوى تتأثر بكمية الطاقة الليبيدية [١] الممكنة والتي تعتمد على مدى التثبيتات المبكرة [٢] .

أما غريزة العدوان فهي الجزء التالي من الليبيد والمزدوج غريزة العدوان تبدو في السلوك التخريبي وعدوان الأطفال على الحيوانات الصغيرة وشأنها شأن الجنس في وقوف المجتمع والدين ، ثم الهروب إلى اللاشعور وإحداث العقد النفسية إلى غير ذلك مما تقدم وكما كان موقف فرويد من غريزة الجنس فعل على كبت الكهنوت الكنسي كذلك كان موقفه من غريزة العدوان التي كادت تميتها المسيحية إماتة كاملة عن طريق المغالاة في نكران الذات من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ومن نازعك الثوب فأعطه الرداء وكان شأن فرويد هنا كشأنه هناك المغالاة في أثر هذه الغريزة والجنوح بها إلى طرف الإفراط الشائن والمبالغة في آثارها [٣] .

---

(١) الليبيد :كلمة يطلقها فرويد على الرغبة الجنسية أو الطاقة الجنسية أو الجوع وهو المدرك الأصلي للسلوك.

(٢) السلوك الإنساني صـــ ٦٦ ، ٦٧.

(٣) بحوث في علم النفس نظرة عليمة إسلامية د.محمود عبد المعطي بركات صـــ١٠٠.

نشأة الدين عند فرويد:

ومن هذا المنطلق يؤسس فرويد للدين تأسيساً عجيباً ويعلل لنشأته تعليلاً جنسياً صارخاً والظاهر أن المسألة الجنسية قد ملكت على الرجل نفسه ، وهو يعتمد في تأسيسه للدين على الأساطير ولا أدري كيف يستجيز مثل فرويد علمياً أن يلجأ إلى الأساطير في عصر يدعونه عصر العلم وخاصةً فيما يتعلق بنشأة الدين لكنهم يعتبرون الدين مظهراً لهذه الأساطير ويقرر فرويد في نشأة الدين أنه قد حدث في القديم من أجيال الإنسانية الأولى في أسرة معينة أن أحس الأبناء برغبة جنسية قوية نحو أمهم .

ولكن كان يقف في سبيل هذه الرغبة الجامحة سطوة الأب لتمنعهم فتآمر الأولاد على قتل أبيهم للتخلص من سطوته والظفر جنسياً بالأم ولكنهم بعد تنفيذ ما تآمروا عليه أحسوا بالندم وتملكهم شعور جارف بالندم والخطيئة ، فصمموا على تقديس الأب القتيل ، وترتيب الندم والشعور بالخطيئة على هذا الذي حدث عجب منه فرويد فما مرجع هذا الندم إذا كانت الأمور قد جرت على طبيعتها على اعتبار أن الجنس هو أساس السلوك وما يوضع أمامه من قيود إنما قيود ظالمة هذه القيود التي شكلوا هم أقسى أنواعها في حرمان الأب من حقه المشروع لدرجة القتل حتى لم يدعوا فرصة لنشأة الصراع النفسي عند المرحوم.

ولكن قتل الأب على هذا النحو المفروض إنه يفتح الباب أمام شهوة الجنس ولا يكبتها ، ولكن الظاهر أن الأبناء بعد القتل وجدوا أنهم سوف يدخلون في معركة عنيفة لتقرير غلبة أحدهم واستيلاءه على الأم الأرملة

لذلك كبت الأولاد شهوتهم أو شعورهم الشهواني نحو أمهم [1] .

وفرويد محجوج بهذه الأسطورة . فمن ناحية يضطر للاعتراف بنوع من التسامي هذا التسامي لم تعرفه نظريته أصلاً ولا المتأثرون بها في الغرب من حيث شيوع فوضى الجنس والاتصال بالأقرباء دون ما شعور بالخجل ومكمن التسامي هنا هو في عملية الكبت نفسها فهم كرهوا أن تكون الأم مشاعاً بينهم وخافوا في نفس الوقت من غلبة أحدهم .

وامتزج شخص الأب القتيل في شعور الأولاد ببعض أنواع الحيوانات ويرى فرويد أن هذه عملية نفسية طبيعية فقدسوا هذه الحيوانات ومنعوا قتلها وذلك تكفيراً عن قتل أبيهم ورغبة في تقديس ذكراه وبذلك نشأت أول ديانة على سطح الأرض وهو الطوطمية (عبادة الحيوان) .

هم قتلوا أباهم إذا بدافع الصراع الجنسي ومنه نشأ الدين كما ترى وكل الديانات التي جاءت بعد ذلك ذات صلة بالقضية .

وليس أعجب من تقرير فرويد أن ذلك ينطبق فيما ينطبق على بعض الديانات السماوية . فيقول إن أساطير المسيحية تصور رغبة الابن (المسيح) في قتل والده (الرب الإله) إلا أن الرغبة هنا قد كبتت فقتل نفسه هو بدلاً من أبيه ولكنه في الوقت نفسه أصبح إلهاً مكان أبيه .

تعالى الله عن قوله علواً كبيراً . فما كان الله ليتخذ ولداً وما كان لبشر يأكل الطعام أن يكون إلهاً.

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام صـ ٣٨ ، ١٦٧ .

نقد نظرية التحليل النفسي :

وقد أدت نظرية فرويد إلى أثرها المرجو فيما يعرف بالثورة الجنسية في الغرب ورفض أي قيد عليها من المجتمع أو من الدين مع أن التسليم بنظرية فرويد يستحيل معه القول بأن المجتمع يقف في سبيلها أليس المجتمع بدءاً ونهاية هو الأفراد وإذا كانت الرغبة ترفض كل قيد والمفروض أنها عامة فمن أين يا ترى جاءت هذه القيود ؟ إن افتراض هذه القيود الاجتماعية ينسف نظرية فرويد من أساسها واعترافه ودعوته إلى محاربتها تعكس قوتها التي تهدم نظرية بكل تأكيد .

على أن المفروض هنا هو أن يكون الجنس بهذا الشكل مفسراً لأنماط السلوك كله وللدين أيضاً . أما الجنس فهو استعداد ورغبة وضعها الخلاق لأعمار الكون على ما سيأتي ولابد أن تكون لهذه الرغبة من القوة ما يتناسب مع المهمة المنوط أداؤها بها في الكون .

والحياة الكاملة لا تقوم بغير المشاعر الجنسية . لكن في صورة مهذبة وليس في الصورة الفرويدية الحيوانية فالمشاعر الجنسية هي التي تجمع بين الجنسين وعلى أساسها تقوم الأسرة بما تقتضيه من مشاعر الود والرحمة والسكن والبنوة والأبوة والأمومة .هذه المقتضيات التي تدفع الوالد للعمل والكسب والتحصيل ليكفي من يعول وبدافع التنافس في العمل يحسن الإنتاج ويزدهر .

فالجنس إذا مبعث حيوية في حياة كل من الجنسين على السواء وهو في كل ذلك رغبة محوطة في الوضع الديني والاجتماعي السليم بسياج من

الاحترام والاحتشام والتستر الذي يعطيه رواء وبهاء يسمو به عنهم في صورته الفرويدية أو الحيوانية التلقائية .

أما تفسير كل النشاطات الإنسانية تفسيراً جنسياً صارخاً فهو جنوح إلى الباطل العلمي فالحياة على تشابكها وتعدد نشاطاتها وتنوعها أكبر من أن يفسرها عامل أو اثنين حتى لو كان لأحدهما أو لهما معاً من القوة أو التأثير ما كان [1] .

والطامة الكبرى أن يفسر الدين هذا التفسير الشائن والذي ينحط به إلى مقتضى الغريزة وليتها غريزة العقل والتفكير ولكن غريزة الجنس المكبوتة المقهورة وليت فرويد اعتبرها مرحلة من مراحل الدين إذن لوضعناه في مصاف من قال بتطور الدين فهو يقول إنه نشأ من الكبت الجنسي وهو لا يزال يمثل حتى الآن هذه المشاعر والأفكار الساقطة والهزيلة .

وإذا كانت عقدة الغرب من مسمى الدين قد سمحت له بقبول هذا التقبيح المقصود والمتعمد من جانب فرويد فإن الخطأ هنا إطلاق الحكم على الدين كل الدين والأدخل منه في الخطأ أن يلجأ عميان الشرق إلى الغرب يستجلبون هذه المفاهيم دون ما وعي على أنها أسس الحضارة وأصل التقدم غافلين عن هذه المقارنة المزدوجة بين الدين المسيحي في صورته التي آل إليها على يد الكهنوت والتسلط والقهر وبين المسيحية في أصلها السماوي المنير .

ثم بين كلا الحالين الإسلام الذي أكمل الأديان السماوية المبرأ من كل مظاهر الكبت الغريزي والقهر الطبقي .

---

(١) علم النفس للدكتور محمود بركات صـ٩٨ - ٩٩ .

ثم إن أخطر ما في نظرية فرويد هنا هو الاعتقاد بالجبرية النفسية الذي ترتب على نظريته هذه الجبرية التي تؤمن بأن الإنسان أقرب إلى الجبر منه إلى الاختيار لأنه يتحرك بمقتضى الغريزة المسيطرة التي تتحكم في توجيه السلوك ودون أن تترك مجالاً للاختيار غالباً وكما أثرت هذه الجبرية في إطلاق الإنسان من عقال الشهوة كذلك أثرت في نظرة المجتمع إلى الجريمة على أساس أنها بديلة الكبت الذي هو بديل الإشباع .

وكان من نتيجة هذه الإباحية أو الحرية أن بلغت مداها في تحقيق الحرية الذي يستلزم في نفس الوقت مزيداً من الجريمة في حق أناس آخرين أو في حق المجتمع وبالتالي فإنه كان لمدرسة التحليل النفسي دور هام في تبرير الجريمة حتى أن هكسلي يرى أنه لا مناص من أن يقف المحلل النفساني إلى جانب المجرم الخلقي فالمجرم الحقيقي هو المجتمع وهو القيد فالأخلاق تتسم بطابع القسوة والاضطرابات النفسية والعصبية تنشأ من تناول الأخلاق [1] .

فالمجتمع إذا كان هو الذي يفرض هذه القيود فهو في الواقع المجرم الحقيقي حتى ولو كانت وجهة نظره يحترمها هو في هذا التقييد.

ومكمن الخطأ في هذه النظرية أنها تصرف النظر عن طاقات أخرى موجودة في الإنسان مهمته ضبط هذه الانطلاقة الشهوانية . وهي العقل .

كما أن في الإنسان جانباً خيراً لم يعره فرويد أي اهتمام وإن كان قد أشار إليه دون أن يدري في أسطورة نشأة الدين من حيث أن الأبناء قد اعتراهم ندم قليل على قتل والدهم هذا الجانب الخير هو الذي أوحى إليهم

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام صـ ٩٠ ، ١٤٣.

أن ما فعلوه ليس إلا عملاً شريراً يستحق هذا الندم الشديد الذي أدى إلى تأليه الأب في صورة الحيوان .

كما أنه من الخطأ اعتبار كل مجرم مريضاً نفسياً لا إرادة له فيما يقع منه وبالتالي لا مسئولية عليه بل هو مجني عليه من المجتمع وينبغي علاجه من شذوذه دون أن توقع عليه عقوبة .

فهذا تعميم لا أساس له فالشاذ لا يقاس عليه وهذه الحالات إن وجدت فهي من الندرة بمكان ولا يصح أن تكون قاعدة عامة أو محوراً للتقعيد السلوكي المجرم ومحاولة إضفاء الشرعية عليه . وكما قلنا فإن الكبت ليس منفرداً بالتسبب في الجريمة وإلا لما وجدناها في عصر الانطلاق أكثر سيادة منها في غيره .

والقصة التي ذكرها فرويد أو الأسطورة التي أسس بها للدين توحي بما يسقط اتجاهه العام أو بطعنه على الأقل طعنات في مقتله . ويعجبني تحليل أحد العلماء لهذا المعتمد الأسطوري في أسطورة نشأة الدين الجنسية حيث ينتهي هذا التحليل إلى تقويض النظرية الفرويدية من الأساس يقول : ونأخذ الرجل من لسانه .

فمن أين أتى شعور الندم لهذه الحيوانات الهائجة التي تتصرف بدوافع الحيوان ؟ من ذا الذي أوحي إليهم بأن علمهم هذا كان خطأ لا يجوز ؟ إننا هنا أمام أول شعور إنساني يفرق بين الإنسان والحيوان وذلك على فرض أن القصة كلها صحيحة .

وفرويد نفسه لا يملك على ذلك أي دليل فهذا الندم على الجريمة يؤكد وجود الخاصة التي تفرق بين ما ينبغي وما لا ينبغي أن يعمل بين ما هو خير وما هو شر حاسة تقدير فيما ذاتية للأعمال منفصلة عن الدافع الغريزي الذي يدفع إليها هذه واحدة .

ثم نظر الأبناء فيما بينهم فوجدوا أن أحداً منهم لن يفوز بأمه وحده إلا إذا قتل الآخرين وإذا فستنشب معركة عنيفة لا تؤدي إلى تحقيق المصلحة المنشودة فاتفقوا بينهم على أن يتركوا أمهم لا يمسها أحد منهم وينصرفوا راشدين متآخين بدلاً من أن يقتتلوا فينقلبوا خاسرين وهذه هي الثانية . فهنا شعور إنساني آخر شعور التآخي على مصلحة عامة بدل من الأنانية القاتلة والصراع المروزل ولا يقف ما يستخلص من القصة عند هذا الحد . فهي تثبت كذلك مقدرة الإنسان على ضبط نوازعه الفطرية في سبيل الخير العام الذي يعود في نهاية الأمر على كل فرد بما فيه مصلحته الخاصة .

فإن فرويد يقول نقلاً عن دارون إن مجتمع الثيران يحدث فيه ما تخيل حدوثه في مجتمع الإنسان فتنطلق الثيران الفتية الشابة تريد أن تنـــزوا إلى أمها وتستخلصها من الأب المسيطر عليها فيبدؤون أولاً كمجموعة تقتل أبيهم ولا يصبهم الندم على ذلك ثم يقتتلون فيما بينهم لا تمنعهم الأخوة ولا يحدهم دافع مشترك حتى يموت الضعاف منهم ويبقى واحد قوي يستولي على البقرة التي كانت موضع النزاع .

أما الإنسانية الأولى كما رسمها فرويد نفسه فقد ترفعت عما يفعله الحيوان فأحست بالندم وربط بينها شعور التعاون واستطاعت أن تضبط نزوات الانفعال .

إن هذا الاعتراف الذي أقر به فرويد دون أن يدري أو الذي يلزمه من واقع اعترافه بالأسطورة يهدم كل ما أقامه فرويد بعد ذلك من نظريات ملوثة وتصميمات خبيثة فهذا الإلزام ينفي الجبرية النفسية إذ يقرر بالإرادة الضابطة في الامتناع عن غشيان الأم . وينفي أن كل مشاعر الإنسانية غريزية حين يقرر إحساس الأولاد بالندم على ما صنعوه بدافع الغريزة وينفي أن القيم الأخلاقية مفروضة على الإنسان من قوة قاهرة خارج نفسه فهذا الندم ذاته قيمة أخلاقية أحس بها الأبناء تلقائياً لحظة انتهائهم من الجريمة . فمن هذا الظلام الهابط الكريه يشاء الله أن يخرج بصيص من النور [1] .

وهذه اللوازم الواردة على أحداث القصة وعناصرها لم يلتفت إليها فرويد بالطبع وإنما ركز على ما يخدم اتجاهه الهدام فهو قصد إلى إجلاء ما يبرر رأيه في عناصر القصة . على النحو المذكور . ولكن الأسطورة في الواقع ليست ملكاً له في دلالتها المختلفة حتى ولو كان هو نفسه مخترع هذه الأسطورة . فتحليل بعض عناصرها على نحو معين واتجاه مسبق أعطى رأي فرويد بينما التحليل على نحو آخر يعطي ما يهدم الاتجاه الأول على ما مر ذكره .

ومعروف أن فرويد استقى ما ذهب إليه من خلال ممارسة ميدانية أو عملية للعلاج النفسي في محيط الشواذ فقط . والخطأ هنا في التعميم إذ كل الناس ليسوا شواذ . ثم إن الحكم على الناس جميعاً لما فيهم الأسوياء بناء على تجارب على الشواذ حكم فج وغير دقيق .

---

(١) الإنسان بين المادية والإسلام صـ ٢١٦ - ٢١٧ .

ولم يتعرض فرويد لحالات الأصحاء فيما يتعلق بتفسير الأحلام لأنه بحكم طبيعة عمله كمعالج نفسي كانت ترد إليه الحالات الشاذة فيستخدم طريقة التحليل النفسي للكشف عن الجوانب الشعورية أما الأصحاء فلم يتيسر له ذلك معهم لنفس السبب السابق فهم لم يذهبوا إلى عيادته النفسية وبالتالي فليس له علم عن ملابسات حياتهم كما هو الحال في الشواذ الذين يسألهم عن شئون حياتهم ويسجل ما يلقون إليه من معلومات تعاونه على حل مشاكلهم النفسية .

إلا أن فرويد يعطينا تجربة لها دلالتها من أحلامه هو نفسه والتي تعطي دلالات خطيرة وتلقي أضواء كبيرة على نفسية هذا الرجل وتعطي تعليلاً لاتجاهه في عرض نظريته مما يصبح معه في الإمكان الكشف عن الدوافع المحركة للرجل مما يؤدي قي النهاية إلى هدم مذهبه بنفس طريقته التحليلية النفسية .

إن فرويد يرى حلماً رآه وفسره على طريقته ومحصلته النهائية باختصار حسب تفسيره هو أن الدكتور " م " لا يوافق على العلاج الذي أجريته ويعترض عليه فانتقمت منه في الحلم بأن وضعت على شفتيه هذه الكلمات المضحكة وتصويره بما يفهم منه أنه جاهل .

وقد أحسست أن صديقي الدكتور " أوتو " يقف ضدي إذ يتهمني بالتقصير في علاج " إرما " فانتقم لي منه في الحلم بتحويل اللوم عليه وتصويره بصورة من يرتكب الأخطاء .

وانطلاقاً من نظريته نفسها يمكن الحكم عليه طبقاً لما اتخذه من معايير العقل الباطن والشعور على أساس أنه رجل يهودي تأثر بيهوديته وأن إحساسه بيهوديته قد أنتج أبعد الآثار على نظريته مما تصبح معه النظرية أشبه برد الفعل اللاشعوري على ما يلصق باليهودية من مثالب على سبيل التسلي أو التعزي اللاشعوري .

فاليهود كما يشهد التاريخ عاشوا في معظم عصورهم أقلية مكروهة ومنبوذة في أرجاء الأرض وفي العالم عموماً ، وفي المسيحية بوجه خاص ، فقد كان العالم المسيحي ينكل باليهود ويلتذ بتعذيبهم ويصر على تحقيرهم علناً دون مواربة ولا إنكار ، ولم تعترف المسيحية لهم بحقوق إلا في هذا العصر حينما أرادت الصليبية لإسرائيل أن تكون شوكة في ظهر الإسلام والمسلمين هذا العداء المستحكم الذي لم يمح أثره هذه المناصرة بدليل أنه لا تزال توجد أماكن في أمريكا يكتب عليها ممنوع دخول اليهود والكلاب .

واليهود يتهمون بالمادية والأنانية فلا يراعون خلقاً ولا ذمة وليس لهم وازع يمنعهم من ارتكاب أخس الأعمال إذا كانت تحقق نفعاً لهم أو كسباً فالغاية مبررة للوسيلة والمثل العليا عندهم لا قيمة لها إلا بمقدار ما تحققه لهم من نفع .

وهذه الأحكام أسبغها الناس على اليهود حتى يبادلوهم كرهاً بكره ذلك أن اليهود يرون في الشعوب غير الإسرائيلية أنهم كالبهائم ويستبيحون أموال غير اليهودي وعرضه ودمه .

هذه السياسة التي جعلت العالم يبادلهم كرهاً بكره واستباحة باستباحة وتحقيراً بتحقير وترسبت منذ الصغر في لاشعور فرويد أحاسيس معينة تجاه هذا الاضطهاد والتحقير الذي يلقاه اليهود وهو منهم بالطبع فكانت نظريته انتقاماً لا شعوريا لنفسه وليهوديته .

فيقلب المسألة على الناس ويركز على الجوانب الشهوية البهيمية حتى تبدو الصورة متلائمة ومتقاربة فكان يقرر أن الناس جميعاً ماديون حيوانيون يعيشون على الغرائز ينطلقون منها ويأوون إلى ساحتها فلا ضمير ولا مثل عليا و لا أخلاق إلى غير ذلك مما قد يتهم به اليهود .

ثم هو في تصويره المجتمع بأنه الغول الذي يتعقب الفرد ويحاول تحطيمه كان يصور الأغلبية المسيحية في لا شعوره التي تتعقب اليهود وتحاول تحطيمها .

وكذلك في تصويره للكبت على أنه في الغالب شيء مرذول يعود بأسوأ النتائج على الفرد ويعذبه بالحرمان والاضطرابات النفسية والعصبية . كان في لا شعوره يصور قمع العالم لليهود وتعذيبه لهم وإيقاع الاضطرابات في صفوفهم .

واللا شعور الذي تناوله فرويد وربطه بالحتمية النفسية لم يكن أول من اكتشفه ذلك أننا نجد أحبار اليهود في التراث الصهيوني قد عالجوا موضوع اللا شعور الذي يعد ضربة موجهة لعقل الإنسان وإرادته ، إذ أن الإنسان عند فرويد مدفوع لا محالة بقوى لا شعورية وبذلك أطاح فرويد بالإرادة والاختيار والعقل ... واستبدل لهم اللا شعور الذي يراه قمة الدوافع والرغبات والغرائز الحيوانية ..

لقد جعل اللا شعور مستودع المكبوتات من انفعالات وحاجات وجمع فيه ما يعرف وما لا يعرف ، وارجع إليه ما يفعله الإنسان وما لا يفعله فهو مستودع أوحال ومخزن أفكار .. ومحل يحوي من الإبرة إلى الصاروخ .. كل شيء في اللاشعور وكل شيء من اللاشعور ولا شيء خارجه ..

ولقد جعل الشعور بالإثم والخطيئة لاشعورياً أيضاً .. بلا علم الإنسان .. وبلا إرادة وبلا اختيار أي مفروض على لا شعور الإنسان .

ولقد خلط فرويد بين جبلات النفس ، وبين ما أودعه الله في الإنسان من مواهب ولطائف شريفة كالعقل والقلب والروح فهبط بالإنسانية إلى أسفل سافلين وقد خلقها الله في أحسن تقويم .

جعل الغرائز والشهوات مصيره الأبدي وغايته أراد أو لم يرد حتى أن ارتفع عنها وتسامى فما ذلك إلا برفان يخفي ذاتيته ويحتال به لإشباع غرائزه المتوحشة ، ونسى القوة الربانية التي وهبها الله للإنسان من خير ومن ورع وتقوى ، من ضمير وعقل .

فلا وسط ولا اعتدال عند فرويد وإنما انقياد أعمى للغرائز وإرجاع أعور للشهوات ، ودفع وجذب من آلة صماء يفسر بها قوانين العلة والمعلول ولا تفسير خارج عنها ولا قوة عليا تستمد منها حركتها وإنما سبب ومسبب.

ولكنا نتساءل من خلق السبب والمسبب ؟ بل من خلق العلة والمعلول في هذا الإنسان والحاصل على كل شيء من داخله ؟.

لقد رد فرويد الشخصية الإنسانية المتعددة الجوانب والتي تحمل حد الخير وحد الشر والحق والباطل ، الإيمان والكفر والسمو إلى الكمالات الأخلاقية والسقوط إلى البهيمية .

رد فرويد حقيقة الإنسان إلى قوى غريزية غامضة تدفع إلى سلوك غير متبصر وأعمال قسرية غير واعية فحبس عقله وجعله حيواناً تقوده ضغوط البيئة في العمل والسلوك والحياة ، فالذي تقبله البيئة يسلكه والذي ترفضه البيئة يكبته أي صورة مشوهة هذه للإنسان ؟. ألم يرفعه الله ألم يصوره على صورته ؟ ألم يقل الله ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[1] .

ثم إن فرويد يدعي أنه يمكن تفسير أمراض وتصرفات الإنسان الحاضر بدون شيء خارجي أي أن الإنسان يحميه في ذاته علل معلوماته وأسباب مسبباته والمطلوب الرجوع إلى السجل لنفتحه ونقرأ ، فنعرف سبب ما يحدث له وما يحدث ليس غريباً ولا غامضاً لأننا نكشفه بمجرد أن نرجع لماضي لفرد وبالأخص بطفولته وبالتحديد للسنوات الخمس الأولى .

لا داعي إذن للتوبة لأن هناك حياة نفسية حتمية ولا داعي للندم فهذا الإنسان تحركه دوافع وحاجات قسرية وأن الخطيئة والآثم لا يفعلها الإنسان بإرادته فالإنسان مغلوب على أمره وهذا الرأي مرفوض في جميع الشرائع بل مرفوض بالفطرة الحسنة﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[2] ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[3]أي طريق الخير وطريق الشر وأنه قادر على أن يختار بين ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾[4] وبين ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[5] .

---

(١) سورة التين آية ٤ .
(٢) سورة الشمس آية ٧ .
(٣) سورة البلد آية ١٠ .
(٤) سورة الكهف آية ٢٨ .
(٥) سورة يوسف آية ٩٠ .

إذن الإنسان قادر على الاختبار ، بل قادر على الصبر وكظم الغيظ على ضياع المحبوب وتحمل المكروه وذلك بالعزم ومخالفة النفس ورياضتها وسياستها فالصابر حابس لنفسه عما تنازع إليه من الشهوات وما تشكو من المستكرهات .

والصبر يأمر به العقل والعقل موهبة أودعها الله الإنسان ، وليس بصحيح ما يدعيه فرويد بأن الكبت لا دخل للعقل فيه وبأنه عملية لا شعورية ليس بصحيح هذا الرأي إذ أننا فاضلنا بين فوائد الصبر وما يتبعه من الخير عاجلاً أو آجلا ظهرت حينئذ فضائل العقل وخساسة الهوى [١] .

وفي تصورنا أن الإنسان ليس مستودعاً للشهوات والرغبات والحاجات الغريزية فحسب كما يدعي فرويد وتلامذته وإنما إذا كان الله قد أودع في جبله الإنسان بعض الشهوات والآفات والعيوب فإنه أيضاً وهبه عقلاً راشداً وقلباً واعياً وروحاً من لدنه تعالى فإذا وقع الإنسان في الإثم فعليه أن يبادر إلى التوبة والتوبة ندم والندم علم إيجابي لأن فيه مخالفة لأهواء النفس واختبار للوسط العدل ورياضة أساسها العزم بل سياسة ورعاية ومحاسبة [٢] .

ومراقبة تستهدف رجوع النفس إلى الاعتدال والتوازن .

فالندم توبة لأنه رجوع إلى الحق وبعد عن الإثم والعدوان [٣] .

ليس إذاً كما يدعي فرويد الإنسان مغلوب على أمره وأن الحتمية النفسية هي ميراث مفروض وقدر محتوم لا يستطيع الإنسان منه خلاصاً إنما واقع الأمر أن الطريق واضح جلي والإنسان عليه أن يختار إما طريق الحق

---

(١) نحو منهج إسلامي صـ ٣٥٨ د. حسن الشرقاوي مطبعة السفير بالإسكندرية .

(٢) طبقات الصوفية للإمام أبو عبد الرحمن السلمي صـ ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) نحو منهج إسلامي صـ ٦٢ .

أو طريق الباطل ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [١] ، فالباطن والظاهر والشعور واللاشعور كله بعلم الله وفضل الله ومنة الله .

والإنسان مطالب بأن يتقي ويصبر وأن يهجر فسقه وهوى نفسه وأن يصدق ظاهره مع باطنه فإذا تم له ذلك وهداه الله إلى الرشد فلا أمراض نفسية ولا عصاب ولا مذلة ولا مسكنة لغير الله إنما قلب سليم وعقل سليم.

ونحن لا يمكن أن نتفق مع منطق فرويد في أن العصابين هم حملة مشاعل الحرية والحضارة ، بل على العكس هم حملة الظلمة والخوف والرعب والفزع وإذا كانوا كما يدعي بركانا يغلي من الداخل ومستودعاً للمتناقضات والنكوبات التي لا تستطيع نفاذاً على سطح الشعور .

فإن العصاب ليس تعبيراً إذن عن نفس القوى التي أدت إلى أسمى أماني جنسنا وإنما على العكس من ذلك تماماً يمثل العصاب أنواعاً من الأمراض وكل من في قلبه مرض وكل من يشبع الفاحشة والاضطراب في النفس [٢] . تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ [٣] .

والمرجفون كالمنافقين توعدهم الله بالرجفة وهي الاضطراب الشديد والقلق والفتنة هؤلاء عقابهم من الله شديد .

---

(١) سورة الملك آية ١٣ .
(٢) نحو منهج إسلامي صـ ٣٦٤ .
(٣) سورة الأحزاب : ٦٠ ، ٦١ .

لذلك فإننا نرى أن الأمراض النفسية العصابية التي يذكرها فرويد إنما تنطبق على مريض القلب الذي لا إيمان له المتهالك على هوى نفسه والذي عبدها وسجد لها ، وأما المؤمن بالله فلا يصاب بهذه الأمراض لأنه يعرف طريقه ويتجه إلى خالقه بكليته ويخالف حظوظ نفسه لأن الله سبحانه وتعالى يطمئن قلبه وذلك تصديقاً بقوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [١] .

ثم أنه إذا كان في زعم فرويد أن هناك في منطقة اللاشعور تناقضات وخلط بين قوى غريزية جنسية متصارعة فإننا نرى أن ذلك فرض لا أساس له من الصحة إنما هناك قلب مريض فيكون باطن الإنسان مريضاً .

فليس هناك إذن تناقضات في قلب الإنسان وضمير الإنسان وليس هناك ميراث لا شعوري يجهله الإنسان ، إنما كل ما يعلمه الإنسان مسئول عنه وكل ما يجهله مرفوع عنه حساباً [٢] .

وهكذا يقتل مذهب فرويد بسلاحه الذي شرعه ليهدم به الأخلاق والمثل والقيم العليا ، ولكن تفسير نظريته بهذا الشكل وإن كان يبعدها عن العلمية الصحيحة إلا أنه يخفف من مسئوليته عن الآثار المدمرة في الاجتماع والأخلاق وأخصها الثورة الجنسية والانطلاقة البهيمية كما يسبغ على هذه النظرية الفرويدية طابع الذاتية لا الموضوعية .

---

(١) سورة طه : ٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٦ .

ولكن يمكن القول : بأن فرويد فعل ذلك كله وقرر ما قرر عن قصد قاصد وإرادة مريد ولنظريته مبررات موضوعية خارجية وإن كانت المبررات الداخلية صورة منها أو لازمة لها أو عنها فهو مجرم موظف أجرم في حق الإنسانية عن تعمد وسبق الإصرار والترصد وفعل ما فعل وهو واع تماماً لما يفعل وهو مع غيره مثل دارون وماركس ونيتشه وغيرهم يمثل حلقة في سلسلة متصلة من التآمر اليهودي على العالم . وهذا ليس تجنياً منا وإنما هو الحقيقة الموضوعية التي تكشف عنها بعض كتب اليهود المعتمدة وتصدق عليها الخطط العملية المنبثقة عن تلك المبادئ النظرية الهادمة .

وأظن أن هدم الدين من الأهداف الواضحة جداً في مذهب فرويد كذلك هدم الأخلاق وهذا ما قصد إليه اليهود بالضبط فهم ينشرون النظريات الهدامة اللا أخلاقية ، فقد جاء عنهم لقد خدعنا الجيل الناشئ من الأميين وجعلناه فاسداً بما علمناه من مبادئ ونظريات معروفة لدينا بزيفها[1].

هو إذن العمد وسبق الإصرار وليس اللا شعور وربما كان النص الآتي أوضح في الدلالة في مجال ما يسمى بالنظريات العلمية " لاحظوا هنا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل والأثر الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي سيكون واضحاً لنا على التأكيد " [2].

وليس أوضح من هذا في الدلالة على أن مثل فرويد كان يعرف مهمته وهدفه من هذه المهمة سعى إليها سعياً حثيثاً لا يلوي على شيء ضارباً

---

(١) الخطر اليهودي صـ ١٥٩ .

(٢) المصدر نفسه صـ ١٣٢ .

عرض الحائط بكل مقتضيات المنهج العلمي السليم .

فقد انطلق من دراسة بعض الحالات الشاذة إلى الحكم على البشرية كلها في جميع أزمنتها وامكنتها وهذا ليس من العلمية في شيء ثم عمم الحكم على كل الأديان فإنها كابتة لدوافع الإنسان الفسيولوجية ومن ثم يجب إعلان الحرب عليها انطلاقاً من رؤيته للمسيحية قبل عصر هذه المسيحية المحرفة التي لا تمت بصلة إلى وحي السماء بل هي نتاج مصالح الكهان والطغاة مجتمعين فضلاً عن إطلاق الحكم على الأديان جميعاً .

ولو قرأ فرويد عن الإسلام بروح واعية لكان له رأي آخر لكن طول المعاناة لديهم من الدين ربما أدى بهم لا شعورياً إلى التعميم وانطلقوا وما كان عندهم وقت ولا استعداد لمناقشة مبدأ أو قبول الدين أيا كان .

الفصل التاسع : من مزاعم الفكر المادي

١- شبهة المصادفة:

إن المتأمل فى حال العالم يجد أنه اشتمل على نظام دقيق، وإتقان بديع يشهدان بعظمة الخالق ووجوده، ففى هذا العالم ترتبط الأسباب فيه بالمسببات وتتقدم المقدمات النتائج الأمر الذى يعطى اعتقاداً جازماً بوجود صانع مهيمن على هذا العالم بما فيه. ومع هذا فقد وجدت شرذمة قليلة أنكرت وجود الله تعالى بدعوى أن وجود الكون على هيئته هذه لم يكن من تدبير إله وإنما من صنع الصدفة(١).

وواقع الأمر أن هذه النزعة وجدت قديماً فهى ليست نزعة حديثة، أو معاصرة ، فقد وجد هذا الاتجاه لدى تلك الطائفة التى عرفت بالدهرية(٢) وأنكرت وجود الله تعالى بحجة أن العالم لم يزل موجوداً بنفسه ولا صانع له ولا مدبر ووجد هذا الاتجاه لدى بعض فلاسفة اليونان أمثال ديمقريطس الأغريقى(٣) الذى زعم أن الحياة وجدت اتفاقاً، دون احتياج لعلة مؤثرة فجميع ما فى الكون نتيجة للصدفة العمياء(٤).

---

(١) الصدفة: مصطلح يستعمله كثير من الناس على أساس غير علمي، فقد شاع استخدامها بأنها تعنى التقابل القائم بين شيئين، والصحيح أنها كلمة تعنى انعدام السبب الفاعل والسبب الغائى، وهذا يستلزم غيبة النظام، وغيابة العناية والقصد فهى تعنى الاعتباط والفوضى، وكل ما يترتب على هذا المعنى من لوزام منطقية أو واقعية. (انظر: العقيدة والفكر الإسلامى د. محمد هشام سلطان صـ٨٦ مكتبة رحاب ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م القرآن والكون د. محمد عبد الله الشرقاوى صـ٤٩ دار الجيل بيروت ١٤١١هـ-١٩٩١م ط٣).

(٢) الدهرية: نسبة إلى الدهر وهم فرقة من الزنادقة أو الملاحدة يجحدون الصانع المدبر العالم القادر، ويزعمون أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه لا بصانع وينكرون البعث والنبوة والحساب ولا يعرفون الخير ولا الشر وإنما اللذة والمنفعة (انظر : الفصل فى الملل والأهواء والنحل. ابن حزم جـ١ صـ ٤٧-٧٨. تحقيق د. محمد إبراهيم، د. عبد الرحمن عميره ط دار الجيل بيروت ط٢ ١٩٩٦).

(٣) ديمقريطس الأغريقى هو فيلسوف يونانى ولد فى تراقيا عام- ٤٦٠ق.م تقريباً وتوفى عام ٣٧٠ ق.م سافر كثيراً وأخبر أنه زار مصر وقضى بها خمس سنوات وقد أنشأ مدرسة أبدير عام ٤٢٠ق.م وله مؤلفات منها فى جهنم، فى الأفلاك، فى طبيعة السماء وغيرها (انظر : موسوعة أعلام الفلاسفة. إعداد رونى إيلى ألفا وزميله جـ صـ٤٥٥-٤٥٦ دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٤١٢/ ١٩٩٢).

(٤) تاريخ الفلسفة اليونانية يوسف كرم صـ٤٠ نشر مكتبة النهضة المصرية ط٤، انظر نقد المذهب التجريبى محمد محمد طاهر صـ ١٢٤ منشورات دار ومكتبة الهلال بيروت.

وإذا كان هذا قول القدماء فإن ما قاله المحدثون لا يختلف عنه، فقد ذهب كثير منهم إلى أن وجود العالم بهيئته هذه. بمحض الصدفة فها هو الفيلسوف الإنجليزى براتراند رسل[١] يقول: "إن الكون الذى نشاهده الآن إنما وجد بمحض الصدفة"[٢].

هكذا اتفاقاً تسير ظواهره وتعمل قوانينه، ويلخص رسل تاريخ البشرية كلها فى القول بالصدفة قائلاً:

"ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير إن نشأته وحياته وآماله، ومخاوفه وعواطفه وعقائده ليست إلا نتيجة لاجتماع جسمه عن طريق المصادفة"[٣].

وهاهو الفيلسوف الألمانى هيكل[٤] يقول: إن الموجود الضرورى الوحيد هو المادة، وأن الحياة ترجع إلى أصل واحد، وهو المونيزا - التى تركبت اتفاقاً من مركبات عضوية من الأزوت، والهيدروجين، والأوكسجين، والكربون ثم تطورت على التوالى حتى تكونت جميع الكائنات الحية[٥].

---

(١) رسل هو: فيلسوف رياضي ومنطقي وعالم اجتماع إنجليزي ولد عام ١٢٨٩هـ ، ١٨٧٢م وتوفى عام ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠ تلقى تعليماً خاصاً وحصل على منحة لدراسة الرياضيات فى كلية ترينتى بجامعة كامبريدج وكان من الطلاب المتميزين وقد ترك مؤلفات كثيرة منها أسس الرياضيات، الدين والعلم، فلسفتى كيف تطورت، وغيرها (انظر موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب جـ١ صـ ٤٨٢-٤٨٤).

(٢) فلسفتى كيف تطورت لرسل. صـ٢ ترجمة عبد الرشيد الصادق مراجعة د/ زكى نجيب مكتبة الأنجلو المصرية ط ١٩٦٠.

(٣) الله يتجلى فى عصر العلم. تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين صـ ٥٧ ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد مراجعة د/ محمد جمال الفندى. دار القلم بيروت.

(٤) هيكل هو: أرنست هيكل ولد عام ١٨٤٠هـ ومات عام ١٩١٩ فيلسوف واحدى وهو أستاذ علم الحيوان وله عدة مؤلفات منها الدين والتطور، تاريخ الخلق الطبيعى وغيرهما (انظر الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة د. يحيى هاشم صـ ٢١٠ ط دار المعارف) .

(٥)انظر: فصل المقال فى فلسفة النشوء والارتقاء . أرنست هيكل صـ ٢٩ نقله إلى العربية حسن حسين مطبعة الشباب ١٣٤٢ - ١٩٢٤، تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم صـ ٤٠ ط دار المعارف ط٥.

ويقول عالم الأحياء فرانسيس كريك "إن استمرار النظام الموجود فى العالم يحدث عن طريق المصادفة، وقد تتكرر هذه العلمية فتحدث المرة بعد المرة، وذلك كلما ألقت الصدفة بظفرات جديدة نافعة كما أن التحسين قد يضاف إلى التحسين، فإذا ما أعطينا هذه العملية الزمن الكافى فسينتج التطور كائنات متوافقة مع بيئتها على نحو ممتاز، والأمر لا يحتاج إلى أكثر من هذه الظفرات التى تحدث بالصدفة، للوصول إلى هذا الكمال فى التصميم ولا يبدو أن هناك آلية، أو على الأقل آلية شائعة توجد هذا التغيير فى الحين. بحيث لا تظهر إلا التغييرات النافعة، ثم يمكننا أن نجادل فنقول : إن مثل هذه الآلية الموجهة قد تكون على المدى الطويل صادقة أكثر مما ينبغى فإنه إذا ما جاء وقت أزمة ظهرت الحاجة إلى ابتداع شئ جديد لا يمكن تحديد أهم ملامحه مسبقاً، ولهذا السبب لابد أن تعتمد على الصدفة فالصدفة هى المصدر الوحيد"[1].

ومن خلال ما سبق عرضه يتضح لنا ما لهذه الشبه من مكانة فى نفوس هؤلاء، فقد دانوا بها ودافعوا عنها وتشبثوا بها زاعمين أن هذا الكون لا يحتاج إلى موجد يوجده، بل وجد بصورته هذه بالصدفة والاتفاق دون تقدير ولا تدبير، ولا أثر للاختيار فيه ويؤكد ذلك قول هكسلى : " لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة التى كتبوها

---

(١) طبيعة الحياة- فرنسيس كريك صـ ٦٣-٦٤ ترجمة د. أحمد مستجير مراجعة د. عبد الحافظ حلمى سلسلة عالم المعرفة العدد ١٢٥ رمضان ١٤٠٨هـ-مايو ١٩٨٨ مطابع الرسالة بالكويت.

قصيدة من قصائد شكسبير. فذلك الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء ظلت تدور فى المادة لبلايين السنين"[١].

وهكذا استقر رأى هؤلاء الملاحدة على الإيمان المطلق بهذه المقولة فأى حدث فى الكون إنما هو من باب المصادفة ، ونتيجة لها "وأن الكون سواء أكان له معنى أم لم يكن، كان على أى حال سيظهر إلى حيز الوجود ويجرى مجاره حتى لو كانت الظروف الثابتة والأولية تحول دون تطور الحياة والوعى، فالحياة جاءت اتفاقاً، وهى طارئة على آلية الكون"[٢] "وأجمل انتظام فى العالم أشبه بكتلة نفايات مجموعة صدفة"[٣].

وهكذا يستمر هؤلاء مؤمنين بالمصادفة إلى أن يصلوا فى النهاية إلى نتيجة فحواها أن العالم وجد بدون علة ولذا "فليس ثمة راحة نفسية يمكن أن تستخلص من الفرض القائل بأن هذا العالم هو من صنع خالق، وبالمثل...فى الافتراض القائل بأن هذا الكون المزعج قد وضع وفقاً لخطة مرسومة أو تدبير سابق"[٤].

هذه هى شبه المصادفة كما عرض لها أصحابها، وهى شبه واهية بكذبها الواقع، وبرفضها المنهج العلمى الصحيح، كما يشهد على بطلانها شهادة العقلاء.

---

(١) الإسلام يتحدى. وحيد خان صـ ٧٢- ترجمة ظفر الإسلام خان مراجعة د/ عبد الصبور شاهين ط المختار الإسلامى ط٣ ١٩٧٣.

(٢) العلم فى منظوره الجديد- روبرت م. أغروس وآخر صـ٦٦. ترجمة د. كمال خلايلى سلسلة عالم المعرفة العدد ١٣٤ جمادى الآخرة ١٤٠٩-١٩٨٩م

(٣) الفلسفة فى العصر المأساوى الأغريقى- فريدريك نيتشه صـ ١١٠ -تعريب د/ سهيل القشن تقديم ميثال موكو- المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط٢ ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

(٤) دراسات فى الفلسفة المعاصرة د. زكريا إبراهيم جـ١ ٢٣٥ / ٢٣٦ نشر مكتبة مصر.

وفيما يلى عرض لبيان فسادها من خلال الأدلة العقلية ، والعلمية والنقلية:-

الرد على الشبهه:

لقد ساق العلماء جملة من الأدلة المختلفة التى تؤكد بطلان هذه الصدقة.

[أ] الأدلة العقلية :

١- تناقض المصادفة :

إن القول بالصدفة خرافة يرفضها أصحاب العقول السليمة ، والفطر النقية لاستحالة حدوث المصنوعات ذات القصد والعناية، والإبداع دون وجود محدث لها ، فإن من شهد بناءً جزم بأن له بانيا. فالقول: بالصدفة باطل، لأن الصدفة لا وجود لها ولا يمكن لها أن تخلق شيئاً من العدم إلى الوجود ، وكل ما يمكن نسبته إليها هو حركة التلاقى بين الموجودات ، وهذه الحركة قد تحدث مرة بين آلاف المرات فالصدفة خرافة ولا أساس لها، ولا يتمسك به إلا من أضله الله تعالى، وختم على قلبه بالكفر والضلال.

٢-دليل العناية والغائية :

لقد جعل العلماء من عناية الله تعالى بالكون دليلاً واضحاً على فساد القول بالصدفة، فالكون المادى يسوده النظام، ويسيطر عليه الإحكام، وليست الفوضى وتحكمه القوانين، وليست المصادفة أو التخبط .

وهذا الدليل شائع ومنتشر، بين فلاسفة الإسلام ، متكلمين، وإشراقيين، ومشائين، فهم جميعا يستدلون به على وجود الله تعالى، وفى نفس الوقت يستبعدون به فكرة المصادفة والعبث فى هذا الكون وموجوداته وقد

عرض له الإمام الأشعرى[١] كما استدل به إخوان الصفا[٢] وكذلك ابن رشد[٣] وغيره.

فها هو الكندى يقول " فإن فى نظم هذا العالم وترتيبه وفعل بعض لبعض ، وتسخير بعض لبعض، واتفاق هيئته على الأمر الأصلح فى كون كل كائن ، وفساد فاسده ، وثبات كل ثابت، وزوال كل زائل لأعظم أدله على أتقن تدبير، ومع كل تدبير مدبر، وعلى أحكم حكمه ومع كل حكمة حكيم"[٤].

فهذا الدليل يبطل الصدفة بما لا يدع مجالاً لأدنى شك ، ولهذا نجد كثيراً من الفلاسفة المعاصرين- يستدل به ليثبت وجوده تعالى فها هو برجسون[٥] يذهب إلى أن الكون كله من الذرة إلى المجرة ينبض كالجسد الواحد يحيا حياه واحدة يظهر فيها بوضوح، مدى الترابط والتعاون الأمر الذى يخالق فى نفوسنا ذلك الإلهام المباشر لوجوده تعالى[٦].

وعلى هذا يمكن القول : إن الإنسان إذا ما صادف أسبابا مبعثرة فى الطبيعة يقف أحياناً عندها، فإذا تابع السير فيما وراءها وأمعن النظر فيها أمكن من الوصول إلى مدى العناية الإلهية والتسليم بوجوده.

---

(١) انظر: اللمع فى الرد على أهل الزيغ . للأشعرى ص١٨-٢٠

(٢) انظر: رسائل أخوان الصفا وخلان ألوفا ط ص٣٣٣ . تقديم. طه حسين وأحمد زكى باشا- تصحيح خير الدين الزركلى-مصر المطبعة العربية ١٩٢٨ .

(٣) انظر: الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة- لابن رشد تحقيق د/ محمود قاسم ص١٤٨-١٥١ مكتبة الأنجلو المصرية.

(٤) رسائل الكندى الفلسفية. تحقيق د/محمد عبد الهادى أبو ريده صـــ٢١٥ . دار الفكر العربى ١٩٥٠م .

(٥) برحسون: ولد فى باريس عام ١٨٥٩ من أبوين فرنسيين يهوديين وكان طالباً نجيباً وقد نال جوائز كثيرة وكان ذائع الصيت ترك مؤلفات كثيرة منها الضحك، المادة والذاكره، الحلم وغيرها (انظر: قصة الفلسفة ول ديورانت صـــ ٥٥٥-٥٥٦، موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب جـ ١ صـــ ٢١٤-٢١٦).

(٦) انظر: قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر ص١٩٥-١٩٦. منشورات دار الخلود لبنان ط٣ ١٣٨٩م-١٩٦٩م .

فكل شيء وجد بدقة محكمة لا مجال للمصادفة فيها؛ لأنها تخبط وعشواء وهذا خلاف ما عليه الواقع.

وأخيراً فإن هذا الدليل هو الذى أشار الله تعالى إليه فى أكثر من موضع منها قوله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[١].

٣- دليل النظام :

وهو برهان واضح على فساد القول بالصدفة وهو يقوم على مقدمتين الأولى حسية والأخرى عقيلة.

" فأما الأولى ، فهى أن هناك نظاماً بديعاً يسود كل أرجاء الكون من الذرة إلى المجرة ، وهو أمر تتكفل بإثباته المشاهدة والملاحظة... وإما الثانية،فهى أن العقل بعد ما لاحظ النظام وما يقوم علية من المحاسبة، والتقدير والهداية والقصد والتوازن... وحكم بأن هذا يمتنع صدوره بمحض الصدفة والاتفاق، بل لا ينبع إلا من فاعل قادر عليه ذى إرادة وحكمة وقصد"[٢].

والمطالع لكتب المتكلمين يجد أن هذا الدليل قد جذب انتباههم، فقد استدل به الباقلانى[٣] كما أخذ به الإمام الغزالى وها هو يقول:"فليس يخفى

---

(١) سورة الغاشية الآيات ١٧-٢٠ .

(٢) جهود الشيخ حسين الجسر الكلامية فى الإلهيات رسالة ماجستير إعداد الباحث فتحى عبد الرحمن عطية ص١٢٤- كليه أصول الدين بطنطا ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

(٣) انظر: التمهيد للباقلانى صـ٤٤-والإنصاف للباقلانى صـ٣٠-٣١ تحقيق وتعليق الإمام محمد زاهد الكوثرى. مؤسسة الخانجى للطباعة ط٢ ١٩٦٣م.

على من معه أدنى مسكة من عقل، إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات،وأدار نظره على عجائب خلق الله، فى الأرض والسماوات، وبدائع فطرة الحيوان والنبات، إن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدبره، وفاعل يحكمه، ويقدره، بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره"[١].

فنظام العالم وترتيبه على هذا النحو يرفض فكرة المصادفة. ويجعل القائلين بها يقعون فى مأزق واضح لما هو معروف عنها أنها تعنى العشوائية وعدم الدقة والنظام.

ومع هذا فإذا كان هذا الدليل يستدل به على بطلان الصدقة ، فأرى أنه يصلح للاستدلال به على فساد القول بقدم العلم كما يمكن الاستدلال به على فرض القول بالحدوث.

فهو لا يختص بفرض دون الآخر، وهذا أهم ما يميز هذا البرهان عن برهان الحدوث الذى يقوم على حدوث المادة[٢].

وفى رأيى أن هذا الدليل يكشف لنا عن عظيم قدرة الله تعالى فى خلقه ولهذا أعطاه القرآن الكريم قدراً كبيراً من الاهتمام.

قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [٣].

---

(١) إحياء علوم الدين الغزالى جـ ١ صـ ١٩٠.

(٢) انظر: الله خالق الكون أ-جعفر الهادى ص١٥٣ دار الاضواء بيروت ط٢ ١٤٠٦هـ -١٩٨٦م.

(٣) سورة ق الآيات ٦-٨ .

فهذا النظام العجيب القائم على التنظيم والتدبير هو الذى جعل أحد القائلين بالصدفة وهو رسل يقول : "إننا نجد حتى فى مملكة الكواكب عمليات تنطوى على خصائص غائية لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن ملامح السلوك الفرضى فى الحيوانات العليا " [1].

٤-وإذا كان الماديون يقولون بالمصادفة كتفسير لوجود المادة وحركتها ونظامها فهم يلتزمون أيضاً بالتدبير والقصد لاعترافهم بالوعى والعقل كحالة راقية من أحوال المادة وهنا نسألهم عن وجود العالم وتقدمه أهو أجدر أن يعزى إلى الصدفة أو أجدى أن يعزى إلى التدبير والقصد [2].

وكما يقول سقراط[3] : أرأيت لو عرضت عليك مصنوعات مختلفة فى غاية الدقة والمنفعة فأيهما أولى بأن نظنه من نتائج العقل والحكمة فكانت الإجابة بأن بداهة العقل تقتضى أن نقول بأن الذى له حكمة ظاهرة ومنفعة بينة هو من فعل العقل والحكمة[4].

٥- فإن القول بالصدفة قد يصح بالنسبة للإنسان، ولكن لله تعالى فلا يوجد ما يسمى بالصدفة فما من شئ صغير ولا كبير فى هذا الكون إلى وجد بقصد وتدبير ولغاية وهدف وإلا لفسد الكون بما فيه فانظر:

---

(١) فلسفة برتلاندرسل . د/ محمد مهران صـ١٣٥ دار المعارف ط٣ ١٩٨٦م .

(٢) مداخل إلى العقيدة.د/ يحيى هاشم. صـ ٢٠٥. مطبعة التقدم ط ١٩٨٥.

(٣) فيلسوف يونانى ولد حوالى ٤٧ ق.م فى أثينا من أب نحات وأم قابلة عرف [illegible] احترامه لنفسه وحبه للعلم والحكمة والبحث وقد مات فى عام ٣٩٩ ق.م (انظر: موسوعة الفلسفة. د/ عبد الرحمن بدوى جـ١ صـ ٥٧٦-٥٧٨- المؤسسة العربية للدراسات. ط١ ١٩٨٤م، مقدمة فى الفلسفة العامة. د/ يحيى هويدى صـ ٢٨٩ دار النهضة العربية. ط-١٩٧٩).

(٤) انظر:الإسلام فى عصر العلم-محمد فريد وجدى صـ - ١٦٢ - ١٦٨.دار الكتاب العربى بيروت. ١٣٨٦هـ - ١٩٦٧م ط٣.

"هل هذا الترتيب المحكم والتكوين المنظم والأسباب الموجودة للكائنات والعلل الحافظة لها والعوامل الدافعة لترقيتها والنواميس العاملة لتكميلها كل هذه المجموعة الضخمة من السباب والعلل والنواميس فى كون يزخر بالأحياء ويفيض بالكائنات قائمة على مجرد المصادفة والاتفاق ومجردة من روح يدبرها ويهيمن على أطوارها [١] إن الواقع المشاهد يشهد بخلاف ذلك تماماً.

[ب] الأدلة العلمية على بطلان الصدفة:

لقد أثبت العلم الحديث بما لا يدع مجالاً لأدنى شك، أن هذا العالم تكون بمحض إدارة قوة عاقلة. تامة التصرف وهو مسخر تحت سلطانها. يشهد لذلك أوضاعه وأحجامه. وحركاته وطبائعه ولإثبات هذه الحقيقة نراهم ساقوا جملة أدله من أهمها ما يلى:

١ – الأنظمة المعقدة الموجودة فى هذا العالم:

لقد جعل العلماء من الصورة غير العادية من التعقيد الموجود فى هذا الكون دليلاً واضحا على فساد القول بالصدفة " فالتعقيد الهائل فى ظاهرة الحياة والانسجام الهائل، ووضع كل شيء فى محله. إنما يدل دلالة واضحة على علم وإدارة وقدرة وراءها موجد أوجدها على هذا النحو"[٢].

فقد أثبتت العلوم الكيمائية أن التعقيد الهائل الموجود فى أبسط الأشياء يجعل من المستحيل جمعه فجأة بدون تدخل قوة خارجه.

---

(١) الإسلام دين الهداية والإصلاح. تحليل دقيق لمبادئ الدين الإسلامى محمد فريد وجدى صـ ١٠. راجعه وصححه محمد زهرى النجار. دار الجيل بيروت ط١ ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

(٢) الله جل جلاله– سعيد حوى ص٤٣ مكتبة وهبه.

إن الخلية الحية هى نظام معقد وجميل كعالم المجرات والنجوم، وقد استمرت الآلة الدقيقة للخلية الدءوب خلال أربعة مليارات من السنين، وتتحول أجزاء العظام بمثل فعل السحر إلى أجهزة خلوية، فكرية الدم البيضاء هى ورقة سبانخ الأمس،كيف تقوم الخلية بهذا العمل؟ الجواب هو أنه يوجد فى داخلها متاهة أو شبكة من الممرات وبنية معقدة وبنية هندسية متقنة تحافظان على تكوينها، وتحولات الجزيئات وتخزنان الطاقة، وإذا استطعنا أن ندخل إلى الخلية فسوف نرى الكثير من الأقسام الجزئية مؤلفة من جزئيات البروتين، وأن بعضها فى حالة نشاط محموم ، بينما البعض الأخر فى حالة انتظار" [(١)].

فمثل هذا لا يمكن ، بل يستحيل حدوثه بالصدفة ، والأولى أن نجعله دليلاً على وجود الله تعالى.

أن بروتوبلازم الخلية قد بلغ فى تركيبة درجة من التعقيد، حيرت جميع العلماء، وتعتبر البروتينات أشد عناصره تعقيداً [(٢)].

فهذا الكون ملىء بمظاهر الروعة المعقدة التى تحتاج إلى مدبر لها ولا يمكن ردها إلى الصدفة.

٢-التوازن المحكم الموجود فى كل شيء:

فلقد أثبتت جميع الدراسات العلمية بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا العالم يسير وفق توازن محكم لا مثيل له " فهذه الكواكب السابحة فى الفضاء على مدارات منتظمة تشعر بجاذبها المتبادل وجريها إلى غايتها، وانتهائها إلى نهايتها

---

(١)الكون. د/ كارل ساعان- ترجمة نافع أيوب - مراجعة محمد كامل عارف ص٥٢-٥٣ -سلسلة عالم المعرفة العدد ١٧٨-ربيع الأول ١٤١٤هـ-١٩٩٣م مطابع السياسة الكويتية.

(٢)انظر:القرآن يتحدى. أحمد عز الدين عبد الله صـ٢٥٢-٢٥٣دار صادر بيروت ط٢ ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

بأنها مقودة، بنظام دقيق ينبيء عن قصد حكيم، وتدبير سديد أريد به قيامها على هذا الترتيب البديع لإنتاج أعراض يعيده من معمارية الكون وتحليته بكل الإبداعات الممكنة"[١].

فالأرض مثلاً هى "أهم عالم عرفناه إذ توجد فيها أحوال لا توجد فى شىء من هذا الكون الواسع، وهى فى ضخامتها لا تساوى ذره من هذا الكون العظيم، ولو أن حجمها كان أقل أو أكثر مما هى عليه، الآن لاستحالت الحياة فوقها، فلو أنها كانت فى حجم القمر مثلا بأن كان قطرها ربع قطرها الموجود فعلاً لكانت جاذبيتها سدس جاذبيتها الحالية، ونتيجة لذلك لا يمكن أن تمسك الماء والهواء من حولها كما هو الحال فى القمر... لضعف قوة الجاذبية وانخفاض الجاذبية فى الأرض إلى مستوى جاذبية القمر سيترتب عليها اشتداد البرودة ليلاً حتى يتجمد ما فيها ، واشتداد الحرارة نهاراً حتى يحترق كل ما عليها... ومن ثم أطلق أحد العلماء على هذه العملية لقب " عجلة التوازن العظيمة"[٢].

كل هذا يؤكد أن هذا العالم يسير وفق قوانين ثابتة وأسس لازمة لوجوده، ففروع العلم تثبت ذلك.

وغير خفى أن هذا يتنافى مع القول بالصدفة لما هو معروف عنها، بأنها فعل عشوائى لا يجرى على نظام، كما أنها لا تدعو إليه؛ فالصدفة يستحيل عليها أن تؤدى إلى تكوين أحد جزئيات البروتين فكيف بعالم تحكمه

---

(١) على أطلال المذهب المادى محمد فريد وجدى جـ١ صـ١٠١ .

(٢) الإسلام يتحدى وحيد خان صـ٦٢ .

القوانين والأنظمة المعقدة، " إن تنظيم حركات السيارات المختلفة الدائرة حول مراكز ثابتة بغاية الدقة والإحكام، ثم كيف أمكنها أن تصور أجسام الحيوانات التى لا تتناهى فى العدد، والاختلاف بهذا الإبداع المدهش، ثم كيف أمكنها أخيراً أن يكون هذا الإنسان الجامع لسائر قوى الكون على أصغر حجمه الشامل لجميع عجائب الخلق ونهاية الاختراع"[١].

٣-مظاهر الروعة فى العالم تنفى القول بالصدفة :

فلقد أثبت العلم الحديث أن مظاهر الروعة التى تحيط بكل شىء فى هذا الكون هى من أوضح الأدلة على فساد هذا القول، والمتأمل فى هذا الكون الدارس لما ينتشر فى جنابته من إنسان وحيوان، ومواد وأجرام استطاع أن يقف على مظاهر الروعة فيها.

فلو رفعنا أعيننا مثلاً نحو السماء "فلا بد أن يستولى علينا العجب من كثرة ما نشاهد فيها من النجوم والكواكب ، السابحة فيها، والتى تتبع نظاماً دقيقاً لا تحيد عنه قيد أنملة مهما مرت بها الليالى، وتعاقبت عليها الفصول، والأعوام والقرون إنها تدور فى أفلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة فهل يظن أحد بعد ذلك أن هذه الكواكب والنجوم قد لا تكون أكثر من تجمعات عشوائية من المادة تتخبط على غير هدى فى الفضاء" [٢].

ولو تركنا السماء وانتقلنا إلى عالم آخر وهو عالم الإنسان استرعنا ما

---

(١)الحديقة الفكرية فى إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعة أ-محمد فريد وجدى صــ٣٧ مطبعة الترقى ١٣١٨هـــ-١٩٠١م

(٢)الله يتحلى فى عصر العلم، صـــ ١٤٧-١٤٨،وانظر : الإسلام يتحدى صــ٦٣ لمعرفة المزيد من مظاهر الروعة فى هذا العالم.

نشاهده فى خلقه وتكوينه فمثلاً مخ الإنسان " تأمل عجائب المخ البشرى الذى لا ينتهى الحديث عنها، ومنها الذاكرة التى تتسع خلاياها لما لا تسعه بلايين السطور لو كان صاحبها من العلماء العارفين بالله تعالى، وانظر إلى غرائب الجهاز العصبى الذى تقدر عدد وحداته بعشرة مليارات من الخلايا العصبية وهذه الخلايا يربط بينها نظام عجيب يجعلها ترد على أى مؤثر فى لحة تقدر بأجزاء من الثانية الواحدة :إذ تبلغ سرعة الإرسال فى هذه الأسلاك العصبية ٣٠ متراً فى الثانية "[١].

وقد عرض السير أوثرطوسون عن مظاهر الروعة فى العالم من حولنا جاعلاً منها دليلاً واضحاً على بطلان القوة بالصدفة وقد عرض لها على النحو التالى:-

أ- مظاهر الروعة فى وفرة القوة فى العالم.

ب- مظاهر الروعة فى تعقيد الأشياء وتشابكها.

ج- مظاهر الروعة فى دقة ونظام الطبيعة.

د- مظاهر الروعة فيما يتعلق بشخصياتنا.

هـ-الوضوح فى نظام الكون.

و-مظاهر الروعة فى الخصائص الأساسية للكائنات الحية.

ز-مظاهر الروعة فى التطور[٢].

ومن أروع ما نشاهده فى الطبيعة أمر النحل والنمل. فالنحل، لها أمير

---

(١) القرآن يتحدى أحمد عز الدين عبد الله صـ٤٥٢.

(٢)انظر: العلم أسراره وخفاياه- تحرير هارلوشابلى وآخرون ترجمة د/ محمد صابر وآخرون جـ١ صـ ١٤-١٧ ط مكتبة غريب ١٩٧١م.

ومدير وهو العسوب وهو أكبر جسما من جميع النحل، أحسن شكلاً ولوناً، وإلهام الله لها بأن تتخذ من الجبال ومن الشجر بيوتا ومما يعرشون، ومن عجيب أمرها أنها تقتل الملوك الظالمة المفسدة ولا تدين لطاعتها كما أن من يلفت الانتباه إلى مظاهر الروعة فى هذا العالم أن الملك إذا خرج متنزها ومعه الأمراء وأصابه تعب تحمله الفراخ وغير هذا كثير فى هذا العالم الذى خص بإخراج مادة الشفاء من الأمراض وأما النمل فكذلك عالم عجيب ملئ بالروعة والنظام اللذين يشهدان بوجود الله تعالى [١].

والأمثلة لا تعد ولا تحصى على مظاهر الروعة والجمال فى هذا العالم- الأمر الذى يؤكد أن سلوك هذه الكائنات وما تقوم به من أفعال وما تشتمل عليه هذه الأفعال من آيات بديعة، لا يمكن أن يكون عن طريق الصدفة "فالحيوانات البحرية المسماة شقائق النعمان لها خلايا لاسعة فى أذرعها وعند أخف لمسه لهذه اللوامس تنطلق تلك الخلايا فى قوة وسرعة فتعتمد فى جسم الحيوان المتحرش فيها"[٢].

كما أن فى الدواب موضوعاً للتأمل فما فى جوفها بين الفضلات والدم تعطينا لبناً صافيا يأتى من التلاحم بين محتوى الأمعاء والدم[٣].

٤-القول بالصدفة يؤدى إلى استحالة العالم .

فعندما قام العلماء بتطبيق هذا القول على احتمالات ظهور الحياة على

---

(١) أنظر: شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم صـ١٢٠-١٢٥ مكتبة الإيمان ط ١٤١٧-١٩٩٦.

(٢)مداخل إلى العقيدة الإسلامية د/ يحيى هاشم ص١٩٤ مطبعة التقدم ١٩٨٥ .

(٣)انظر: القرآن الكريم والتوراة والأنجيل والعلم دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة د/موريس بوكاى ص ٢٢٢-٢٢٣ الفتح للإعلام العربى.

الأرض وجدوا أنه يدخل فى حكم المستحيل الذى لا يقبل الوجود أصلاً .

إن البر وتينات من المركبات الأساسية فى جميع الخلايا الحية هى التى تتكون من خمسة عناصر هى الكربون، والأيدروجين والنيتروجين والأوكسجين، والكبريت، ويبلغ عدد الذرات فى الجزء البروتينى الواحد أربعين آلف ذرة، ولما كان عدد العناصر الكيموية فى الطبيعة اثنين وسبعين عنصراً موزعة كلها توزيعاً عشوائياً فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكى تكون جزيئاً من جزيئات البروتين يمكن حسابه لمعرفة كمية المادة التى ينبغى أن تخلط خلطاً مستمراً لكى تؤلف هذا الجزىء، ثم لمعرفة طول الفترة الزمنية اللازمة لكى يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزىء الواحد"[1].

وعلى هذا ولو سلمنا بأن الكون وجد بالصدفة دون قصد واتفاق بمعنى أن الكون بمادته التى تكون منها تجمع من تلقاء نفسه فإننا لا نستطيع أن نقف على تفسير مقبول لنشأة العالم بل لن تستطيع تفسير أصل العالم وأصل الحياة خصوصاً وأن الصدفة هذه ليست افتراضا وإنما هى نظرية رياضية عليا، وهى تطلق على الأمور التى لا تتوافر فى بحثها معلومات قطيعة ....ولو خطأ أن الرياضات التى تعطينا نكتة الصدفة الثمينة هى نفسها التى تنفى أى إمكان رياضى فى وجود الكون الحالى بفعل قانون الصدفة[2].

---

(١) الله يتحلى فى عصر العلم ص١٥ وأنظر: القرآن يتحدى صـ٢٥٥ .

(٢) الإسلام يتحدى صـ٧٣ .

٥ - استمرار وجود العالم وتماسكه :

فالناظر فى هذا العالم يجد أنه موجود على نظام معين وتوازن خاص، واستمر فى وجوده وهذا خلاف ما عليه الصدفة لأنها "لو وجدت لنا أمراً فإنها لا تستطيع أن تسيره فى إطار نظام معين يأخذ شكل التقنين، وإن أوجدته فإنها لا تستطيع إعطاءه حق الاستمرارية فى الوجود"[١].

ومعنى هذا إن المشكلة ليست فى الإيجاد بل فى استمرار هذا الموجود وهذا يجعلنا نتساءل مع الأستاذ العقاد " لماذا تماسك نظام هذا الكون واستمر وجوده بعد أن وجد مصادفة واتفاقا، ولم يسرع إليه الخلل وتنجم فيه الفوضى قبل أن ينتظم على نحو من الإنحاء، وما الذى قدره وأمضاه وجعله مفضلاً أعلى الخلل والفوضى وهما مثله ونظيره فى كل احتمال"[٢].

ثم لو أن الكون خلق مصادفة كما يدعى الملاحدة وتوصلت الصدفة إلى خلق رجل مثلاً " فهل يعقل أن الصدف تكون كائناً أخر مماثلاً له تماما فى الشكل الظاهرى ، ومبايناً له فى التركيب الداخلى ، وهو المرأة بقصد عمارة الأرض بالناس وإدامة النسل فيها"[٣].

إن الذين يدافعون عن الصدفة، إنما يتمسكون بأوهام وضلالات ليس لها أى أساس.

" فنظام الطبيعة وترقيتها والتوافق الغريب بين العلل الغائية، والفائدة الواضحة والقصد البين لكل جزء، ولكل عضو كل هذه تكشف فى أنصع

---

(١) العقيدة والفكر الإسلامى د/ محمد هشام ص٧ مكتبة رحاب ط٢ ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م .

(٢) الله- كتاب نشأه العقيدة الألهية – عباس العقاد ص١٤٩ .مكتبة الأسرة مهرجان القراءة للجميع صيف ١٩٩٨م .

(٣) قضايا فلسفية- جمال الدين بوقلى حسن ص٦٣٥ المؤسسة الوطنية للكتاب ط٤ .

لغة عن علة عاقلة، أو صانع عاقل، إن السماوات والأرض لتجتمع فى شهادة واحدة وجوفة الطبيعة ترتل بكامنها أنشودة فى مدح خالقها"[١].

٦- شهادة العلوم الرياضية :

" فلقد تقدمت دراسة نظرية المصادفة والاحتمال من الوجهة الرياضية تقدماً لا يستهان....فنظريات المصادفة والاحتمال لها من الأسس الرياضية ما يجعلها تطبق على نطاق واسع... ومع هذا فإن فى هذا العالم انتظاماً واتزاناً لا يمكن أن يحمل على الصدفة... فكل ما فى الكون يدل على خروج النظام من الفوضى وعلى التقسيم والقصد"[٢].

وعلى هذا نستطيع أن نقول إن قانون الصدفة الرياضية يستخدم لإثبات وجود الله تعالى ذلك أننا " نلاحظ فى هذا الكون عدداً كبيراً من الظواهر، وكل منها ضرورى لاستقرار الحياة على الحياة،بحيث لو استبدلت ظاهرة مكان أخرى لكان فى ذلك نهاية الحياة. فافتراض أن جميع هذه الظواهر قد وجدت صدفة هو احتمال ضئيل يقرب من العدم؛ لأنه يستبطن مجموعة هائلة من الصدف بينما افترض صانع حكيم لهذه الظواهر لا يحتاج لافتراض ذلك فيكون الاحتمال الثانى أكبر بكثير من الاحتمال الأول طبقاً لقوانين الصدفة الرياضية"[٣].

وهكذا دلت الصدفة الرياضية على وجود الله تعالى.

---

(١) محاورات فى الدين الطبيعى –ديفيد هيوم ترجمة وقدم د/محمد فتحى الشنيطى صـ٦٤ ملتزم الطباعة والنشر. مكتبة القاهرة الحديثة ط١ مايو ١٩٦٥م.

(٢)قضايا فلسفية جمال الدين بوقلى حسن صـ٦٣٠-٦٣١ .

(٣) بحوث فى منهج البلاغة ١- الفلسفة الإلهية- على سليمان صـ٤٠ منشورات الدار العالمية للطباعة والنشر بيروت ط١ ١٤٠١هـ-١٩٨١م .

هذه هى الأدلة التى ساقها العلماء لبيان فساد الصدفة، ومع كثرتها وتنوعها توضح ضعف هذا القول وتهافت قائليه ، لاسيما وأن الطبيعة كتاب مفتوح تشهد بفساده فضلاً عن أنهم لا يقولون به فى أقل الأشياء كالجهاز الآلى مثلاً فما بالنا بهذا الكون الفسيح.

[جـ] الأدلة النقلية على فساد القول بالصدفة.

لقد حوى القرآن الكريم كثيراً من الدلائل التى تضيف إلى الخلق والإبداع العناية والقصد فى الكون بما فيه .

قال تعالى :﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [1].

وفيما يلى عرض للنماذج متعددة لأثار الله فى كونه لفت القرآن الكريم بها الأنظار إلى وجود الله تعالى . من هذه النماذج.

أ- إيجاد المخلوقات من العدم :

قال تعالى : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2]. وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[3]. وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . . . ﴾[4].

---

(١) سورة القمر الآية ٤٩ .

(٢) سورة النحل الآية ٨.

(٣) سورة المؤمنون الآيات ١٢-١٤ .

(٤) سورة الغاشية الآيات ١٢-١٣ .

ففي هذه النماذج بيان كاف إلى وجود الله تعالى فهذه الحيوانات أشرف الأجسام الموجودة في العالم السفلي بعد الإنسان لاختصاصها بالقوى الشريفة وتختلف فيما بينها وتؤدى عملها بانتظام وخلقها الله تعالى لمنافع كثيرة للإنسان فيها المطعوم والمشروب والملبوس فكل هذا تم مصادفة لا يعقل هذا [١].

ثم خلق الإنسان بهذه الهيئة والكيفية ومراحل تكوينه المختلفة.فكل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة باطنة وظاهرة تشهد بوجود موجد له وهو الله تعالى[٢].

ومن أروع الدلائل على وجوده تعالى وبطلان الصدفة تلك الإبل ذات الخلق العجيب والتركيب الغريب فهى فى غاية الشدة والقوه ومع هذا تلين للحمل الثقيل وتنقاد للضعيف أما السماء وما فيها والجبال بصورها لهى من أروع البراهين على وجوده تعالى[٣].

ب- إيجاد هذه المخلوقات على نظام بديع :

لقد جعل القرآن من إيجاد هذه المخلوقات على النسق التى هي عليه دليل على وجود مبدع أبدعها وهو الله تعالى . قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [٤].

---

(١) أنظر: تفسير الرازى م ١٠ جـ١٩ صـ٢٣٩-٢٤٠.

(٢) أنظر. تفسير الكشاف جـ٣ صـ١٧٨ عند تفسيره للآيات ١٢-١٤ من سورة المؤمنون .

(٣) انظر: تفسير ابن كثير جـ٤ صـ٧٩٥-٧٩٦ عند تفسير للآيات ١٢-١٧ من سورة الغاشية.

(٤) سورة الفرقان الآيتان ٦١ - ٦٢.

فهذه السماء بما اشتملت عليه من الكواكب ومنازل لهذه لكواكب. بالإضافة إلى الشمس والقمر؛ فصلاً عن تعاقب الليل والنهار بصورة منظمة ملفتة للأنظار تؤكد وجود خالق لها على أسس محكمة ودقة لا مثيل لها. الأمر الذى يستوجب الإقرار بوجوده والشكر على هذه النعم العظيمة [١].

جـ- العناية بهذه المخلوقات وتنظيم شئونها :

وذلك الأمر واضح فى آيات كثيرة منها قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ... ﴾ [٢].

ففى هذه الآيات يوضح الله تعالى أنه المتفضل على المخلوقات وذلك بالعناية بها والإشراف عليها ، ويتجلى ذلك بوضوح فى عملية الزراعة وذلك من خلال إنباته للنبات فى الأرض وحفظه وبقائه رحمة للناس [٣].

هذه بعض النماذج القرآنية التى توضح فساد القول بالمصادفة وبطلانها ، والتى تؤثر بوجود القصد والعناية فى هذا العالم بما فيه.

٢- شبه حصر الموجود بالمحسوس:

من بين الشبه التى أثارها المنكرون لوجود الله تعالى حصر الموجد بالمحسوس فقط وما عداه فلا وجود له. لأنه ضرب من اللهو والعبث على حد زعمهم. فالعقل الإنسانى لا يمكن أن يتصور "وجود شئ ليس بجسم ولا مادة ولا صورة جسم ولا مادة معقولة فى صورة معقولة ، ولا له قسمة فى الكم ولا فى الكيف فعله منه وليس متصلاً به" [٤]

---

(١) انظر: تفسير الزمخشرى جـ ٣ صـ ٢٩٠ ، تفسير الرازى م. ١٢ . جـ٢٤ صـ ١٠٧-١٠٨.

(٢) سورة الواقعة الآيات ٦٣ – ٦٥.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٤٦١ – ٤٦٢.

(٤) الرسالة الحميدية فى حقيقة الديانة الإسلامية وحقيقة الشريعة المحمدية. للشيخ حسين الجسر صـ ٢١٩ ط٣ ١٩٨٥م.

فلا يمكن التصديق بوجود إله لأن العقل لا يمكنه تصور موجود بهذه الصفة المخالفة للعالم من كل الوجوه؛ لأن التصديق فرع التصور(١).

وواقع الأمر أن هذه النزعة قديمة قدم الفلسفة نفسها وتشكلت معها منذ البدايات الأولى لها.

"فهى مرتبطة بنشأة الفلسفة ، وقد اشتبكت فى صراع حاد مع العقائد القديمة منذ ظهور أول المذاهب الفلسفية"(٢).

فالإيمان بالمحسوس مذهب فى الفلسفة العلمية أقيم فى سبيلها ومن أجلها. ويمكن تتبع أثار هذا المذهب مع الفلاسفة الذين نادوا بالحواس سبيلاً للمعرفة الحقة منذ السوفسطائيين الذين قصروا المعرفة على الحواس وأنكروا أى معرفة أخرى تقع خارج نطاق الحس (٣) ثم انتقلت هذه النزعة إلى البيئة العربية ووجدت لدى الدهرية الذين آمنوا بالمحسوس فقط وقالوا: "لا عالم سوى ما هو فيه من مطعم شهى ، ومنظر بهى ، ولا عالم وراء هذا المحسوس" (٤) كما وجدت هذه النزعة لدى السمينة (٥) والبراهمة وقالوا: "لا طريق لمعرفة الأشياء إلا بالحس"(٦).

---

(١)انظر: القول السديد فى علم التوحيد. للشيخ أبو دقيقة صـ ٢٠٩ – ٢١٠ تحقيق د/ عوض الله حجازى ط مجمع البحوث الإسلامية ، محاضرات فى علم التوحيد د/.عزة محمد حسن وآخرون صـ ٥١ ط ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥م.

(٢)المادية فى الفكر الفلسفى د. أحمد رمضان صـ ٥. الدار الإسلامية للطباعة والنشر ط ١ ١٤١٩هـ – ١٩٩٨ م.

(٣)انظر: قصة الحضارة . ول ديورانت م٤ جـ ٧ صـ ٢١١ - ٢١٧ ترجمة محمد بدران. الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القراءة للجميع صيف ٢٠٠١ ، موسوعة الفلسفة د/ عبد الرحمن بدوى جـ١ صـ ٥٨٦- ٥٨٨ ، نشأة الفكر الفلسفى عند اليونان د/ سامى النشار صـ ٢٣٣ - ٢٣٤ منشأة المعارف الإسكندرية.

(٤)الملل والنحل – للشهرستانى جـ٢ صـ ٣٠٥.

(٥)السمينة: قوم من الهند عاشوا فترة طويلة وكانوا يقولون بالتناسخ الروحى والجسدى وسميت بهذا الاسم نسبة إلى سومنات وهو اسم صنم كان فى الهند أحرقه السلطان محمود بن سبكتكين ٤١٦هـ. [انظر: ضحى الإسلام . أحمد أمين جـ١ صـ ٢٥٩. الهيئة المصرية للكتاب. مهرجان القراءة للجميع صيف ١٩٩٧م ، الغزاليات فى البنوات د. محمد حسينى موسى صـ ٤٤٤ . ط١ ١٤٢١هـ.٢٠٠٠].

(٦) التمهيد للامشى صـ ٤٣.

والمتأمل فى هذه التيارات يجد أنها اعتمدت على أن المادة وحدها هى الجوهر الحقيقى الذى يفسر به جميع ظواهر الحياة ، وجميع أحوال النفس ؛ كما أنها ترفض وجود الله تعالى لكونه ليس مادياً.

وعلى هذا الأساس ظهرت فلسفات مادية الحادية فظهرت البراجماتية والوضعية المنطقية وغيرهما من أصحاب النزعات المادية الذين دانوا بهذه العقيدة فها هو وليم جيمس [(١)] يقول : لقد ارتضيت فيما يتعلق بالمعرفة المذهب التجريبى ، وآمنت بنظرية عملية وهى أنه يجب علينا أن نسير فى تجاربنا ، ونمضى فى تفكيرنا حول هذه التجارب ؛ لأن أفكارنا وآراءنا لا تتطور وتتدرج نحو الكمال إلا بهذا السبيل ، فكل معرفة تأتى من غير هذا الطريق خطأ عظيم ، وعندى أن تاريخ الفلسفة يشهد بذلك[(٢)] .

وعلى هذا "فالمطلق ليس صحيحاً على أى نحو" [(٣)] .

لأن الفكرة الصحيحة هى التى "تقدنا لإدراك ممكن فحسب ، أو الفكرة التى إذا نطق بها توحى بإدراكات ممكنة للآخرين"[(٤)] .

وما ذكرته البراجماتية وتمسكت به لا يختلف عما عليه الوضعية المنطقية وأنصارها ويتجلى ذلك بوضوح عندما زعمت هذه الفلسفة أن المعرفة بشىء ما لا يتم إلا من خلال إدراكه إدراكاً مباشراً.

فها هو رسل يقول : " من الواضح أن الإحساسات هى مصدر

---

(١) فيلسوف أمريكى عاش ما بين ١٨٤٢ - ١٩١٠ كان أبوه هنرى جيمس قسيساً بروتستانيا ويعد جيمس الأب الروحى للبراجماتية [انظر: تاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم صـ ٤١٦ - ٤١٧].

(٢) انظر: العقل والدين . وليم جيمس صـ ١٦ - ١٧ ترجمة د/ محمود حب الله دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٩.

(٣) البراجماتية . وليم جيمس صـ ٣٥٧.

(٤) نفس المصدر صـ ٤٥٨.

معرفتنا بالعالم بما فى ذلك أبداننا ، وقد يبدو من الطبيعى أن الإحساس فى ذاته معرفة ... ومما لا ينكر بطبيعة الحال أننا نحصل المعرفة عن طريق الإحساس"(١) .

وعلى هذا الأساس اعتمدت الوضعية المنطقية الحس مصدر للمعرفة ورفضت ما عداه فرفضت القضايا الميتافيزيقية لكونها خارجة عن نطاق الحس. فهى عبارات جوفاء خالية من المعنى.

يقول أحد أنصارها والمروجين لها فى العالم الإسلامى : " إن الذى نتصدى لإنكاره ... إنكار قاطعاً هو إمكان التحدث عن أشياء محسة ، وهو موضوع الميتافيزيقا بالمعنى الذى نرفضه" (٢) لكونها غير محسوسة.

هذه هى شبهة حصر الإيمان فى المحسوس فقط كما عرض لها أصحابها.

وفيما يلى بيان لبطلانها متبعين فى ذلك المنهج الذى طبق على الشبه السابقة.

الرد على الشبهة:-

أ- الأدلة العقلية.

لقد ساق العلماء جملة من الأدلة العقلية التى تثبت وجود عالم أخر غير العالم المنظور ومن بينها ما يلي :-

١-الدليل الفطرى:

إن الدارس لأحوال الأمم والشعوب منذ خلق الله الخلق إلى يومنا

---

(١) فلسفتى كيف تطورت . رسل صـ ١٦٤.

(٢) موقف من الميتافيزيقا د/ زكى محمود صـ ٣٦. دار الشروق ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ - م ط٣.

هذا يستطيع أن يقف على وجود قاسم مشترك بينها وهو الإيمان بقوة يتوجهون إليها لا تدركها حواسهم مدفوعين بذلك بدافع لا شعورى وهو الفطرة.

فقضية الإيمان بخالق للإنسان والكون والحياة قضية راسخة فى الفطرة الإنسانية عميقة الجذور عمق الشعور بالذات البشرية ؛ يلجأ إليها الإنسان عند افتقاره إلى الملجأ والملاذ ، وكما يشعر المرء بعمق غرائزه الأبوية وحب البقاء وحب التملك فى كيانه ويشعر بالقلق والاضطراب فى حياته إن لم يشبعها بالطريقة السليمة فكذلك شعوره بالاضطراب والقلق إن لم تشبع غريزة التدين فيه بإشباع الأشواق الروحية وتوجيهها الوجهة السليمة للمعبود الحق وهو الله تعالى(١) .

يقول الشهر ستانى : "ما عددت هذه المسألة – إثبات وجود الله – من النظريات التى يقام عليها البرهان فإن الفطر السليمة الإنسانية شهدت بضرورة فطرتها ، وبداهة فكرتها على صانع حكيم عالم قدير"(٢) .

فمسألة الإيمان بما هو فوق المحسوس عقيدة فطرية لم تخل منها أمة من الأمم ، ولم يهملها شعب من الشعوب حتى الماديين أنفسهم لم يذهب منهم هذا الإحساس(٣) .

فهذا الإيمان الفطرى لدليل صادق على الإيمان بما هو خارج عن دائرة الحس فالله تعالى لا يقع تحت الحس ومع هذا ترى النفوس تهفو إليه

---

(١) انظر: مباحث فى التفسير الموضوعى. د/ مصطفى مسلم صـ ١٥ دار القلم . دمشق ١٤١٠هـ – ١٩٨٩ م.

(٢) نهاية الإقدام فى علم الكلام . للشهر ستانى صـ ١٢٤.

(٣) انظر: العقيدة وأثرها فى بناء الجيل عبد الله عزام صـ ٥٣ مكتبة الأقصى عمان ط١ ١٩٥٣م.

وتقربه يستوى فى ذلك جميع الشعوب على اختلاف رقيها وانحدارها ولا يقلل من قيمة هذا الدليل هؤلاء الماديون لكونهم ألغوا عقولهم ، وأسكتوا نداء الفطرة فى نفوسهم واتبعوا الهوى. إن غريزة التدين هذه ميزت الإنسان عن الحيوان وجعلت عقيدة عالم الغيب والخفاء مستقرة فى نفوسنا ودفعت الإنسان إلى الإيمان بوجود شئ لا يرى بالعين ، ولا يلمس باليد(١) .

٢-الدليل الأخلاقى :

ومؤداه أن العقل السليم يقر بوجود الله كفكرة أخلاقية ترسخ فى النفوس الخير والصدق والرحمة وغير ذلك من الأخلاق والقيم النبيلة ، وهذا البرهان من أوضح البراهين على وجود الله تعالى.

"إننا نجد فى قرارة نفوسنا شعوراً قوياً لا سبيل إلى إنكاره ، يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ، ويؤنبنا ويعذبنا عند ارتكاب الذنوب والآثام فمن أين أتانا هذا الشعور ؟... إنه ليس أتياً من الإحساس والتجربة ، لأن الحواس لا تنقل لنا إلا صور الأشياء ، وليس فى الأشياء شئ يسمى تأنيباً وتعذيباً للضمير ، وليس آتيا من العقل النظرى ؛ لأن العقل إنما ينحصر عمله فى الإدراك الحسى وتحويله إلى إدراك عقلى"(٢) .

إن هذه القوة التى يطلق عليها اسم الضمير يؤمن بها الناس ولا يستطيعون إنكارها يعرفونها بآثارها وتشهد على وجود خلاف المحسوس.

---

(١) انظر: عقيدة المسلم. للشيخ محمد متولى الشعراوى صـ ٣٥ جمع وإعداد عبد القادر أحمد عطا. مكتبة التراث الإسلامى ، مدخل إلى الفلسفة د. أحمد رمضان صـ ٢٠٠. الدار الإسلامية للطباعة والنشر.

(٢) قصة الإيمان . للشيخ نديم الجسر صـ ١٦٩ ،١٧٠ – دار الخلود بيروت لبنان ط٣ ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩م. ،انظر: الفلسفة الحديثة عرض ونقد د/ أحمد رمضان صـ ٣٣٥ - ٣٣٦ مكتبة الإيمان بالمنصورة.

٣- تعدد طرق المعرفة.

فقد ذكر العلماء أن للمعرفة طرقاً أخرى غير الحواس وهى:-

الحواس السليمة. العقول النقية . الأخبار الصادقة [١] وبذا يكون الاعتماد على الحواس دون ما عداه منهج قاصر ؛ لأن الوقوف على حقائق الأمور يكون عن الحواس وغيرها ، بل قد يتوصل إلى المعرفة عن طريق الميتافيزيقا أكثر من التجربة.

فالتجربة "لا توصل إلى ذاتية الشيء، وإنما طبيعتها التفسير الظاهرى دون الوصول إلى إثبات الحقيقة ومقتضى التفسير الظاهرى يتجه إلى ناحية الخواص دون الوصول إلى الحقيقة التى انطوت عليه ذاتية الشيء ، ولو قدر الوصول إلى المعرفة عن طريق التجربة فى بعض الأحيان فلا يستدعى أن يكون الحكم عاماً فى جميع الأحوال"[٢]

وبناء على ما سبق يتضح لنا أن حصر الموجود فى المحسوس منهج قاصر ، ويحتم علينا ألا نعترف بأمور كثيرة فى حياتنا لا نراها ومع ذلك نقر بوجودها وذلك كالحب والكره والحسد وسائر العواطف الأخرى.

وقصارى القول: إن المعرفة الحسية لا تكفى وحدها لحل كثير من المشكلات التى تعترضنا إننا فى حاجة إلى علم العلم ،وإلى تحليل العقل وقوانينه وكلها موضوعات تدخل فيما بعد الطبيعة. لهذا ينبغى لمن أراد الكشف عن حقائق الموجودات ألا يقف عند الظواهر والمحسوسات[٣]

---

(١) التمهيد . للامشى صـ ٤١- ٤٢.

(٢)نقد المذهب التجريبى محمد محمد طاهر صـ ٣٩٢.

(٣) انظر: أسس الفلسفة د/ توفيق الطويل صـ ٢٨٥ دار النهضة العربية ط٤ ١٩٦٤ ، المذاهب اليونانية فى العالم الإسلامى. دفيد سانتلانا صـ ٥٠ تحقيق د/ محمد جلال شرف دار النهضة العربية بيروت ١٩٨١م.

٤- وأخيراً فإن الاعتقاد بوجود عالم غير محسوس أمر ضرورى لا بد منه وذلك لعدة أمور :-

أ- أنها فوق طور العقل.

ب- أنها مرحلة ضرورية مكملة للعلوم الجزئية.

جـ- أن مهمتها الكبرى أن تكون واسطة بين الحياة العقلية والحياة العملية ، بين الواقع المتحقق بالفعل، وما يؤمل الإنسان أن يحققه بين العقل والعاطفة وفوق هذا فهى توفيق بين مختلف الآراء والمذاهب[١] .

هذه هى بعض الأدلة العقلية التى تؤكد على فساد هذه الشبهة وبطلان القول بها.

ب- الأدلة العملية على فساد الشبهة:

١-إن هذه الدعوة تتصادم مع العلم :

إن القول بأن الإيمان ينحصر فى المحسوس دعوى فاسدة يكذبها الواقع وتتنافى مع المنهج العلمى الذى يتمسكون به حيث إن عدم الإدراك لا ينافى عدم الوجود ، وعدم تصوره لا يعنى إنكاره ، فكثير من الأشياء لا يعرفها العقل ومع هذا لا يمكن إنكارها.

فهى " أشياء موجودة فى نفس الأمر لقيام الدليل على وجودها "[٢] فهذه نفوسنا تسرى فى أجسادنا لا نراها ، ومع هذا نقر بوجودها إن عدم المشاهدة لا ينفى الوجود ، فعدم رؤية الأعمى لضوء الشمس لا يجعل له الحق فى إنكارها.

---

(١) انظر: المدخل إلى الفلسفة أزفلدكوليه صـ ٢٩٠ ترجمة أبو العلا عفيفى . مطبعة لجنة التأليف والنشر ط٢ ١٩٤٢.

(٢) الرسالة الحميدية . للشيخ حسين الجسر صـ ٢٢١.

وبنظرة سريعة على العالم وما فيه نجد أن آثار الله تعالى واضحة جلية فيه ومنها أشياء لا ترى بالعين ويقر الإنسان بوجودها.

"فالبكتريا كائنات حية صغيرة جداً فهى لا ترى بالعين المجردة ، وإنما ترى بالمجهر والفيروسات مخلوقات أصغر من البكتريا بكثير فهى لا ترى بالمجهر العادى ، وإنما ترى بالمجهر الإلكترونى ، وهذه الكائنات لها دور مهم فى حياة البشر ، وفى حياة الحيوان والنبات والإنسان لم يكن يراها ولا يشعر بوجودها قبل اختراع المجاهر على اختلاف أنواعها فهل لم يكن لهذه الكائنات وجود قبل اختراع هذه الآلات لمجرد أن الإنسان لم يكن يراها" (١).

وبناءً على هذا فإن حصر الموجود فى المحسوس فقط مجرد فرض افترضه الملحدون ؛ إلا أنه غير مبنى على البراهين العلمية لكونه يتعارض مع ما أثبتته العلوم ، فضلاً عن تعارضه مع الواقع المشاهد.

"إن الوقائع المحسوسة هى أجزاء من حقائق الكون غير أن هذه الحقائق التى ندركها بالحواس قد تكون جزئية، وغير مرتبطة بالأخرى فلو طالعناهما فذة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقاً. وأما إذا درسناها فى ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة فإننا سندرك حقيقتها"(٢) .

٢- التجدد فى حركات الجسم :

فلقد دلت العلوم الفيزيائية على وجود غير المحسوس وذلك من خلال الحركات للجسم ، عن طريق الإتلاف وعامل التجديد الموجودين فى جسم الإنسان "إن كل حركة تصدر من إنسان أو حيوان يصحبها احتراق

---

(١) الله سبحانه وتعالى. صلاح الدين عبد المجيد صـ ٣٦. مطبعة الجمهور الموصل ط٢ / ١٩٨٢م.

(٢) الإسلام يتحدى. وحيد خان . صـ ٤٧.

جزء من المادة العضلية ، وكل فعل من الحس أو الإدارة ينشأ عنه فناء الأعصاب وكذا كل تفكير ينشأ عنه إتلاف فى الدماغ ، ومعنى هذا أنه ليس يمكن أبداً لذرة واحدة من المادة أن تصلح مرتين للحياة فإذا ما بدأ عمل عقلى أو عضلى فالجزء من المادة الحية التى تصرف لصدور هذا إنما تنعدم تماماً فإذا عاد العمل وتكرر فمادة جديدة تصلح لصدوره ثانية وهكذا، والقاعدة أن النسبة محفوظة فى الإتلاف أى أنه كلما اشتد ظهور الحياة ازداد تلف المادة الحية ؛ وإنما المادة المستجدة الداخلة فى الدم بواسطة الهواء والمواد الغذائية تعوض من هذا التلف باستمرار وإنما يرتبط هذان العاملان الواحد بالآخر فعامل الإتلاف وعامل التجديد يتصل الواحد بالآخر فى الكائن الحى ، وعامل التجديد سرى خفى أما عامل الإتلاف فيبدو للعيان ، والحاصل من هذا عند العقل أن جسمنا يتجدد مرات كثيرة فى مرحلة الحياة" [١] .

ومعنى هذا أن حركة التجديد التى تحدث للجسم يسلم بها العقل مع أنه لا يراها الأمر الذى يدل على وجود شواهد تؤكد وجود غير المنظور ومنها هذه العملية التى تحدث للجسم عن طريق عاملى الإتلاف والتجديد التى تشهد العلوم الفيزيائية بوجودهما وإن كانت لا تراهما.

ولهذا يقول بعض الباحثين: "قد تكون هناك أنواع برمتها من الظواهر الفيزيائية التى تفلت تماماً من رقابتنا لما لنقص فى وسائلنا فى كشفها وربما كانت هناك فروع من الفيزياء ليس لدينا عنها أدنى تصور لا نزال فى حاجة إلى الإيضاح، وسوف يفهم القراء دون صعوبة أننى لا أستطيع أن

(١) فصل المقال فى فلسفة النشوء والارتقاء. أرنست هيكل صـ٣٩ - ٤٠ من مقدمة المترجم.

أحددها وأن نتائجها إذا قدر لنا أن نعرفها مقدماً تدهشنا دون شك " [١] .

٣- التنويم المغناطيسى :

دلت الأبحاث العلمية الحديثة على أن الموجود لا ينحصر فى المحسوس فقط ؛ كما أن المعرفة غير قاصرة على الحواس وحدها وذلك قياساً على عملية التنويم المغناطيسى تلك العملية التى "تعرض لنا أمثلة كثيرة لا نصادفها فى ظاهرة الشعور على البعد لإثبات الاتصال بوسيلة غير وسيلة الذبذبات واستخدام الأجسام الصنوبرية لأن النائم يتلقى عن منومه صوراً لا يتأتى تعليلها بالإشعاع أو ما شابهه مثل التيارات المادية ، وكثيراً ما تكون الوسائل المغناطيسية قائمة على تخيل لا وجود له فى عالم الحس ، ولكنه ينتقل إلى ذهن النائم لأن المنوم لقنه أو أمره بتلقينه وتصديقه ، وهو يرى ما فى خيال المنوم ، ولا يرى ما فى خيال غيره" [٢] .

إن عملية التنويم المغناطيسى صارت اليوم حقيقة ثابتة لا يمكن إنكارها ، وهذه العملية صارت إبداعاً من حيث أن المنوم يصل إلى وسيلة علاجية سهلة بطرق أخرى غير الحواس.

"فالتنويم المغناطيسى يعد مبدعاً ويأتى إبداعه عبر النوم المغناطيسى والإيحاء الذاتى أن العقل الواعى يوجه العقل اللاواعى ليفكر بشكل استنتاجى... وبالرغم من أنه لا يزال هناك الكثير الذى لم يجر اكتشافه بعد حول العقل الواعى واللاواعى إلا أن الإنسان يستطيع تحقيق تقدم عظيم باستعمال النوم الذاتى للمبدع " [٣] .

---

(١)الفيزياء والمكر وفيزياء . لويس دى بروليه صـ ٢٦٥. ترجمة د. رمسيس شحاته راجعه. د/ محمد مرسى أحمد . نشر مؤسسة سجل العرب. سلسلة الألف كتاب [٦٣٤] ١٩٦٧.

(٢)الفكر المادى الحديث د. محمود عثمان صـ ٥١٠.

(٣) عجائب التنويم المغناطيسى صـ ٣. إعداد قسم التأليف والترجمة فى دار الرشيد . مؤسسة الإيمان بيروت.

فالتنويم المغناطيسى معلومة أولية للملاحظة العملية وفى استطاعة من وهبوا هذه القوة أن يستشفوا أفكار الأشخاص الآخرين السرية دون أن يستخدموا أعضاءهم الجسدية وتتم هذه العملية من خلال تعطيل حواس الشخص الخاضع للمنوم عدا حاسة السمع [١] .

وعلى هذا يجب علينا الإيمان بوجود أشياء لا تدركها الحواس ، كذا الإيمان بحواس أخرى لم تثبت حتى الآن.

٤-وجود قوى أخرى داخل الإنسان يدرك بها :

من بين الأدلة العملية التى استدل بها العلماء على وجود ما وراء الحس هى تلك القوى الكامنة فى الإنسان والتى من الممكن أن يحصل من ورائها علوم كثيرة ومعارف متعددة فعلى سبيل المثال يرى العلماء : " أن العقل وحده لا يستطيع إيجاد العلم ، ولكنه عامل لا مفر منه فى الابتداع والعلم بدوره يقوى العقل فقد جلب للإنسانية موقفاً عقلياً جديداً علاوة على الوصول إلى الحقيقة بواسطة الملاحظة والتجريب والتفكير المنطقى فالحقيقة المستمدة من العلم تختلف تماماً عن تلك المستمدة من الإيمان فالأخيرة أكثر عمقاً ولا يمكن التشكيك فيها بالمجادلات ... إن الاكتشافات الكبيرة ليست نتاج العقل فقط فإن العباقرة يملكون إلى جانب قوتهم على الملاحظة والفهم صفات أخرى مثل البصيرة والخيال المبتدع" [٢] .

---

(١) انظر: الإنسان ذلك المجهول. الكيس كاريل . ١٤٧. تعريب . شفيق أسعد فريد مكتبة-المعارف- بيروت ط٣ ١٩٨٤ ، عجائب التنويم صـــ ٤-٥.

(٢) الإنسان ذلك المجهول . الكسيس كاربل صـــ ١٤٥.

فيقفون على حقائق الأشياء والعلاقات بين بعضها والبعض الآخر فضلاً عن هذا كله "يحسون بطريقة لا شعورية بوجود الكنز غير المعروف وجميع عظماء الرجال وهبهم الله بصيرة فهم يعرفون دون تحليل أو تفكير ما هي الأشياء المهمة التي يجب أن يعرفوها... أما العالم النابغة فيسلك بالغريزة الطريق المؤدي إلى الاكتشافات ، ولقد كان يطلق على هذه الظاهرة اسم الإلهام أو الوحي في الأزمنة السابقة" [١] .

وهكذا فإن معرفة الإنسان للعالم اللامحسوس قد يصل إليها الإنسان عن طرق أخرى غير حواسه لا سيما ، وأنها موجودة فيها ويستطيع إدراكها بالتأمل الدقيق والإيمان الصحيح.

"إن لكل مدرك وسيلة أو وسائل خاصة تناسبه مادية أو مجردة والإله المجرد محال أن يدرك بالإحساس المادي ومحال أن يحاط به علماً بالعقول فإنه مجرد غير محدود. فكيف يدرك ذاتياً بالوسائل المادية أو العقلية المحدودة وإنما السبيل الوحيد إلى الإذعان بوجوده الآثار التي تدل عليه ، والكون بأجمعه بكمه وكيفه ونظمه وأثره وآياته القاطعة الدالة عليه" [٢] .

٥- حركة الجاذبية :

فلقد أثبتت البحوث الفيزيائية والدراسات الفلكية التي استمرت طويلاً لأحوال الأجرام السماوية أن ظواهر الكون كله بدأ من أصغر ذرة وصولاً إلى أكبر نجم تتتابع في نظام معقد ومحكم وجميع ما فيه في حركة

---

(١) المصدر السابق صـ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) حوار بين الإلهيين والماديين د. محمد الصادقي صـ ٣٨. دار الصادق بيروت مكتبة الصدق - النجف الأشراف.

تجاذب مستمرة ، وهذه القوة تؤثر فى جميع الكرات السماوية لا شك فى ذلك، كما أنها "توجد بالحقيقة فى جميع المادة ، وفى أصغر أجزاء المادة ، وهكذا فإن الجاذبية هى النابضة الكبيرة الذى يحرك جميع الطبيعة" [١] .

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على وجود قوة مهيمنة على هذا العالم أوحت إليه بهذا النظام وعلى هذه الهيئة. فالكون كله بما فيه يخضع لقانون الجاذبية ، وعلى الرغم من اعتراف العلم بها ، وإقرار العلماء بها فإنهم عاجزون عن إدراك كنهها والكشف عن خصائصها. إن هذا النظام المحكم البديع لمن أوضح الأدلة على وجوده تعالى، تلك القوة التى لا نصل إليها بالحس ، وإنما نصل إليها من خلال أثارها، ويؤيد ذلك حركة الجذب الموجودة فى الكون بأكمله تلك الحركة التى كشف عنها العلم أخيراً وهذا الأمر أوحت لنا به بعض النصوص القرآنية. قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ . . ﴾ [٢]
وقال تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [٣] .

٦- وأخيراً فإن حصر الموجودات فى المحسوسات فقط خطأ علمى فادح لأنه يترتب عليه جعل الوجود كله أشياء مفردة قائمة بذاتها يشار إليها بهذا ، وهم بذلك يتجاهلون سائر مستويات الوجود فيتجاهلون المستوى الفيزيائى الذى يشتمل على الظواهر غير المرئية كما يتجاهلون المستوى

---

(١) الرسائل الفلسفية. فولتير صـ ٨٨. ترجمة عادل زعيتر . دار المعارف ١٩٩٥م.
(٢) سورة لقمان الآية ١٠.
(٣) سورة الرحمن الآية ٧.

الكيميائى والمستوى السيكولوجى كما يعرضون عن عالم العمليات والعلاقات فكل هذه أنماط لا بد منها لتحقيق الوجود الواقعى[(١)] .

تعقيب :

بعد هذا العرض يتبين لنا بوضوح أن القول بالمحسوس فقط خطأ واضح وفرض غير مبنى على أسس علمية.

فالموجودات تتنوع إلى ما هو مادى وإلى ما هو مجرد والكون المشاهد ليس هو الموجود فقط ؛ بل توجد بعض الموجودات المجردة عن المادة والتى لا صلة له من قريب أو بعيد.

وما الروح والعقل والأفكار والعواطف والرغبات إلا أدلة على صدق هذا لذا فهناك ما يشبه الإجماع عند العلماء أن الموجودات منها ما هو مادى يتوصل إليها عن طريق المعرفة الحسية ومنها ما هو روحى يتوصل إليه عن طريق المعرفة الميتافيزيقية وقد يتوصل إلى بعض منها عن طريق المعرفة العملية ، إلا أن الوصول لبعض الأشياء عن طريق المعرفة الميتافيزيقية أقوى من المعرفة العلمية حيث إن التجربة تقف عند حد الوصف الظاهرى للأشياء فقط كما سبق وأشار البحث.

جـ - الأدلة النقلية :

لقد ذكر الله تعالى فى الكتاب الكريم آيات متعددة توضح عدم حصر الموجود فى المحسوس من بينها قوله تعالى :

---

(١)انظر. الدين عند زكى نجيب محمود صـ ٦٧ رسالة ماجستير إعداد الباحثة نادرة حسن عبد الجواد . كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م.

١ - ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [(١)] .

فالقرآن لم يبين لنا حقيقة الروح؛ لأن هذا سر من الاسرار التى اختصها الله بعلمه وتولى معرفتها.

فالروح أمر عظيم وشأن كبير من أمره تعالى تاركاً تفصيله ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه فهو يرى أثارها ولا يراها، وفى ذلك حد لغروره ، وإذا كان الإنسان فى معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى[(٢)].

ولهذا فإن الزمخشرى عندما يتعرض لهذه المسألة يقرر أنها مما استأثر الله تعالى بعلمه[(٣)] .

خصوصاً وأن المتأمل فى آى القرآن الكريم يجد أن فى تعاليمه ما لا يشجع على هذا البحث خصوصاً وأن بعض الفقهاء وعلى رأسهم مالك والشافعى حرموه[(٤)] .

وليس فى هذا حجر على العقل البشرى أن يعمل ولكن توجيه له للعمل فى حدود طاقاته وإمكاناته[(٥)].

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥.

(٢) انظر : تفسير القرطبى . جـ٥ صـ ٣٩٤٠ ط دار الشعب.

(٣) انظر: الكشاف . للزمخشرى جـ٢ صـ ٦٩٠.

(٤) انظر: فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه د. إبراهيم مدكور جـ١ صـ ١٤٢. سميركو للطباعة ط٢.

(٥)انظر: النفس الإنسانية وقواها عند فلاسفة الإسلام فى المغرب ومدى تأثرهم بالفكر اليونانى صـ ٣-٥ رسالة ماجستير إعداد الباحث. نظير محمد محمد . كلية أصول الدين بالمنصورة ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠م.

٢- قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (١).

فهذه الآية توضح أن هذا الكون الذى أمكننا الله إدراكه بما شاء لنا من إدراك ليس هو الكون الوحيد الذى خلقه الله تعالى بل إن قدرة الخالق العظيم لا حدود لها ، وهو سبحانه قادر على خلق غيره من الأكوان(٢) .

هذه هى بعض الأدلة النقلية التى توضح وجود غير المحسوس ، وبها يتبين أن عدم المشاهدة للشىء لا تنفى وجوده أو على الأقل إمكانية وجوده خصوصاً إذا كان هذا الأمر قد أخبر عنه الصادق المعصوم (ﷺ) وقد يستدل على هذا الشىء بآثاره أو بطرق أخرى من طرق المعرفة.

٣- شبهة الشر:

مشكلة الشر مشكلة قديمة جداً كما أنها من المشكلات التى تطرح نفسها على العقل الإنسانى فى كل عصر، لذا فقد عرضت لها جميع الرسالات السماوية والمذاهب الفلسفية واختلفت حولها الآراء وتعددت فيها وجهات النظر مع أنها فى واقع الأمر قضية إيمانية فى المقام الأول ، ولو نظر إليها على هذا الأساس ما حدث حولها هذا الاختلاف وما اتخذها المنكرون لوجود الله تعالى أساساً يركزون عليه.

---

(١) سورة يس الآية ٨١.

(٢) انظر: القرآن والسلوك الإنسانى محمد جمالى سليم صـ ٣٥١ ، إلزام القرآن للماديين والمليين . د/ سيد أحمد المسير صـ ٣٠-٣٧.

فشبهة الشر قديمة واجهت العقل الإنسانى منذ "أن عرف التفرقة بين الخير والشر ، وعرف أنهما صفتان لا يتصف بهما كائن واحد" (١).

"ولا نظن أن عصراً من العصور يأتى غداً دون أن تعرض فيه هذه المشكلة على وجه من الوجوه وأن يدور فيه السؤال والجواب على نحو قديم جديد" (٢).

فهذه الشبهة قديمة وقد وجهها الملحدون إلى دليل العناية زاعمين عدم وجوده تعالى لعدم عنايته بالعالم.

فالمتأمل فى العالم يجد ألواناً كثيرة من الشرور والآلام التى تصيب الناس مما يعنى خلوه من سمات القصد والتدبير مما يدل على قيامه بنفسه دون قوة خارجة عنه.

وقد وجدت هذه الشبهة لدى الطبيعيين الذين أنكروا أن تكون أحداث الطبيعة قد حدثت عن قصد وتسير لغاية وتعمل لحكمة ، وآية ذلك العاهات الموجودة ، والتشويهات المبثوثة فى بعض أنواع الطبيعة فلو كانت هناك عناية لما ظهرت هذه الصورة الشريرة كالمطر الذى ينتج عنه إغراق البيوت والحقول ، وغير ذلك من ألوان الشرور التى اتخذها البعض ذريعة إلى جحود الخالق والتدبير(٣).

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: أ. عباس العقاد صـ ٨ طبعة خاصة تصدرها دار نهضة مصر ضمن مهرجان القراءة للجميع صيف ١٩٩٩.

(٢) عقائد المفكرين فى القرن العشرين أ - العقاد صـ ٧٩ نشر دار الكتاب العربى ط٣ ١٩٧١.

(٣) انظر: الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير للجاحظ صـ ٦٠-٦١ ، مكتبة الكليات الأزهرية ط ١٩٨٧م ١٩٨٨، السماع الطبيعى لابن سينا الفن الأول من الطبيعيات تحقيق سعيد زايد صـ ٦٨-٦٩ الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٣م.

وإذا كانت هذه النزعة وجدت قديماً عند الطبيعين فقد وجدت أيضاً عند طائفة تسمى المنابنة "فأنكرت ما أنكرته المعطلة من المصائب والمكاره التى تصيب الناس فكلاهما يقول :إذا كان للعالم خلاق رءوف رحيم فلم تحدث فيه هذه الأمور المكروهة؟ [١].

وهذا الاتجاه هو ما تمسكت به بعض الاتجاهات الفلسفية الحديثة كنظرية التحليل النفسى التى أنكرت وجود الله تعالى وعنايته بالكون لوجود الشر فيه.

فوجود الشر يستبعد فكرة إله ... وحقيقة الشر تتنافى مع عناية الله فليس للإله علم بالكون ، والكون لا يحمل أى شبه بالإله يمكن أن يكتشفه العقل الإنسانى ويستخدمه كأساس برهان عقلى على وجود الإله [٢].

إن وجود الشر فى العالم يستبعد فكرة إله والقدرة على العناية بالعالم وحيث إن الأمر كذلك فلا قدرة له ولا إرادة.

لأنه إذا "وجدت لديه الإرادة ولم توجد القدرة ، كان أضعف من مبدأ الشر ، أما إذا وجدت لديه القدرة ولم توجد الإرادة ، كان فى هذه الحالة شريراً ، فإن لم توجد القدرة ولا الإرادة كان كائناً ضعيفاً وشريراً فى آن معاً" [٣].

---

(١) انظر: الدلائل والاعتبار للجاحظ صـ٦٢.

(٢) انظر: الله فى الفلسفة الحديثة . جيمس كوليز . ترجمة فؤاد كامل صـ ٦٦-٦٧دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ط٢ ١٩٩٨م.

(٣) نفس المصدر صـ٦٦.

يقول فرويد : " مما يجانب الواقع فيما يبدو ، أن فى الكون قوة تسهر على خير كل فرد وترعاه رعاية والديه ، وتهون عليه متاعبه وتهيئ له نهاية سعيدة، والأدنى إلى الصواب أن ما نراه فى حظوظ الناس يتنافى مع وجود مبدأ عام للخير أو مبدأ عام للعدل، وإذا كان هذا المبدأ الأخير يتنافى إلى حد ما مع مبدأ الخير فالزلازل والسيول والنيران لا تفرق بين الخير الورع التقى ، وبين الآثم الجاحد ، وحتى إذا صرفنا النظر عما يحيق بالإنسان من الطبيعة غير الحية ، ورأينا حظوظ الناس بقدر ما هى مرتهنة بصلاتهم مع غيرهم من الناس ، لم نر على الإطلاق أن القاعدة هى إثابة الفضيلة وعقاب الرذيلة ، بل نجد على الأغلب أن المحتالين والعتاه وأخساء المبادئ هم من يبتزون طيبات الأرض لأنفسهم ، على حين يذهب الأتقياء الصالحون فارغى الوطاب، فالمتحكم فى حظوظ الناس قوى غامضة جافية لا تحس، أما شريعة العقاب والثواب التى يقول الدين أنها تهيمن على العالم فيبدو لا وجود لها" [1] ومعنى هذا فيما يرى هؤلاء أن وجود الشر فى العالم ينفى وجود عناية به مما يجعل الإقرار بوجود إله أمر صعب المنال.

الرد على الشبهة :

أ-الأدلة العقلية :

يمكن بيان فساد هذه الشبهة بالأدلة العقلية من خلال بيان الحكم الموجود فى الشرور وهى على النحو التالى :-

---

(١) محاضرات تمهيدية جديدة فى التحليل النفسى فرويد صـ ١٥٢ - ١٥٣.

١- إن الشر هو تمام الخير :

فقد ذكر "ابن سينا" فى رسالته المسماة بالرسالة العرشية حقائق التوحيد وإثبات النبوة الحكمة من وجود الشر فى العالم ليتحقق الخير فيقول:

"وأن هذه الشرور الحاصلة فى بعض الموجودات، وإن كان حصولها على سبيل الوجوب واللزوم، لكنها غير خالية عن حكمة تامة — بها يكون قوام العالم ولولا تلك الحكمة لما وجدت هذه الشرور لأن الخيرات هى مبادئ الشرور فعند استيفاء الخيرات أو انتهائها ربما ظهرت الشرور وربما خفيت"(١).

ومعنى هذا أن الشر هو تمام الخير الذى يتحقق بوجوده وينعدم بانعدامه فلا معنى للحب بغير الكره ، ولا معنى للتفوق بغير الفشل، وكذا لا معنى للأمانة بغير الخيانة وهكذا فالآلام والشرور التى نراها فى العالم لها قيمتها "فإن وجود ذلك الشر فى الأشياء ضرورة تابعة للحاجة إلى الخير فإن هذه العناصر لو لم تكن بحيث تتضاد وتنفعل عن الغالب لم يكن أن تكون عنها هذه الأنواع الشريفة" (٢).

٢- إن وجود الشر فى العالم أمر عارض فضلاً عن كونه ليس شراً مطلقاً فالمتأمل فى العالم يجد أن المقصود فيه قصداً أولياً هو الخير، بخلاف الشر فهو ليس مقصوداً بالذات ، وإن قصد بالعرض لتحقيق خير كثير مقصود

---

(١) الرسالة العرشية فى حقائق التوحيد وإثبات اللنبوة – لابن سينا صـ ٣٨-٣٩ تحقيق وتقديم د/إبراهيم هلال. بدون .

(٢) النجاة لابن سينا صـ ٣٢٢، وانظر : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد صـ ٢٠٧، وجهود المفكرين فى مقاومة التيار الإلحادى ٢٥٢ مكتبة المعارف – الرياض ط١ ١٤٠١ هـ – ١٩٨١م. د/ محمود عثمان صـ ٢٥٠- ٢٥٢ مكتبة المعارف –الرياض ط١ –١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

لذاته يقول ابن سينا: الأمور الممكنة فى الوجود منها أمور يجوز أن يتعرى وجودها عن الشر ، والخلل والفساد أصلاً . ومنها أمور لا يمكن أن تكون فاضلة فضيلتها إلا وتكون بحيث يعرض منها شر ما ... وذلك مثل خلق النار فإن النار لا تفضل فضيلتها ، ولا تكتمل معونتها فى تكميل الوجود ، إلا أن تكون بحيث تؤذى وتؤلم ما يتفق لها مصادمته من أجسام حيوانية ... فالشر داخل بالعرض" [١] .

فالأصل هو الخير لكنه يظهر ويتراءى لنا من خلال عروض الشر له فلولا أن العالم مركب مما تحدث فيه من الخيرات والشرور ويحصل من أهله الصلاح والفساد جميعاً ؛ لما تم للعالم نظام؛ إذ لو كان العالم لا يجرى فيه إلا الصلاح المحض لم يكن هذا العالم عالمنا بل عالم آخر[٢].

٣- أن وجود الشر فى العالم لا ينفى عناية الله له :

"فلو لم يكن هناك خالق مدبر للعالم فلم لا يكون أكثر من هذا وأفظع من ذلك؟ أن تقع السماء على الأرض، وتهوى الأرض فتذهب سفلاً وتتخلف الشمس عن الطلوع أصلاً ، وتجف الأنهار والعيون حتى لا يوجد ماء ليشفه وتركد الريح حتى تختمر الأشياء وتفسد ويفيض ماء البحار على الأرض فيغرقها وهذه الآفات من الوبا والجراد وما أشبه ذلك ما بالها لا تدوم وتمتد ... إن العالم يصان ويحفظ من تلك الآفات الجليلة التى إن حدث شيء منها كان فيه بوازه ، ويلدغ أحياناً بهذه الأفات اليسيرة لتأديب الناس

---

(١) انظر: الإشارات والتنبيهات -لابن سينا القسم الثالث صـ ٢٩٩-٣٠٥.

(٢) انظر: رسالة فى سر القدر لابن سينا صـ ٢٤٦ حقوق الطبع محفوظة وذلك بمطبعة كردستان العلمية. وبحوث ودراسات فلسفية د/ سعيد مراد صـ ١١١-١١٢ - نشر مكتبة الأنجلو المصرية . الفلسفة الإسلامية فى المشرق د/حامد الخولى صـ ٢٣٦ - ٢٣٨ الشرق الأوسط للطباعة.

وتخويفهم ، ثم لا تترك هذه الآفات أن تدوم بل تكشف عنهم عند القنوط فيكون وقوعها بهم موعظة وكشفها عنهم رحمة"(١).

فوجود الشرور على هذا النحو وبهذا القدر تدل على عناية واضحة فضلاً عن كونها نفعاً للناس لتقويمهم وتذكيرهم برحمة الله تعالى بهم؛ ولهذا "فالشر لا يناقض الخير فى جوهره ، ولكنه جزء متمم له أو شرط لازم لتحقيقه" (٢).

والعالم الذى نعيش فيه من تدبير الله وهو أفضل عالم ممكن ، وعلى الناظر فيه أن ينظر إليه نظرة شاملة، ليدرك الحكمة من وجود الخير والشر، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، فإن وجود الشر "لا يتعارض مع كمال العالم ولا يتعارض مع العناية الإلهية فهذه الشرور أمور جزئية والعالم فى جملته خير" (٣).

٤- إن الشرور يجب إضافتها إلى الإنسان ، فما يحدث من الآلام ترجع لطبيعة الإنسان ، لا لقصور فى العناية بالكون من قبل الله تعالى يقول ابن سينا : "إن الشرور يجب إضافتها إلى الأشخاص والأزمان والطباع وأنه متى حصل نقص فى آحاد نوع ما كان ذلك النقص، عائداً إلى ضعف فى القابل وقصور فى المستعد، وإلا فالفيض عام من غير بخل به ، ولا منع عنه" (٤).

وبناء على هذا لا يصح إنكار الوحدانية أو نفى عنايته بالكون لوجود الشر فى العالم.

---

(١) الدلائل والاعتبار للجاحظ صـ ٦١-٦٢.

(٢) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. العقاد صـ٧.

(٣) دراسات فى الفلسفة الحديثة : محمود زقزوق صـ ٢٠٤ دار الفكر العربى ط٣ ١٤١٤ -١٩٩٣. وانظر قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر صـ ١٥٢ ، الإنسان فى الفلسفة الإسلامية دراسة مقارنة فى فكر العامرى د/ منى أبو زيد صـ ١٣١ المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر بيروت ط ١ ١٤١٤ - ١٩٩٤م.

(٤) الرسالة العرشية فى حقائق التوحيد - لابن سينا صـ٣٩.

٥- إن الشر ضرورى لتحقيق الحرية الإنسانية :

فقد ذهب بعض الفلاسفة إلى أهمية وجود الشر فى حياة الإنسان، ومن هؤلاء الفيلسوف الألمانى كانط[١] وذلك من خلال التركيز على أهمية وجوده فى حياة الإنسان فهو يرى أن "الشر ضرورى من أجل القول بالحرية، ولا يكتسب فعل الخير ميزته إلا إذا كان فعل الشر ممكن الحدوث ، ... فإمكانية الشر موجودة فى الإنسان كأساس ضرورى للحرية، فإمكانية الشر هى التى تجعل الحرية ممكنة ، لأنه يمتنع القول بأن الإنسان حر إذا كان مجبولاً على الخير فقط، أو الشر فقط" [٢].

فوجود الشر فى العالم أمر ضرورى حتى تتحقق للإنسان حريته هذه بعض الأدلة العقلية التى استدل بها العلماء على فساد هذه الشبهة ، [٣] والتى يتضح منها تهافت المتمسكين بها، فإن ما ادعوه لا أساس له من الصحة، ولم لا؟ والعناية فى العالم تسيطر على كل ما فيه.

ب- الأدلة العلمية :

لقد ساق العلماء جملة من الأدلة العلمية ، وذلك من خلال بعض الظواهر التى نشاهدها فى العالم، وجعلوا منها أدلة علمية تؤكد على أهمية الشر فى العالم، وأن وجوده لا يعنى إنكار وجود الله تعالى ، أو عدم عنايته بالعالم.

---

(١) كانط : ولد عام ١٧٢٤ وتوفى عام ١٨٠٤ وكان الولد الرابع فى عائلة فقيرة لها أحد عشر ولداً وترك مؤلفات كثيرة نقد العقل ، المقدمات، نقد الحكم [انظر : موسوعة إعلام الفلسفة العرب والأجانب جـ٢ صـ ٢٤٤ - ٢٤٥].

(٢) مدخل إلى فلسفة الدين. د/ محمد عثمان الخشت صـ ١٣٣ دار قباء للطباعة والنشر ٢٠٠١م.

(٣) لمزيد من الأدلة حول فساد هذه الشبهة انظر:الإبانة عن أصول الديانة. صـ ١٦٦ تحقيق د.فوقيه حسين ، المقابسات لابى حيان التوحيدى المقابسة ٤٣ صـ ٢٠٨ محقق بقلم حسن السندوبى دار سعاد الصباح ط٢ / ١٩٩٢، الإنسان فى فكر العامرى د. منى أبو زيد صـ ١٤١ ، حوار بين المليين ٢٩٨ - ٣٠٥ قضية الخير والشر فى الفكر الإسلامى د. محمد السيد الجليند صـ ١٦٦٥ - ١٦٦ مطبعة الحلبى ط٢ ١٩٨١ الدلائل والاعتبار للجاحظ صـ ٦٣ - ٦٤.

١- وجود الموت :

فقد أكدت الأبحاث العلمية على أهمية الموت، فلولاه لاستحالت الحياة على خلاف ما يتشدق به المنكرون لوجود الله تعالى ؛ من أن الموت شر يدل على عدم عنايته بالعالم . فالموت له أهمية من عدة نواح منها كما يقول بعض العلماء : "لو أن ذبابتين توالدتا هما وأولادهما دون موت ، فإنه بعد خمس سنوات تشكل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها ٥سم، وهو جنس واحد من المخلوقات ؛ فكيف إذا كانت المخلوقات كلها تتوالد ولا تموت؟" [١].

من خلال هذا تتضح الحكمة من الموت ومن وجود أسبابه التى ينتج عنها هذا من ناحية ومن ناحية أخرى معلوم أن الإنسان عندما بلغ سن الشيخوخة فى هذه المرحلة "تهرم خلايا الجسم وأنسجته بشكل ظاهر، وتتصادم أجهزته ، وتضعف كفاءتها الوظيفية ، وتقصر عن الوفاء بمتطلبات المرء ، والتكيف مع البيئة وأنشطتها" [٢].

مما ينتج عنه عدم الرغبة فى الحياة، والشعور باليأس وفقدان الأمل، حتى إنه يتمنى أن يجد خلاصاً له من هذا الشعور ، فالموت ليس شراً كما يظن البعض ، وإن بدا فى ظاهرة ذلك وإنما هو خير.

٢- الزلازل والبراكين والشهب الحارقة :

ظاهرة من الظواهر الدالة على قدرته تعالى ووجوده ، ينظر البعض

---

(١) الله – سعيد حوى صـ ٦٥-٦٦ نشر مكتبة وهبة.

(٢) الموسوعة النفسية الجنسية د. عبد المنعم الحفنى صـ ٣٧٦. مكتبة مدبولى ط٣ ٢٠٠٠م.

إليها على أنها ، شر ويعتقد بذلك اعتقاداً جازماً، لكن الأمر على خلاف ذلك ، وهذا ما أكدته الأبحاث العلمية، فقد أثبتت أن الأمر خلاف ما يظنه الناس بالنسبة لهذه الظواهر فقد يظن البعض "أن البرق ليس أكثر من وسيلة من وسائل التدمير، ولكن التفريغ الكهربي الناتج عن البرق، يؤدى إلى تكوين أكاسيد النتروجين ، التى يهبط بها المطر ، أو الثلج إلى التربة، ويستفيد منها النبات ، وتقدر كمية النيتروجين التى تحصل عليها التربة، بهذه الطريقة ، فى صورة نيترات بما يقرب من خمسة أرطال للفدان الواحد سنوياً، وهو ما عادل ثلاثين رطلاً من نيترات الصوديوم، وهذه كمية تكفى لبدء نمو النباتات.





ويلاحظ أن كمية النيتروجين الذى يبثه البرق تكون فى المناطق الاستوائية أكثر منها فى المناطق المعتدلة الرطبة ، وهذه بدورها تزيد على الكمية التى تتكون فى المناطق الجافة الصحراوية، ومن ذلك نرى أن النيتروجين يوزع على المناطق الجغرافية المختلفة بصورة متفاوتة تبعاً لمدى احتياج كل منطقة لهذا العنصر فمن دبر كل ذلك؟ إنه المدبر الأعظم" [١] وهو الله تعالى.

إن العلم الحديث يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أهمية وجود الشر فى العالم بل إنه يجعل من وجوده دليلاً على وجود الله تعالى وعنايته بالكون ، إن بعض الأمور قد تحدث ويظن البعض فى حدوثها شراً ؛ إلا أن الواقع العلمى يشهد بخلاف ذلك ، فالبرق والرعد ظاهرها العذاب ، ولكن النظرة العلمية تكشف عن مدى الخير الذى ينتج عنهما ، وبالجملة إن الشرور الواقعة عندما نتأملها جيداً ، وندقق النظر فيها نعلم أنها خير، وخير كثير.

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم.. نخبة من العلماء الأمريكين صـــ ٢٤.

٣- الرضاعة :

بعض النساء ترفض إرضاع وليدها لا سيما فى المجتمعات الملحدة، فهى ترى فيها شراً لا مثيل له.

فمن ناحية ترى أن ذلك إهداراً لآدميتها وتشبيهاً لها بالبقرة وأن طفلها هو الذى يقوم بحلبها ، ومن ناحية أخرى ترى أن ذلك يقضى على جمالها ورشاقتها [1].

والواقع خلاف ذلك فقد أكدت الأبحاث العلمية على عدة حقائق تتعلق بهذا الموضوع :

أ- وجود خير للطرفين من عملية الرضاعة :

هذا ما أكدته الأبحاث العلمية ، فقد أثبت العلم الحديث "أن لبن الأم يقاوم شلل الأطفال ؛ حيث يوجد فى لبن الأم مادة مضادة لعدوى شلل لا ننكر أن الأبحاث لم يتعرفوا بعد على كنه هذه المادة وتركيبها ، ولكن لديهم من الأدلة العلمية ما يؤيد هذه النتيجة العلمية المفيدة" [2].

ب- أثبتت التجارب العلمية أن الأطفال الذين يرضعون من أثداء أمهاتهم أنضج وأكثر استقراراً من غيرهم. لأن لبن الأم " أكثر كمالاً، ويوفر المناعة للطفل ... كما يقدم الهرمون الناقص ، ويمنع من أن يتلف المخ نتيجة قلة الإفراز الدرقى" [3].

---

(١) انظر: الموسوعة النفسية الجنسية د.عبد المنعم الحفنى صـ ٢٩٩ - ٣٠٠، الإسلام والوقاية من الأمراض د. عز الدين فراج صـ ٢٠ دار الرائد العربي بيروت ط٢ ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.

(٢) الإسلام والوقاية من الأمراض د. عز الدين فراج صـ ٢٠-٢١.

(٣) الموسوعة النفسية د. عبد المنعم الحفنى صـ ٢٩٨.

جـ- العلاقة الإيجابية بين الطرفين فضلاً عن هذا توفر للأم وقتها ، وجهدها ، وتحفظ لها وليدها ، لا سيما وأن نسبة الدهن فى لبن الأم أقل "فنسبة الدهن فى لبن الجاموسة والنعاج ضعف نسبته فى لبن الأمهات"(١).

كل هذا يؤكد أن الشر الموجود فى العالم ، فى الغالب لا يكون شراً وإنما أراده الله لحكمة يعلمها وغاية قصدها.

" فأحياناً يكون عقوبة لذنب من الذنوب، وأحياناً وسيلة مناسبة لبلوغ هدف معين، أى لمنع شر أعظم ، أو للحصول على خير أعظم، كذلك تكون العقوبة سبيلاً للإصلاح والترهيب ، والشر غالباً ما يكون سبباً لإظهار الخير" (٢).

٤- وجود الشر يرجع لمخالفة السنن الكونية كثير من الشرور التى تحدث فى العالم ليست ناتجة عن قصور فى العناية، الإلهية ، وإنما ترجع فى الغالب إلى مخالفة القوانين الإلهية، والسنن الكونية ، وهذا ما شهدت به الأبحاث العلمية مثلاً.

أ- مرض الإيدز :

مرض الإيدز المعروف بمرض نقص المناعة، ينشأ عن فيروس يهاجم الجهاز المناعى فى الإنسان ، ولا يستطيع أن يقاومه الجهاز مما ينتج عن ذلك عدة أمراض أخرى خطيرة تنتهى بالقضاء على حياته، وقد أكدت الأبحاث العلمية ، أن هذا المرض يظهر لمخالفة الفطرة.

---

(١) الإسلام والوقاية من الأمراض د. عز الدين فراج صـ ٢٢.

(٢) دراسات فى الفلسفة الحديثة د. محمود حمدى زقزوق صـ١٤٣ .الفكر العربى ط٣ ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

ولا يخفى على عاقل أنه يرجع إلى الاختلاط ، والجنس المحرم ، كالزنا الجماعى ، واللواط ، و السحاق[١].

فالإيدز شر لا شك فى ذلك، ولكن سببه مخالفة القوانين الإلهية وقد "تعذر على العلماء فى هذا العصر فهم طبيعة هذا الفيروس الذى يتكاثر بسرعة مذهلة، والذى يتحور فى شكله وخواصه من حين لآخر ، فيكتسب بعد كل تحور صفات جديدة مغايرة لصفاته السابقة، مما جعل تحضير لقاح ناجح يحمى من الإصابة بالمرض أمراً متعذراً بل ومستحيلاً ؛ لذا وقف العلماء مكتوفى الأيدى إزاء هذا الفيروس العجيب فى فتكه البسيط فى تركيبه وخواصه ، ولا زالت الأبحاث العلمية قاطبة تمنى بالفشل الواحد تلو الآخر بينما يتساقط الملايين من هؤلاء المارقين الشاذين صرعى المرض ، وصرعى الفساد، وصرعى الرذيلة" [٢].

فهل هذا نتيجة لقصور فى العناية الإلهية أم لمخالفة سننه وقوانينه؟

ب- شرب الخمر :

يشاع بين شاربى الخمر أن لها فوائد عظيمة للجسم، وواقع الأمر خلاف ذلك فهى توقع الضرر بالجسم، وتؤثر عليه وينتج عنها أمراض خطيرة كمرض القلب أو الكلى وغيرهما لهذا أوصت الأبحاث العلمية بضرورة البعد عنه كوسيلة غذائية فقد أوضحت هذه الأبحاث أن الخمر يؤثر "على أعصاب القلب فيؤدى إلى سرعة دقاته، مما يؤدى إلى ضعف القلب

---

(١) انظر: فى رحاب القرآن إعداد حسين حسن سلامة صـ١٧٥. الهيئة المصرية العامة للكتاب مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩م.

(٢) وجود الله بالدليل العلمى والعقلى د. محمد نبيل النشواتى صـ ١٥٠-١٥١. دار القلم دمشق ط ١٤٢٠ / ١٩٩٩م.

نتيجة إنهاك قوته بسبب ما تضطره إليه من زيادة العمل، وتؤثر المشروبات الكحولية تأثيراً خطيراً فى الكليتين فقد ثبت أنه عندما يمر الكحول منهما مع الدم يحدث عنهما تهيجاً والتهاباً، فإذا توالى هذا التهيج والالتهاب ، فإن نسيج الكليتين يصاب بالتلف، فقد دلت التجارب والإحصائيات على كثرة الإصابة بالتهاب الكلى نتيجة إدمان تعاطى المخدرات" [١].

كما أثبتت هذه الأبحاث أن مدمنى الخمور والكحوليات هم أكثر الناس إصابة بالأمراض الأخرى وذلك "كالزكام ، والأنفلونزا ، والالتهاب الرئوى والنزلات الصدرية" [٢].

جـ- تصلب الشرايين :

من بين الأمراض الخطيرة والتى تعد شراً عظيماً هذا المرض فقد يترتب عليه موت الإنسان، ومع شريته إلا أن الأبحاث العلمية أكدت على أن سببه يرجع إلى الإفراط فى الطعام بصورة مفرطة.

فتصلب الشرايين فى البشر ينجم عن تجاوزات أو اختلالات غذائية [٣] وهذا يخالف السنن الإلهية قال تعالى :

﴿ ... وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [٤]

جـ-الأدلة النقلية :

لقد حوى القرآن الكريم كثيراً من الأدلة التى توضح وجود الله

---

(١) الإسلام والوقاية من الأمراض د. عز الدين فراج صـ ٦٨.

(٢) نفس المصدر صـ ٧٠.

(٣) انظر: ثورة فى الطب: كِيلمرى . ماكى . ترجمة د. أحمد مستجير صـ ٣٨-٤٠ مهرجان القراءة للجميع صيف ١٩٩٠.

(٤) سورة الأعراف الآية ٣١.

تعالى ، وأن وجود الشر لا يعنى عدم وجوده ، ولا يمنع من عنايته بالكون.

١- قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [١].

فسياق الآية يوضح أن النفس لا تميل إلى القتال وتكرهه ، وتظن فيه شراً وإنما كان الأمر كذلك.

لأن فيه إخراج المال، ومفارقة الوطن، والأهل ، والتعرض بالجسد للشجاج والجراح ، وقطع الأطرف وذهاب النفس؛ فكان كراهتهم لذلك ... لكن إذا عرف الثواب هان فى جنبه ما قساه من المشقات ... فلا نعيم أفضل من الحياة الدائمة فى دار الخلد والكرامة فى مقعد صدق [٢].

٢- قال تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [٣]

فالواضح من سياق الآية أن عملية الإعابة فيها خير حيث النجاة من الملك الغاصب، بينما الأمر يبدو من تصور العقل على أنه شر.

" فإذا تمت الموازنة بين ما يبدو من القصص القرآنى، وبين تصور

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦.

(٢) انظر: تفسير القرطبى جـ١صـ ٨٤٧ عند تفسير الآية ٢١٦ من سورة البقرة.

(٣) سورة الكهف الآية ٧٩.

العقل؛ أمكن القول بأن فعل الإعابة كانت له بواعث؛ منها باعث الإنجاء من الغصب، وباعث المحافظة على مال المساكين وهو منهج أخلاقى فى أعلى إمكانياته" [١].

يقول الزمخشرى " قيل كانت لعشرة أخوة خمسة منهم زمنى ، وخمسة يعملون فى البحر ... فأردت أن أعيبها خوفاً من الغصب وحفظاً لمال المساكين" [٢].

" وهذه الآية تكشف لنا عن وجهين فى مسألة واحدة وأن أحدهما كان ينظر إلى الأمور من خلال تجارب الحياة ، وأمور الطبيعة ، بينما الثانى كانت تقوده أمور غيبية ، وتحكمه قوانين عالية توازن بين متطلبات الحياة، وبين قدرة الله بحيث يخضع فى النهاية لأوامر عليا صادرة عن خالق حكيم" [٣].

٣- (ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكه بشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) [٤].

فإن هذا الحديث يؤكد على أهمية الشر، وأن ما يحدث للمرء قد يبدو فى ظاهره الشر لكن بنظرة تأمل يعلم أنه خير.

إن" العبد ملازم للجنايات فى كل أوانه ، وجناياته فى طاعته أكثر من جناياته فى معاصيه؛ لأن جناية المعصية من وجهه ، وجناية الطاعة من وجوه ،

(١) منهج السلف فى إثبات وجود الله د . محمد الحسينى صـ ١٥٣.
(٢) انظر: تفسير الكشاف للزمخشرى جـ٢ صـ ٧٤٠ عند تفسيره للآية ٧٩ من سورة الكهف.
(٣) منهج السلف د. محمد الحسينى الغزالى صـ ١٥٣.
(٤) البخارى ك المرضى والطب باب ما جاء فى كفارة المرضى م٤ جـ ٧ صـ ٢١٦ حديث (٥٤٦).

ويطهر الله عبده من جناياته بأنواع من المصائب ليخفف عنه أثقاله يوم القيامة، ولولا عفوه ومغفرته ورحمته لهلك فى أول خطيئة به" [١].

هذه بعض الأدلة النقلية التى توضح بعضاً من الحكم والفوائد التى تأتى من وراء وجود الشر فى هذا العالم.

وإن هذه الأدلة التى عرض البحث لها لتجتمع فتؤكد قصر نظر أصحاب هذه الشبهة، فوجود الشر لا يصلح دليلاً لرفض الألوهية بل إن النظرة التأملية المنصفة لتجعل من وجود الشر فى العالم ، دليلاً على وجوده تعالى. فالشر والخير من دلائل وجوده.

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة محمد عبد الرءوف المناوى جـ٥ صـ ٥٨٦ طبعة جديدة منقحة ط دار الفكر العربى للنشر والتوزيع بيروت ط١ ١٤١٦هـ -١٩٩٦م.

فهرس الموضوعات

دار التراث ٠١٠٩٢٩٢٧٧١